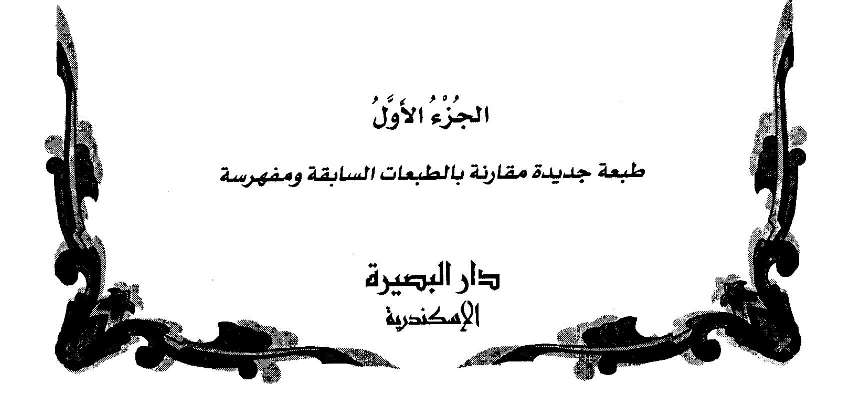
شرح

العقيدة الطحاوية

للعلامة ابن أبي العز الحنفي

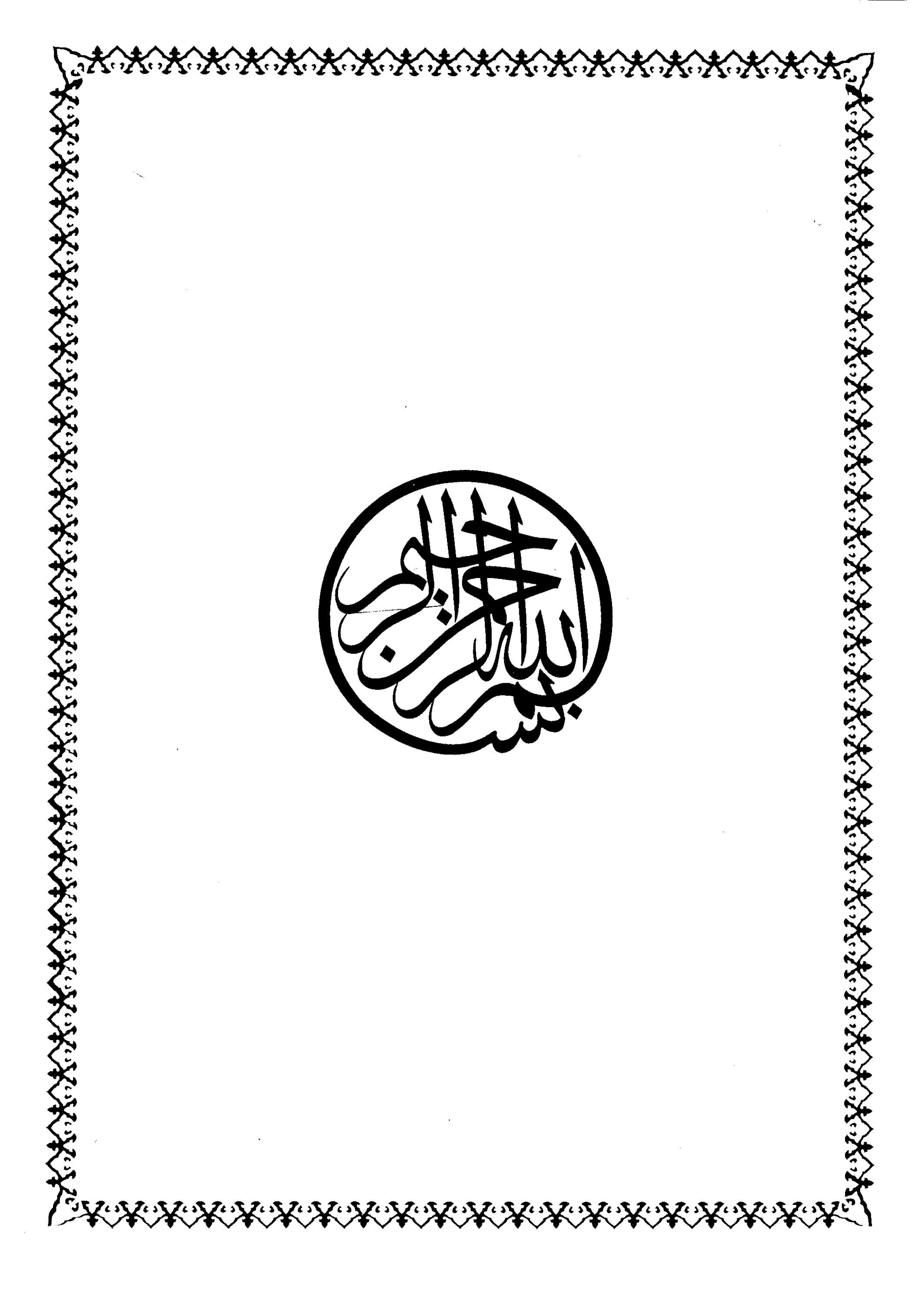
تحقيق وتخريج
أبو إدريس/ محمد عبد الفتاح

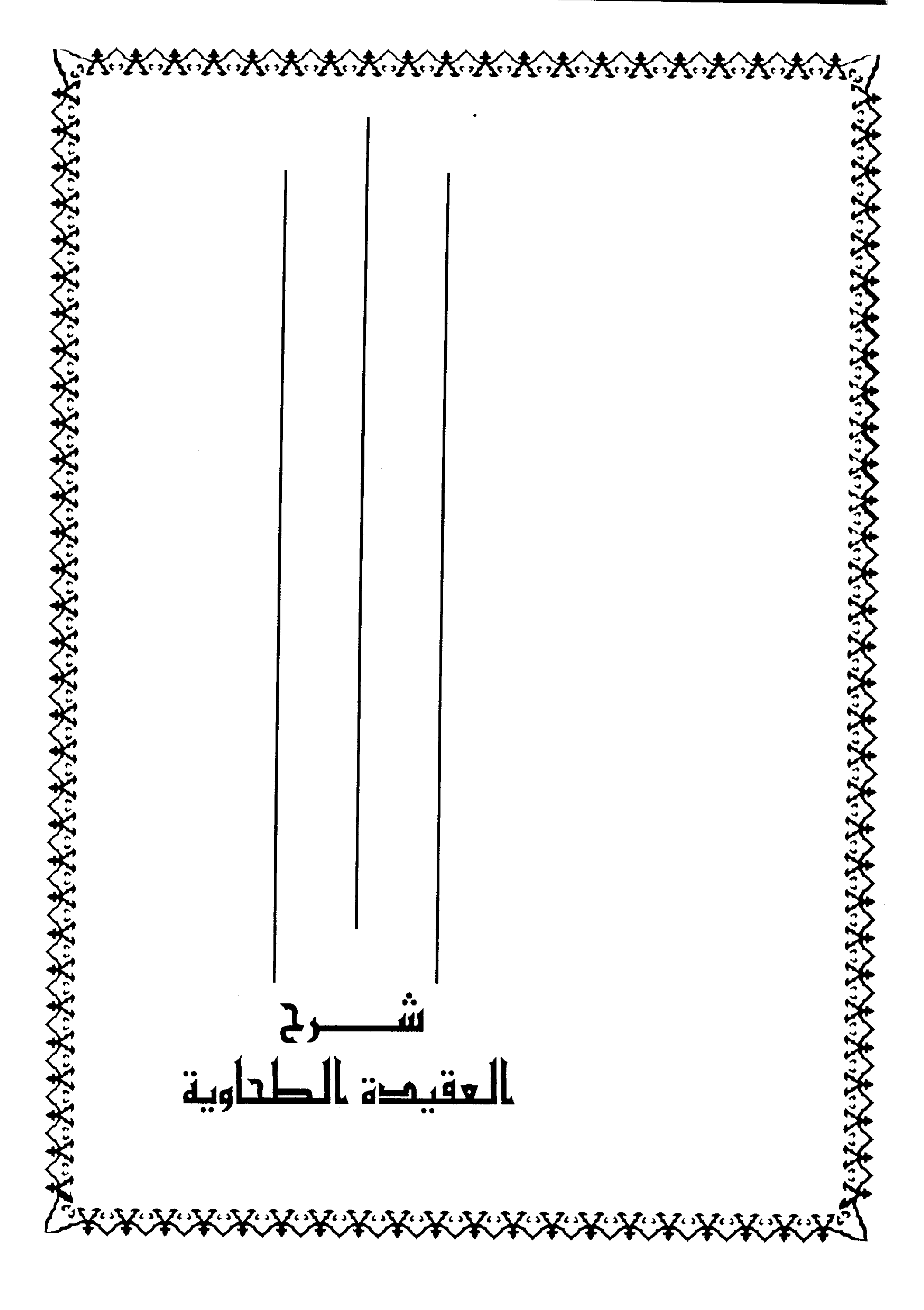


الجزء الأول

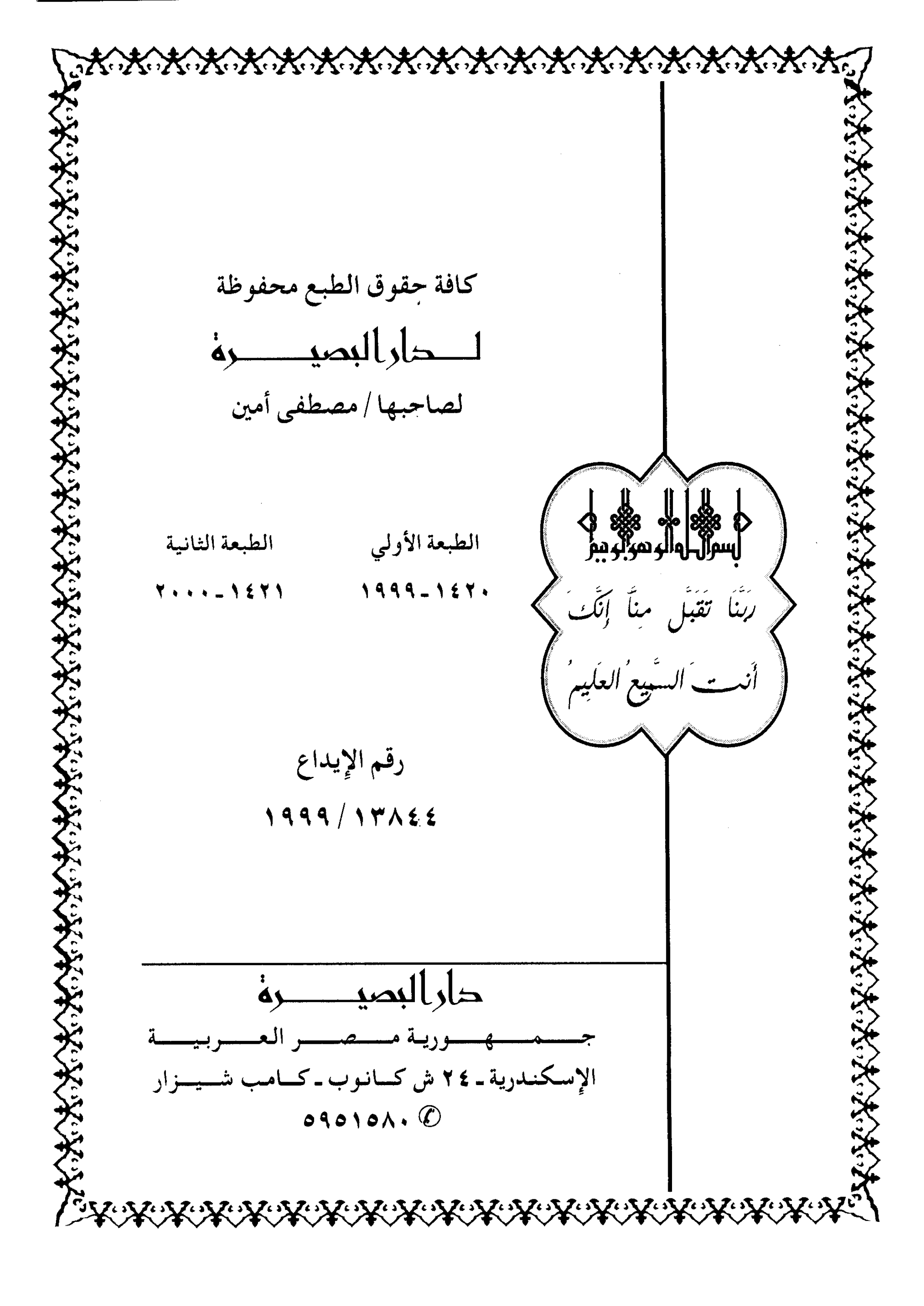
طبعة جديدة مقارنة بالطبعات السابقة ومفهرسة

دار البصيرة
الإسكندرية


بسم الله الرحمن الرحيم



شرح
العقيدة الطحاوية



بسم الله الرحمن الرحيم

ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم

الطبعة الأولي ١٤٢٠-١٩٩٩

الطبعة الثانية ١٤٢١-٢٠٠٠

رقم الإيداع

١٣٨٤٤ / ١٩٩٩

دار البصيرة

جمهورية مصر العربية

الإسكندرية - ٢٤ ش كانوب - كامب شيزار

✆ ٥٩٥١٥٨٠



مقدمة الناشر

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمد عبده ورسوله.

أما بعد:... فإن الله تعالي بعث نبيه ﷺ داعياً إلي الإيمان، راسماً طريق الهدي، ومحذراً من طريق الزيغ والضلال، فقد جاءنا بالقرآن الكريم، حاملاً الهداية لمن تمسك به، وإن مما جاء به القرآن الكريم ذلكم المنهج القويم في صفات الله تعالي ألا وهو منهج الإثبات المقرون بمنهج التنزيه الذي اشتمل عليه قوله تعالي: ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**﴾ [الشوري: ١١]. وقد سار عليه ـ أي منهج الصفات ـ سلف الأمة فوصفوا الله بما وصف به نفسه، أو وصف به رسوله ﷺ من غير تحريف والا تعطيل، ولا تكييف ولا تمثل، إثبات بلا تمثيل وتنزيه بلا تعطيل، وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يتلقون من رسول الله ﷺ نصوص الصفات فيؤمنون بها حسب فهمهم ومُقتضي لغتهم التي بها نزل القرآن فكانت نصوص الصفات من الوضوح والبيان بحيث اتفقوا علي فهم المراد منها ولم يحصل بينهم إختلاف في ذلك أبداً ولو حصل لنُقل إلينا، ومضي الصدر الأول علي هذا المنهج السليم حتي بدأت الفتنة تستشري، والخلاف يتسع شيئاً فشيئاً فظهرت المِلل والنِحل، فخرجت الخوراج ببدعها، وظهرت الشيعة بغلوها وفتنها، ثم توالي

ظهور البدع وتكونت الفرق، وتوارثت الأجيال كثيراً من الإنحرافات العقدية والسلوكية وغيرها، وأنبعدت عن منهج الإعتدال، وكانت لكل هؤلاء دُعاه إجتاحوا معالم الدين وأصول العقيدة حرصاً علي جمع الناس دون تزكيتهم وتعليمهم الكتاب والسنة فإنتشر الإرجاء وضاعت معالم التوحيد وحقيقة العبادة فكان لابد من ظهور فئة تقتفي الأثر، وتصحح المنهج، وتقود الناس إلي الصراط المستقيم علي منهج سلف الأمة.

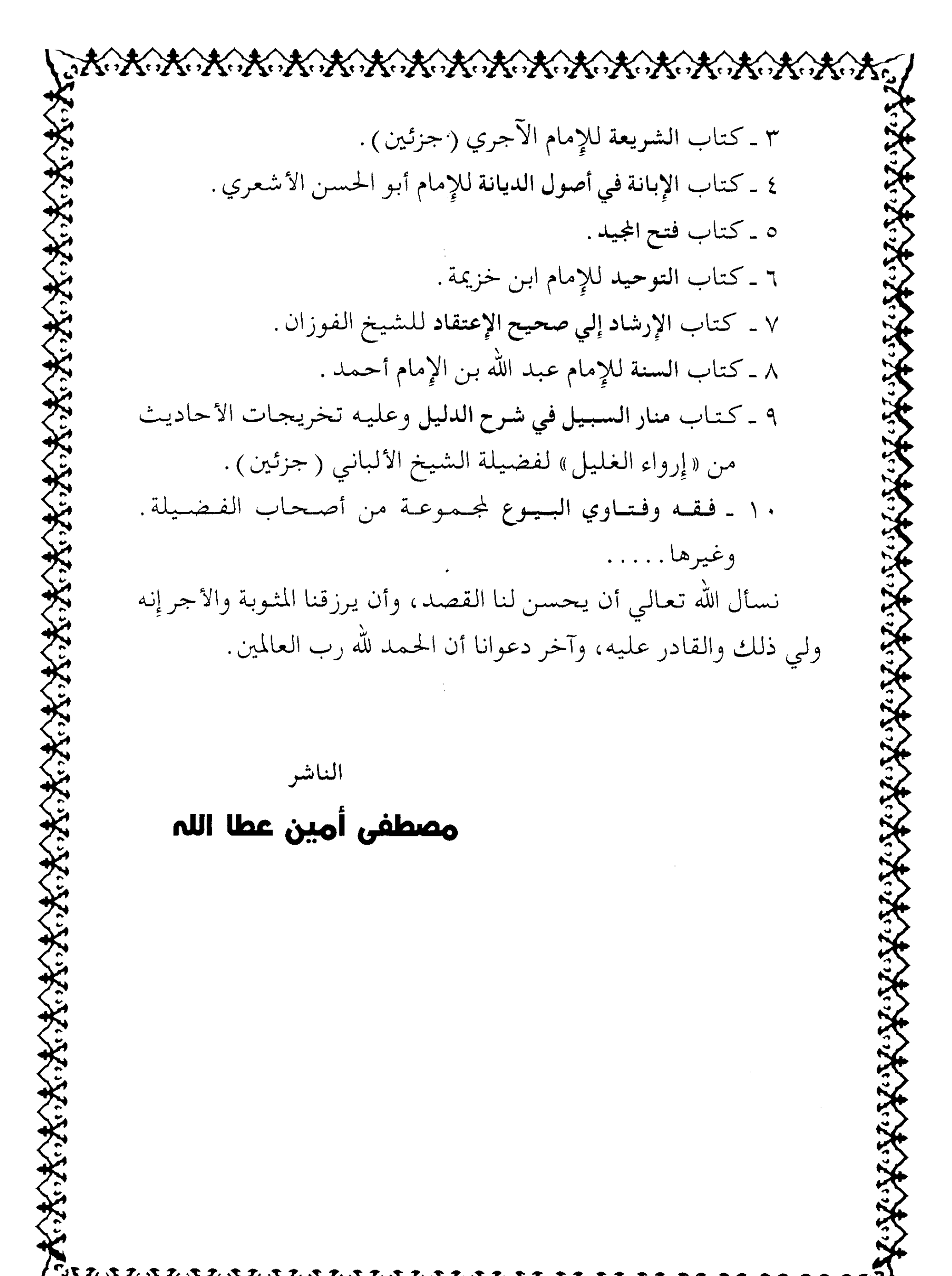
هذا ومن هؤلاء الأئمة الإمام أبو جعفر أحمد الطحاوي الذي جمع عقيدة السلف في مختصر صغير الحجم، كثير النفع، وشرحه العلامة محمد بن أبي العز الحنفي ولقد منّ الله علينا إذ يسر لنا طباعة هذا الكتاب القيم وقمنا بعمل تحقيق وتخريج للأحاديث للفائدة فقد قمنا بوضع متن العقيدة الطحاوية، وعليها تعليقات فضيلة الشيخ عبد العزيز بن باز ـ رحمه الله ـ، وفضيلة الشيخ مُحَدث الأمة محمد ناصر الدين الألباني ـ رحمه الله ـ سائلين الله عز وجل أن ينفع جميع المسلمين بهذه التعليقات والتخريجات.

ولا يفوتنا أن نتقدم بالشرك لكل من شارك في هذا العمل من جهد، ونصيحة، وساعد علي نشر هذه العقيدة.

ونحمد الله الذي يسر لنا اصدار (**سلسلة تيسير طلب العلم**) والذي صدر منها: ـ

١ ـ كتاب **شرح العقيدة الواسطية** لفضيلة الشيخ محمد صالح العثيمين (جزئين).

٢ ـ كتاب **القول المفيد علي كتاب التوحيد** لفضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين (ثلاث أجزاء).



٣ ـ كتاب **الشريعة** للإمام الآجري (جزئين) .

٤ ـ كتاب **الإبانة في أصول الديانة** للإمام أبو الحسن الأشعري .

٥ ـ كتاب **فتح المجيد** .

٦ ـ كتاب **التوحيد** للإمام ابن خزيمة .

٧ ـ كتاب **الإرشاد إلي صحيح الإعتقاد** للشيخ الفوزان .

٨ ـ كتاب **السنة** للإمام عبد الله بن الإمام أحمد .

٩ ـ كتاب **منار السبيل في شرح الدليل** وعليه تخريجات الأحاديث من «إرواء الغليل» لفضيلة الشيخ الألباني (جزئين) .

١٠ ـ **فقه وفتاوي البيوع** لمجموعة من أصحاب الفضيلة .

وغيرها . . . . .

نسأل الله تعالي أن يحسن لنا القصد ، وأن يرزقنا المثوبة والأجر إنه ولي ذلك والقادر عليه، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

الناشر

مصطفى أمين عطا الله

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة التحقيق

إن الحمد لله، نحمد ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادى له، وأشهد ألا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِى تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

أما بعد، فالحمد لله الذى حفظ دينه وشرعه وكتابه، وأرسل رسوله ﷺ إلى العالمين، بخير الرسالات، ورفع جنابه، وختم به الأنبياء، وبرسالته الرسالات؛ فمن أطاعه، واتبع رسالته، فقد عرف الحق وأصابه.

وقد جعل الله عز وجل أصل رسالته كلمة ا لتوحيد « لا إله إلا الله، محمد رسول الله » هذه الكلمة العظيمة التى لأجلها نصبت الموازين، ووضعت الدواوين، وقام سوق الجنة والنار، وبها انقسمت الخليقة إلى المؤمنين والكفار، والأبرار والفجار، وأسست الملة، ولأجلها جردت السيوف للجهاد، وهى حق الله على جميع العباد.

وتوحيد الله فطرة فطر الله الناس عليها، إلا أنها قد تنتكس وتخبو بما كسبت أيدى المفسدين، فلا جرم أن أرسل ربنا سبحانه رسله، يخرجون الفطَر من قبورها، ويعرفونها على ربها، ويردون على شبهات علقت بالقلوب من كثرة ما اعتادت العيش بعيداً عن ربها وخالقها، نافرة من شرعه، فارة من دينه.

وهذا ما يفعله ورثة النبى ﷺ من دعاة هذه الأمة، يلقون إلى الناس عقيدة التوحيد سهلة، تلتقى مع فطرهم السليمة؛ فإن كان ثم شبهة، جردوا سيوف الحق لدحضها والقضاء عليها، وسعوا فى إقامة الحق مكانها.

* * *

عملنا فــى هــذا الكتاب

قمنا - بفضل الله - بتخريج أحاديث الكتاب، مع الحرص على بيان درجة الحديث، كما قمنا بعمل تراجم لبعض الأعلام الذين ذكرهم الشارح.

وأيضاً عمل فهارس نوعية للآيات، والأحاديث، والآثار، والأعلام.

وكان من ثمرة هذه الفهارس أن تبين لنا أن كتاب « شرح العقيدة الطحاوية » اشتمل على (٥١٥) حديثاً من أوله إلى آخره بدون المكرر، منها (٤٣٨) حديثاً مرفوعاً، و(٧٧) أثراً موقوفاً على الصحابة ﷺ.

أما الأحاديث المرفوعة ففيها من الصحيح وما فى معناه (٣٨٦) حديثاً.

والضعيف وما فى معناه (٤٦) حديثاً.

وأما الموضوع ففيه أربعة أحاديث.

وقد بذلنا جهدنا للعثور على درجة لكافة الأحاديث التى استدل بها الشارح - رحمه الله -، إلا أنه لم يحالفنا التوفيق فى ثلاثة منها؛ فلم نتمكن من العثور عليها فى المراجع التى بين أيدينا. وندعو الله أن يوفقنا لاستدراك ما فاتنا، وإصلاح ما وقع منا من أخطاء - لم نتعمدها - وذلك فى الطبعة القادمة إن شاء الله.

والله من وراء القصد.

المحقق

ترجمة الإمام الطحاوىّ[1]

هو الإمام العلامة الحافظ الكبير، محدث الديار المصرية، وفقيهها، أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة بن سلمة بن عبد الملك، الأزدىّ، الحجرىّ المصرىّ الطحاوىّ الحنفى. صاحب التصانيف، من أهل قرية طحا، قرية بصعيد مصر.

ولد سنة (٢٩٣ هـ).

كان ثقة ثبتاً، لم يخلف مثله.

برز فى علم الحديث، وفى الفقه، وانتهت إليه رياسة الحنفية بمصر.

سمع من: هارون بن سعيد الأيلى، ويونس بن عبد الأعلى، والربيع بن سليمان المرادىّ، وخاله أبى إبراهيم المزنى، وغيرهم.

وقرأ أولاً على المزنى، وقيل: وكان ابن أخته، فقال له يوماً: والله لا جاء منك شئ، فغضب وانتقل إلى جعفر بن عمران الحنفى، ففاق أهل عصره، وكان يقول بعد ذلك: رحم الله أبا إبراهيم - يعنى المزنى - لو كان حياً لكفر عن يمينه.

من تصانيفه: « اختلاف العلماء »، و« الشروط »، و« أحكام القرآن »، و« شرح معانى الآثار »، و« شرح مشكل الآثار »، و« مختصر الطحاوي في الفقه الحنفي » ، ومتن « العقيدة الطحاوية ».

توفى سنة (٣٢١ هـ) بمصر، ودفن بالقرافة.

---

(١) سير أعلام النبلاء - شذرات الذهب.

ترجمة الشارح [1]

هـــو عليّ بن محمد بن محمد بن العز الدمشقى، علاء الدين الحنفى. ينتمى إلى أسرة ذات علم وفضل وسيادة.

درّس وأفتى وخطب بحسبان مدة، ثم ولى قضاء دمشق فى المحرم سنة (٧٧٩ هـ) ثم ولى قضاء مصر بعد ابن عمه، فأقام شهراً، ثم استعفى، ورجع إلى دمشق على وظائفه، ثم بدرت منه هفوة، فاعتقل بسببها، وأقام مدة خاملاً، إلى أن جاء الناصريّ فرفع إليه أمره، فأمر برد وظائفه، فلم تظل مدته بعد ذلك.

ابن أبى العز الحنفى مثل فى الوسطية، وعدم التعصب المذهبى:

لم يمنع ابن أبى العز كونه حامل لواء المذهب الحنفى، هو وآباؤه وأجداده من قبله أن يقر بالأستاذية لشيخه الحافظ ابن كثير الشافعى المذهب.

ولم يمنعه أيضاً من الاستفادة من مصنفات ابن القيم رحمه الله تعالى؛ فهو ـ رحمه الله ـ مثل صادق لاتباع الحق والدفاع عنه وحب أهله، ولو كانوا مخالفين فى المذهب الفقهى. ولعل نيته هذه وإخلاصه ـ والله حسيبه ـ هما السبب فى وضع القبول لهذا الشرح بين علماء الأمة.

من تصانيفه: «التنبيه على مشكلات الهداية»، و«النور اللامع فيما يعمل به فى الجامع» أى جامع الأموية.

توفى فى ذى القعدة سنة (٧٩٢ هـ).

(١) انظر: «هدية العارفين»، و «حسن المحاضرة»، و«شذرات الذهب».



الحمدُ لله، نستعينُه ونستغفرهُ، ونعوذُ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يَهْدِه اللهُ، فلا مُضلَّ له، ومن يُضْلِلْ، فلاَ هاديَ له.

وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لا شريكَ له، وأشهدُ أنَّ سيِّدَنا مُحمَّداً عَبْدُه ورسولُهُ، صلَّى اللهُ عليهِ وعَلى آله وصحبه وسلِّم تسليماً كثيراً.

أما بعدُ، فإنَّه لَمَّا كانَ علمُ أصولِ الدينِ أشرفَ العُلوم؛ إذ شَرَفُ العلمِ بشرَفِ المعلومِ، وهوالفقهُ الأكبرُ بالنسبةِ إلى فقه الفروعِ، ولهذا سمَّى الإمام أبوحَنيفةَ - رحمة الله عليه - ما قالَهُ وجَمَعَهُ في أوراقٍ منْ أصولِ الدينِ: «الفقْهَ الأكبَرَ» وحاجةُ العبادِ إليه فَوقَ كُلِّ حاجةٍ، وضرورتُهُم إليه فَوْقَ كُلِّ ضرورة، لأنَّه لا حياةَ للقلوبِ، ولا نَعيمَ ولاَ طُمأنينةَ، إلاَّ بأن تَعْرِفَ ربَّها ومَعْبُودَها وفاطرَها بأسمائه وصفاته وأفعاله، ويكونَ مع ذلك كُلِّه أَحَبَّ إليها مِمَّا سِواهُ، ويكونَ سعيُها فيما يُقَرِّبُها إليهِ دُونَ غيرِه من سَائرِ خلقه.

ومنَ المُحال أن تَسْتَقِلَّ العقولُ بمعرفة ذلك وإدراكه على التفصيل فاقْتَضَتْ رحمةُ العزيزِ الرحيمِ أنْ بعثَ الرُّسلَ به معرِّفينَ، وإليه داعينَ، ولمن أجابهم مبشِّرينَ، ولمن خالَفَهُم مُنْذرينَ، وجَعَلَ مفْتَاحَ دعوتهم، وزُبدَةَ رِسالتهم معرفةَ المعبود سبحانه بأسمائِهِ وصفاتِه وأفعالِه، إذ على

هذه المعرفة تُبْنَى مطالبُ الرسالةِ كُلُّها مِن أوَّلها إلى آخرها.

ثُمَّ يَتْبَعُ ذلك أصلان عظيمان:

أحدُهما: تَعْرِيفُ الطريقِ المُوصِلِ إليهِ، وهي شَرِيعتُه المُتضمِّنَةُ لأمرِهِ ونهيه.

والثاني: تعريفُ السالِكين ما لهم بَعْدَ الوصولِ إليه مِن النعيمِ المقيمِ.

فأعْرَفُ الناس بالله عزَّوجلَّ أتبعُهُمْ للطريقِ الموصلِ إليه، وأعرفُهم بحال السَّالكينَ عندَ القُدُومِ عليه، ولهذا سمَّى اللهُ ما أنزله على رسوله رُوحًا، لتَوقُّف الحياة الحقيقيَّة عليه، ونورًا لتوقُّف الهداية عليه، فقال تعالى: ﴿**يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ**﴾ [غافر: ١٥]. وقال تعالى: ﴿**وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ * صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ**﴾ [الشورى: ٥٢، ٥٣]. فلا رُوحَ إلا فيما جاءَ به الرسولُ، ولا نورَ إلا في الاستضاءَة به.

وهوالشِّفاءُ، كما قال تعالى: ﴿**قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ**﴾ [فصلت: ٤٤]. فهو - وإن كان هُدى وشفاء مطلقًا - لكن لما كان المنتفع بذلك هم المؤمنين، خُصُّوا بالذكر.

والله تعالى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق، فلا هدى إلا فيما جاءَ به.

ولا رَيْبَ أنه يجب على كُلِّ أحدٍ أن يُؤْمِنَ بما جاء به الرسولُ إيماناً

عاماً مجملاً، ولا ريب أن معرفة ما جاء به الرسول على التفصيل فرض على الكفاية، فإن ذلك داخل فى تبليغ ما بعث الله به رسوله، وداخل فى تدبر القرآن وعقله وفهمه، وعلم الكتاب والحكمة، وحفظ الذكر، والدعاء إلى الخير، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، والدعاء إلى سبيل الرب بالحكمة والموعظة الحسنة، والمجادلة بالتى هى أحسن، ونحو ذلك مما أوجبه الله على المؤمنين، فهو واجب على الكفاية منهم.

وأما ما يجب على أعيانهم، فهذا يتنوع بتنوع قُدَرِهم، وحاجتهم ومعرفتهم، وما أُمر به أعيانهم، ولا يجب على العاجز عن سماع بعض العلم أوعن فهم دقيقه ما يجب على القادر على ذلك.

ويجب على من سمع النصوص وفهمها من علم التفصيل ما لا يجب على من لم يسمعها ، ويجب على المفتى والمحدِّث والحاكم ما لا يجب على من ليس كذلك.

وينبغى أن يُعرف أن عامة من ضل فى هذا الباب، أوعجز فيه عن معرفة الحق، فإنما هولتفريطه فى اتباع ما جاء به الرسول ﷺ، وترك النظر والاستدلال الموصل إلى معرفته، فلما أعرضوا عن كتاب الله، ضلوا، كما قال تعالى: ﴿ **فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ ولا يَشْقَىٰ * وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ** ﴾ [طه: ١٢٣ - ١٢٦].

قال ابن عباس ﷺ: تكفَّل الله لمن قرأ القرآن، وعمل بما فيه، أن لا

يضل فى الدنيا، ولا يشقى فى الآخرة، ثم قرأ هذه الآية [1].

وكما فى الحديث الذى رواه الترمذى وغيره عن على رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **«إنها ستكون فتن»** قلت: فما المخرج منها يا رسول الله؟ قال: **«كتاب الله، فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، هوالفصل، ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله، وهوحبل الله المتين، وهوالذكر الحكيم، وهوالصراط المستقيم، وهوالذى لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسن، ولا تنقضى عجائبه، ولا يشبع منه العلماء، من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم»** [2] إلى غير ذلك من الآيات

---

(١) **إسناده ضعيف**. رواه الحاكم (٢/٣٨١)، وعنه البيهقى فى «الشعب» [١٨٧١]، من طريق أحمد بن عبد الجبار، عن محمد بن فضيل بن غزوان، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضي الله عنهما به.
وإسناده ضعيف فيه أحمد بن عبد الجبار، وهو ضعيف، وعطاء بن السائب صدوق اختلط كما فى «التقريب». ورواه الطبرى فى «التفسير» (١٦/٢٢٥)، من طريق أحمد بن محمد النسائى، عن أبى سلمة، عن عطاء به. وفيه عطاء أيضاً، وقد تابعه عمران بن أبى عمران، عن سعيد بن جبير به. أخرجه الطبرانى فى «الكبير» [١٢٤٣٧]، وعمران بن أبى عمران لم أجد له ترجمة.

(٢) **ضعيف**. رواه الترمذى [٢٩٠٦]، وابن أبى شيبة (١٠/٤٨٢)، والدارمى [٣٣٣٤]، والبزار [البحر الزخار - ٨٣٦]، من طريق أبى البخترى، عن أبى المختار الطائى، عن ابن أخى الحارث، عن الحارث بن عبد الله الأعور، عن على رضي الله عنه به.
وإسناده ضعيف فيه أبو المختار، وابن أخى الحارث، وكلاهما مجهول، والحارث الأعور فى حديثه ضعف كما فى «التقريب».
قال الترمذى: إسناده مجهول، وفى الحارث مقال. اهـ.
ورواه أحمد (١/٩١)، وأبو يعلى [٣٦٧]، من طريق محمد بن إسحق، عن محمد بن كعب القرظى، عن الحارث، عن على رضي الله عنه به.
وللحديث طرق أخرى مدارها على الحارث الأعور. ذكرها الدارقطنى فى «العلل» [٣٢٢].

والأحاديث الدالة على مثل هذا المعنى.

ولا يقبل الله من الأولين والآخرين دينًا يدينونه، إلا أن يكون موافقًا لدينه الذى شرعه على ألسنة رسله عليهم السلام.

وقد نزه الله تعالى نفسه عما يصفه به العباد إلا ما وصفه به المرسلون بقوله سبحانه: ﴿**سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ * وَسَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ * وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ [الصافات: ١٨٠ - ١٨٢]. فنزه نفسه سبحانه عما يصفه به الكافرون، ثم سلم على المرسلين، لسلامة ما وصفوه به من النقائص والعيوب، ثم حمد نفسه على تفرده بالأوصاف التى يستحق عليها كمال الحمد.

ومضى على ما كان عليه الرسول ﷺ خير القرون، وهم الصحابة والتابعون لهم بإحسان، يوصى به الأول الآخر، ويقتدى فيه اللاحق بالسابق، وهم فى ذلك كله بنبيهم محمد ﷺ مقتدون، وعلى منهاجه سالكون، كما قال تعالى فى كتابه العزيز: ﴿**قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾ [يوسف: ١٠٨]. فإن كان قوله: ﴿**أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي**﴾ معطوفاً على الضمير فى ﴿**أَدْعُو**﴾ فهو دليل على أن أتباعه هم الدعاة إلى الله، وإن كان معطوفًا على الضمير المنفصل، فهوصريح أن أتباعه هم أهل البصيرة فيما جاء به دون غيرهم، وكلا المعنيين حق.

وقد بلَّغ الرسول ﷺ البلاغ المبين، وأوضح الحجة للمستبصرين، وسلك سبيلَه خيرُ القرون، ثم خلف من بعدهم خلف اتبعوا أهواءهم، وافترقوا، فأقام الله لهذه الأمة من يحفظ عليها أصول دينها، كما أخبر

الصادق ﷺ بقوله: «**لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خذلهم**»[1].

وممن قام بهذا الحق من علماء المسلمين: الإمام أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة الأزدى الطحاوى، تغمده الله برحمته، بعد المئتين فإن مولده سنة تسع وثلاثين ومئتين، ووفاته سنة إحدى وعشرين وثلاث مئة .

فأخبر - رحمه الله - عما كان عليه السلف، ونقل عن الإمام أبى حنيفة النعمان بن ثابت الكوفى ، وصاحبيه: أبى يوسف يعقوب بن إبراهيم الحميرى الأنصارى، ومحمد بن الحسن الشيبانى - رضي الله عنهم - ما كانوا يعتقدون من أصول الدين، ويدينون به رب العالمين.

وكلما بعد العهد، ظهرت البدع، وكثر التحريف الذى سماه أهله تأويلاً، ليقبل، وقل من يهتدى إلى الفرق بين التحريف والتأويل، إذ قد يسمى صرف الكلام عن ظاهره إلى معنى آخر يحتمله اللفظ فى الجملة تأويلاً، وإن لم يكن ثم قرينة توجب ذلك، ومن هنا حصل الفساد، فإذا سموه تأويلا قبل وراج على من لا يهتدى إلى الفرق بينهما.

فاحتاج المؤمنون بعد ذلك إلى إيضاح الأدلة، ودفع الشبه الواردة عليها، وكثر الكلام والشغب، وسبب ذلك إصغاؤهم إلى شبه

(١) رواه مسلم [١٩٢٠]، وهذا لفظه، وأبو داود [٤٢٥٢]، والترمذى [٢٢٢٩]، وابن ماجه [١٠، ٣٩٥٢]، وأحمد (٥ / ٢٧٨)، وابن حبان [إحسان - ٧٢٣٨]، من حديث ثوبان رضي الله عنه .
وفى الباب من حديث المغيرة، وجابر، وزيد بن أرقم، وعمران، وغيرهم رضي الله عنهم .

المبطلين، وخوضهم فى الكلام المذموم ، الذى عابه السلف ، ونهوا عن النظر فيه والاشتغال به والإصغاء إليه ، امتثالاً لأمر ربهم، حيث قال: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ﴾ [الأنعام: ٦٨] . فإن معنى الآية يشملهم.

وكل من التحريف والانحراف على مراتب: فقد يكون كفراً، وقد يكون فسقاً وقد يكون معصية، وقد يكون خطأ.

فالواجب اتباع المرسلين، واتباع ما أنزله الله عليهم. وقد ختمهم الله بمحمد ﷺ، فجعله آخر الأنبياء، وجعل كتابه مهيمناً على ما بين يديه من كتب السماء، وأنزل عليه الكتاب والحكمة، وجعل دعوته عامة لجميع الثقلين الجن والإنس، باقية إلى يوم القيامة، وانقطعت به حجة العباد على الله. وقد بين الله به كل شيء. وأكمل له ولأمته الدين خبراً وأمراً، وجعل طاعته طاعةً له، ومعصيته معصيةً له، وأقسم بنفسه أنهم لا يؤمنون حتى يحكّموه فيما شجر بينهم، وأخبر أن المنافقين يريدون أن يتحاكموا إلى غيره، وأنهم إذا دعوا إلى الله والرسول ـ وهوالدعاء إلى كتاب الله وسنة رسوله ـ صَدوا صدوداً، وأنهم يزعمون أنهم إنما أرادوا إحساناً وتوفيقاً.

وكما يقوله كثير من المتكلمة والمتفلسفة وغيرهم: إنما نريد أن نحس الأشياء بحقيقتها أى ندركها ونعرفها، ونريد التوفيق بين الدلائل التى يسمونها العقليات وهى فى الحقيقة: جهليات وبين الدلائل النقلية المنقولة عن الرسول، أونريد التوفيق بين الشريعة والفلسفة.

وكما يقوله كثير من المبتدعة، من المتنسّكة والمتصوفة: إنما نريد الأعمال بالعمل الحسن، والتوفيق بين الشريعة وبين ما يدعونه من الباطل، الذى يسمونه: حقائق وهى جهل وضلال.

وكما يقوله كثير من المتملِّكة والمتأمِّرة: إنما نريد الإحسان بالسياسة الحسنة، والتوفيق بينها وبين الشريعة، ونحوذلك.

وكل من طلب أن يُحَكّم فى شئ من أمر الدين غير ما جاء به الرسول، ويظن أن ذلك حسن، وأن ذلك جمع بين ما جاء به الرسول وبين ما يخالفه فله نصيب من ذلك، بل ما جاء به الرسول كاف كامل، يدخل فيه كل حق وإنما وقع التقصير من كثير من المنتسبين إليه فلم يعلموا ما جاء به الرسول فى كثير من الأمور الكلامية الاعتقادية، ولا فى كثير من الأحوال العبادية ،ولا فى كثير من الإمارة السياسية، أونسبوا إلى شريعة الرسول بظنهم وتقليدهم ما ليس منها، وأخرجوا عنها كثيراً مما هومنها.

فبسبب جهل هؤلاء وضلالهم وتفريطهم، وبسبب عدوان أولئك وجهلهم ونفاقهم، كثر النفاق ودَرَسَ كثير من علم الرسالة.

بل البحث التام، والنظر القوى، والاجتهاد الكامل، فيما جاء به الرسول ﷺ، ليعلم ويعتقد، ويعمل به ظاهرا وباطنا فيكون قد تُلى حق تلاوته، وأن لا يُهمل منه شئ.

وإن كان العبد عاجزاً عن معرفة بعض ذلك، أوالعمل به، فلا ينهى عما عجز عنه مما جاء به الرسول، بل حسبه أن يسقط عنه اللوم لعجزه، لكن عليه أن يفرح بقيام غيره به، ويرضى بذلك، ويود أن يكون قائماً

به، وأن لا يؤمن ببعضه ويترك بعضه، بل يؤمن بالكتاب كله، وأن يُصان عن أن يدخل فيه ما ليس منه، من رواية أورأى، أويتَّبع ما ليس من عند الله، اعتقاداً أوعملاً، كما قال تعالى: ﴿ **وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ** ﴾ [البقرة: ٤٢].

وهذه كانت طريقة السابقين الأولين، وهى طريقة التابعين لهم بإحسان إلى يوم القيامة. وأولهم السلف القديم من التابعين الأولين، ثم مَن بعدهم. ومن هؤلاء أئمة الدين المشهود لهم عند الأمة الوسط بالإمامة.

فعن أبى يوسف ـ رحمه الله تعالى ـ أنه قال لبشر المريسى [١]: العلم بالكلام هوالجهل، والجهل بالكلام هوالعلم، وإذا صار الرجل رأساً فى الكلام قيل : زنديق. أو رمى بالزندقة. أراد بالجهل به اعتقاد عدم صحته، فإن ذلك علم نافع، أو أراد به الإعراض عنه أوترك الالتفات إلى اعتباره. فإن ذلك يصون علم الرجل وعقله فيكون علماً بهذا الاعتبار. والله أعلم.

وعنه أيضاً أنه قال: من طلب العلم بالكلام تزندق، ومن طلب المال بالكيمياء أفلس، ومن طلب غريب الحديث كذب.

---

(١) هو بشر بن غياث بن أبى كريمة العدوىّ مولاهم البغدادىّ المَرِّيسىّ. ينسب إلى مَرِّيسة، قرية بمصر وولاية من ناحية الصعيد. نظر فى علم الكلام، فغلب عليه، وانسلخ من الورع والتقوى، وجَرّد القول بخلق القرآن، ودعا إليه، حتى كان عين الجهمية فى عصره وعالمهم، فمقته أهل العلم، وكَفَّره عدَّة. وحكيت عنه أقوال شنيعة كقوله: إن السجود للشمس والقمر ليس بكفر. اهـ. فهو بشر الشر، وبشر الحافى بشر الخير، كما أن أحمد بن حنبل هو أحمد السنة، وأحمد بن أبى داود أحمد البدعة. توفى سنة (٢١٨ هـ) [(سير أعلام النبلاء ـ ١٠ / ١٩٩) ـ معجم ياقوت].

وقال الإمام الشافعي ـ رحمه الله تعالى ـ: حكمي في أهل الكلام أن يُضربوا بالجريد والنعال، ويُطاف بهم في العشائر والقبائل ويقال: هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأقبل على الكلام.

وقال أيضا ـ رحمه الله تعالى ـ:

كُلُّ الـــعُلُومِ سِوَى الـــقُرآنِ مَشْغَلَةٌ ... إلاَّ الحَدِيــثَ وإلاَّ الـفِقْهَ فــي الـدِّيــنِ

العِلْمُ مــــا كَانَ فـــيــــهِ قَالَ حَدّثَنَا ... وَمَا سِوىَ ذَاكَ وَسْواسُ الــشَّيَاطــيــنِ

وذكر الأصحاب في الفتاوى: أنه لوأوصى لعلماء بلده: لا يدخل المتكلمون، ولو أوصى إنسان أن يوقف من كتبه ما هومن كتب العلم، فأفتى السلف أن يباع ما فيها من كتب الكلام. ذكر ذلك بمعناه في «الفتاوى الظهيرية» فكيف يرام الوصول إلى علم الأصول، بغير اتباع ما جاء به الرسول؟! ولقد أحسن القائل:

أيها المغتدى ليطلب علماً ... كل علم عبد لعلم الرسول

تطلب الفرع كي تصحح أصلا ... كيف أغفلت علم أصل الأصول

ونبينا ﷺ أُوتى فواتح الكلم وخواتمه وجوامعه [1]، فبُعث بالعلوم

---

(١) يعنى به ما رواه أحمد (٢ / ١٧٢، ٢١٢)، من طريق ابن لهيعة عن عبد الله بن هبيرة، عن عبد الرحمن بن مريح الخولانى، عن أبى قيس، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: خرج علينا رسول الله ﷺ يوماً كالمودع فقال: «**أنا محمد النبى الأمى**» ـ قاله ثلاث مرات ـ «**ولا نبى بعدى، أوتيت فواتح الكلم وخواتمه وجوامعه**» ـ الحديث.

وإسناده ضعيف؛ فيه ابن لهيعة، وهو صدوق سئ الحفظ كما فى «التقريب»، ولفظ: «**أوتيت فواتح الكلم**» يشهد له ما رواه البخارى [٢٩٧٧]، ومسلم [٥٢٣]، من =

الكلية والعلوم الأولية والآخرية على أتم الوجوه، ولكن كلما ابتدع شخص بدعة اتسعوا في جوابها ، فلذلك صار كلام المتأخرين كثيراً، قليل البركة بخلاف كلام المتقدمين، فإنه قليل، كثير البركة، لا كما يقوله ضُلال المتكلمين وجهلتهم: إن طريقة القوم أسلم، وإن طريقتنا أحكم وأعلم! وكما يقوله من لم يقدر قدرهم من المنتسبين إلى الفقه: أنهم لم يتفرغوا لاستنباطه، وضبط قواعده وأحكامه اشتغالاً منهم بغيره. والمتأخرون تفرغوا لذلك، فهم أفقه!!.

فكل هؤلاء محجوبون عن معرفة مقادير السلف، وعمق علومهم، وقلة تكلفهم، وكمال بصائرهم. وتالله ما امتاز عنهم المتأخرون إلابالتكلف والاشتغال بالأطراف التى كانت همة القوم مراعاة أصولها، وضبط قواعدها، وشد معاقدها، وهممهم مشمرة إلى المطالب العالية فى كل شيء، فالمتأخرون فى شأن، والقوم فى شأن آخر، وقد جعل الله لكل شئ قدراً.

وقد شرح هذه العقيدة غير واحد من العلماء، ولكن رأيت بعض الشارحين قد أصغى إلى أهل الكلام المذموم، واستمد منهم، وتكلم بعباراتهم

والسلف لم يكرهوا التكلم بالجوهر والجسم والعرض ونحوذلك

= حديث أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**بعثت بجوامع الكلم**» ـ الحديث، ويشهد له أيضاً ما رواه ابن حبان [٦٤٠٢]، من طريق زهير بن معاوية عن أبى إسحق، عن أبى الأحوص، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: إن محمداً ﷺ أوتى فواتح الكلم، وخواتمه، أو جوامع الخير وخواتمه ـ الحديث. وإسناده صحيح رجاله ثقات رجال الشيخين غير أبى الأحوص فمن رجال مسلم.

لمجرد كونه اصطلاحاً جديداً على معان صحيحة، كالاصطلاح على ألفاظ لعلوم صحيحة، ولا كرهوا أيضاً الدلالة على الحق والمحاجة لأهل الباطل، بل كرهوه لاشتماله على أمور كاذبة مخالفة للحق، ومن ذلك مخالفتها للكتاب والسنة ، ولهذا لا تجد عند أهلها من اليقين والمعرفة ما عند عوام المؤمنين فضلاً عن علمائهم.

ولاشتمال مقدماتهم على الحق والباطل كثر المراء والجدال، وانتشر القيل والقال، وتولد لهم عنها من الأقوال المخالفة للشرع الصحيح والعقل الصريح ما يضيق عنه المجال. وسيأتى لذلك زيادة بيان عند قوله: «فمن رام علم ما حظر عنه علمه......» [1].

وقد أحببت أن أشرحها سالكاً طريق السلف فى عباراتهم، وأنسج على منوالهم متطفلاً عليهم، لعلى أن أنظم فى سلكهم، وأدخل فى عدادهم، وأُحشر فى زمرتهم: ﴿**مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا**﴾ [النساء: ٦٩].

ولما رأيت النفوس مائلة إلى الاختصار آثرته على التطويل والإسهاب ﴿**وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ**﴾ [هود: ٨٨]. وهوحسبنا ونعم الوكيل.

---

(١) انظر ص: (١/ ١٩٠).

قال المصنف رحمه الله تعالى :

«نقُولُ في تَوحيدِ الله مُعتَقدِينَ بتوفيقِ الله: إنَّ الله واحدٌ لا شَرِيكَ له».

الشرح : اعلم أن التوحيد أول دعوة الرسل، وأول منازل الطريق، وأول مقام يقوم فيه السالك إلى الله عز وجل. قال تعالى : ﴿**لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ**﴾ [الأعراف: ٥٩]، وقال هود عليه السلام لقومه : ﴿**اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ**﴾ [الأعراف: ٦٥]، وقال صالح عليه السلام لقومه : ﴿**اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ**﴾ [الأعراف: ٧٣]، وقال شعيب عليه السلام لقومه : ﴿**اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ**﴾ [الأعراف: ٨٥]، وقال تعالى : ﴿**وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ**﴾ [النحل: ٣٦]، وقال تعالى : ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ**﴾ [الأنبياء: ٢٥]. وقال ﷺ : «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله**» (١).

ولهذا كان الصحيح أن أول واجب يجب على المكلف شهادة أن لا إله إلا الله، لا النظر، ولا القصد إلى النظر، ولا الشك، كما هي أقوال لأرباب الكلام المذموم، بل أئمة السلف كلهم متفقون على أن أول ما يؤمر به العبد الشهادتان، ومتفقون على أن من فعل ذلك قبل البلوغ لم يؤمر بتجديد ذلك عقيب بلوغه، بل يؤمر بالطهارة والصلاة إذا بلغ أوميز عند من يرى ذلك. ولم يوجب أحد منهم على وليه أن يخاطبه

---

(١) رواه البخارى [٢٥]، ومسلم [٢٢]، وابن منده فى «الإيمان» [٢٥]، وابن حبان [إحسان ـ ١٧٥]، والبيهقى (٣/ ٩٢، ٣٦٧)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.
وفى الباب من حديث أبى هريرة، وأنس، وأوس، وغيرهم رضي الله عنهم

حينئذ بتجديد الشهادتين، وإن كان الإقرار بالشهادتين واجباً باتفاق المسلمين، ووجوبه يسبق وجوب الصلاة، لكن هوأدى هذا الواجب قبل ذلك.

وهنا مسائل تكلم فيها الفقهاء: فمن صلى ولم يتكلم بالشهادتين، أوأتى بغير ذلك من خصائص الإسلام، ولم يتكلم بهما، هل يصير مسلماً أم لا؟ والصحيح أنه يصير مسلماً بكل ما هومن خصائص الإسلام.

فالتوحيد أول ما يدخل به فى الإسلام، وآخر ما يخرج به من الدنيا، كما قال النبى ﷺ: «**من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة**»[1]. وهوأول واجب وآخر واجب.

فالتوحيد أول الأمر وآخره، أعنى: توحيد الألوهية، فإن التوحيد يتضمن ثلاثة أنواع:

أحدها: الكلام فى الصفات.

والثانى: توحيد الربوبية، وبيان أن الله وحده خالق كل شئ.

والثالث: توحيد الإلهية وهواستحقاقه سبحانه وتعالى أن يعبد

---

(١) **حسن**. رواه أبو داود [٣١١٦]، وأحمد (٥/٢٣٣)، والحاكم (١/٣٥١)، والطبرانى فى «الكبير» (٢٠/١١٢)، من طريق صالح بن أبى عريب، عن كثير بن مرة، عن معاذ بن جبل ﷺ به.
وإسناده حسن رجاله ثقات غير صالح بن أبى عريب فإنه مقبول كما فى «التقريب»، ووثقه ابن حبان، والذهبى فى «الكاشف» (٢/٢٢)، وله شاهد رواه ابن حبان [٣٠٠٤]، من حديث أبى هريرة ﷺ مرفوعاً بلفظ: «**من كان آخر كلمته لا إله إلا الله عند الموت دخل الجنة يوما من الدهر**». والحديث حسنه النووى فى «المجموع» (٥/١٠٢)، والحافظ فى «نتائج الأفكار» (الفتوحات ـ ٤/١٠٩).

وحده لا شريك له.

أما الأول: فإن نفاة الصفات. أدخلوا نفى الصفات فى مسمى التوحيد، كالجهم بن صفوان [(١)] ومن وافقه، فإنهم قالوا: إثبات الصفات يستلزم تعدد الواجب، وهذا القول معلوم الفساد بالضرورة، فإن إثبات ذات مجردة عن جميع الصفات لا يتصور لها وجود فى الخارج، وإنما الذهن قد يفرض المحال ويتخيله وهذا غاية التعطيل.

وهذا القول قد أفضى بقوم إلى القول بالحلول أو الاتحاد، وهوأقبح من كفر النصارى، فإن النصارى خصوه بالمسيح، وهؤلاء عموا جميع المخلوقات.

ومن فروع هذا التوحيد: أن فرعون وقومه كاملو الإيمان، عارفون بالله على الحقيقة.

ومن فروعه: أن عباد الأصنام على الحق والصواب، وأنهم إنما عبدوا الله لا غيره.

ومن فروعه: أنه لا فرق فى التحريم والتحليل بين الأم والأخت والأجنبية، ولا فرق بين الماء والخمر، والزنا والنكاح، والكل من عين واحدة، لا بل هوالعين الواحدة.

---

(١) هو أبو مُحرز الراسبى، مولاهم السمرقندىّ، الكاتب المتكلم، أس الضلالة، ورأس الجهمية. كان ينكر الصفات، ويزعم أنه ينزه البارى عنها، ويقول بخلق القرآن، ويقول: إن الله فى الأمكنة كلها ـ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ـ.
ترك جهم الصلاة أربعين يوماً فأنكر عليه الوالى فقال: إذا ثبت عندى من أعبده صليت له فضرب عنقه. وكان قتله فى حدود سنة (١٣٠ هـ). [(سير أعلام النبلاء ـ ٦ / ٢٦) ـ الوافى].

ومن فروعه: أن الأنبياء ضيقوا على الناس، تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا.

وأما الثاني: وهوتوحيد الربوبية، كالإقرار بأنه خالق كل شيء، وأنه ليس للعالم صانعان متكافئان فى الصفات والأفعال، وهذا التوحيد حق لا ريب فيه، وهوالغاية عند كثير من أهل النظر والكلام وطائفة من الصوفية.

وهذا التوحيد لم يذهب إلى نقيضه طائفة معروفة من بنى آدم، بل القلوب مفطورة على الإقرار به أعظم من كونها مفطورة على الإقرار بغيره من الموجودات، كما قالت الرسل فيما حكى الله عنهم: ﴿**قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ**﴾ [إبراهيم: ١٠].

وأشهرمن عرف تجاهله وتظاهره بإنكار الصانع فرعون، وقد كان مستيقناً به فى الباطن، كما قال له موسى عليه السلام: ﴿**قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلاءِ إِلاَّ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَائِرَ**﴾ [الإسراء: ١٠٢]، وقال تعالى عنه وعن قومه: ﴿**وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا**﴾ [النمل: ١٤]، ولهذا لما قال: ﴿**وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ**﴾ [الشعراء: ٢٣]. على وجه الإنكار له تجاهل العارف، قال له موسى: ﴿**قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ * قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلا تَسْتَمِعُونَ * قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ * قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ * قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ**﴾ [الشعراء: ٢٤ - ٢٨].

وقد زعم طائفة أن فرعون سأل موسى مستفهماً عن الماهية، وأن المسؤول عنه لما لم تكن له ماهية عجز موسى عن الجواب وهذا غلط.

وإنما هذا استفهام إنكار وجحد، كما دلت سائر آيات القرآن على أن فرعون كان جاحدا لله نافيا له، لم يكن مثبتاً له طالباً للعلم بماهيته، فلهذا بين لهم موسى أنه معروف، وأن آياته ودلائل ربوبيته أظهر وأشهر من أن يُسأل عنه بما هو بل؟ هوسبحانه أعرف وأظهر وأبين من أن يجهل، بل معرفته مستقرة فى الفطر أعظم من معرفة كل معروف.

ولم يعرف عن أحد من الطوائف أنه قال: إن العالم له صانعان متماثلان فى الصفات والأفعال، فإن الثنوية من المجوس، والمانوية [1] القائلين بالأصلين: النور والظلمة، وأن العالم صدر عنهما متفقون على أن النور خير من الظلمة، وهوالإله المحمود، وأن الظلمة شريرة مذمومة، وهم متنازعون فى الظلمة، هل هى قديمة أومحدثة؟ فلم يثبتوا ربين متماثلين.

وأما النصارى القائلون بالتثليث فإنهم لم يُثبتوا للعالم ثلاثة أرباب ينفصل بعضهم عن بعض، بل متفقون على أن صانع العالم واحد، ويقولون: باسم الإبن والأب وروح القدس إله واحد.

وقولهم فى التثليث متناقض فى نفسه، وقولهم فى الحلول أفسد منه ،ولهذا كانوا مضطربين فى فهمه، وفى التعبير عنه لا يكاد واحد

---

(١) **الثنوية**: طائفة من المجوس قالت بوجود إلهين، النور والظلمة، وزعموا أنهما ـ أى النور والظلمة ـ أزليان قديمان، أما المجوس الأصلية فإنهم يرون أن النور وحده قديم وأن الظلمة حادثة، واختلفوا اختلافاً كبيراً فى سبب حدوثها.
المانوية: وهم أصحاب مانى بن فاتك، يذهبون إلى ما ذهب إليه «الثنوية» من وجود أصلين، النور والظلمة، ويذهبون إلى قدمهما وأزليتهما، إلا أن مانى بن فاتك قد أخذ ديناً بين المجوسية والنصرانية، وكان يقول بنبوة المسيح عليه السلام ولا يقول بنبوة موسى عليه السلام. ويقال لهم المانوية أو المنانية. [(الملل والنحل) «٢ / ٧٠ ـ ٨٢» ـ الفهرست].

منهم يعبر عنه بمعنى معقول، ولا يكاد اثنان يتفقان على معنى واحد، فإنهم يقولون: هوواحد بالذات، ثلاثة بالأقنوم، والأقانيم يفسرونها تارة بالخواص، وتارة بالصفات، وتارة بالأشخاص، وقد فطر الله العباد على فساد هذه الأقوال بعد التصور التام. وفى الجملة فهم لا يقولون بإثبات خالقين متماثلين.

والمقصود هنا: أنه ليس فى الطوائف من يثبت للعالم صانعين متماثلين، مع أن كثيراً من أهل الكلام والنظر والفلسفة تعبوا فى إثبات هذا المطلوب وتقريره، ومنهم من اعترف بالعجز عن تقرير هذا بالعقل، وزعم أنه يتلقى من السمع.

والمشهور عند أهل النظر إثباته بدليل التمانع [١]، وهو: أنه لوكان للعالم صانعان فعند اختلافهما مثل أن يريد أحدهما تحريك جسم والآخر تسكينه، أويريد أحدهما إحياءه والآخر إماتته: فإما أن يحصل مرادهما، أومراد أحدهما، أولا يحصل مراد واحد منهما. والأول ممتنع؛ لأنه يستلزم الجمع بين الضدين، والثالث ممتنع، لأنه يلزم خلوالجسم عن الحركة والسكون وهوممتنع، ويستلزم أيضا عجز كل منهما، والعاجز لا يكون إلها، وإذا حصل مراد أحدهما دون الآخر، كان هذا هوالإله القادر، والآخر عاجزا لا يصلح للإلوهية، وتمام الكلام على هذا الأصل معروف فى موضعه.

وكثير من أهل النظر يزعمون أن دليل التمانع هومعنى قوله تعالى:

---

(١) هو برهان عقلى صحيح لإثبات وحدانية الخالق سبحانه.
ولزيادة الإيضاح ينظر كتاب «درء تعارض العقل والنقل» (٩/٣٤٨-٣٧٦).

﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [الأنبياء: ٢٢]. لاعتقادهم أن توحيد الربوبية الذى قرروه هوتوحيد الإلهية الذى بينه القرآن، ودعت إليه الرسل عليهم السلام، وليس الأمر كذلك، بل التوحيد الذى دعت إليه الرسل، ونزلت به الكتب، هوتوحيد الألوهية المتضمن توحيد الربوبية، وهوعبادة الله وحده لا شريك له، فإن المشركين من العرب كانوا يقرون بتوحيد الربوبية، وأن خالق السموات والأرض واحد، كما أخبر تعالى عنهم بقوله: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ [لقمان: ٢٥]، ﴿ قُل لِّمَنِ الأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ ﴾ الآيات [المؤمنون: ٨٤، ٨٥]. ومثل هذا كثير فى القرآن.

ولم يكونوا يعتقدون فى الأصنام أنها مشاركة لله فى خلق العالم، بل كان حالهم فيها كحال أمثالهم من مشركى الأمم من الهند والترك والبربر وغيرهم، تارة يعتقدون أن هذه تماثيل قوم صالحين من الأنبياء والصالحين، ويتخذونهم شفعاء ويتوسلون بهم إلى الله، وهذا كان أصل شرك العرب. قال تعالى حكاية عن قوم نوح: ﴿ وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ [نوح: ٢٣]. وقد ثبت فى «صحيح» البخارى، وكتب التفسير، وقصص الأنبياء وغيرها، عن ابن عباس رضي الله عنهما، وغيره من السلف أن هذه أسماء قوم صالحين فى قوم نوح، فلما ماتوا عكفوا على قبورهم، ثم صوروا تماثيلهم، ثم طال عليهم الأمد، فعبدوهم، وأن هذه الأصنام بعينها صارت إلى قبائل العرب، ذكرها ابن عباس رضي الله عنهما، قبيلة قبيلة [1].

---

(١) رواه البخارى [٤٩٢٠]، وعبد الرزاق فى «التفسير» (٢/ ٣٢٠)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: صارت الأوثان التى كانت فى قوم نوح فى العرب بعدُ أما ود كانت =

وقد ثبت في «صحيح مسلم» عن أبي الهياج الأسدي، قال: قال لي علي بن أبي طالب ﷺ: ألا أبعثك على ما بعثني رسول الله ﷺ؟ «**أمرني أن لا أدع قبراً مشرفاً إلاسويته، ولا تمثالاً إلا طمسته**»(١).

وفي «الصحيحين» عن النبي ﷺ أنه قال في مرض موته: «**لعن الله اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**» يحذر ما فعلوا، قالت عائشة ﷺ: ولولا ذلك لأبرز قبره، ولكن كره أن يتخذ مسجداً(٢).

وفي «الصحيحين» أنه ذكر له في مرض موته كنيسة بأرض الحبشة، وذكر من حسنها وتصاوير فيها، فقال: «**إن أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجداً، وصوروا فيه تلك التصاوير أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة**»(٣).

وفي «صحيح مسلم» عنه ﷺ أنه قال قبل أن يموت بخمس: «**إن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، فإني أنهاكم عن ذلك**»(٤).

= لكلب بدومة الجندل - فذكره.

ورواه ابن جرير في «التفسير» (٢٩/٩٩) من قول قتادة.

(١) رواه مسلم [٩٦٩]، وأبو داود [٣٢١٨]، والترمذي [١٠٤٩]، والنسائي (٧٣/٤)، وأحمد (٩٦/١، ١٢٨)، قال في رواية النسائي: «**ولاصورة في بيت إلا طمستها**».

(٢) رواه البخاري [١٣٩٠، ٤٤٤١]، ومسلم [٥٢٩]، وأحمد (٨٠/٦)، من حديث عائشة ﷺ.

(٣) رواه البخاري [٤٣٤]، ومسلم [٥٢٨]، والنسائي (٣٣/٢)، وأحمد (٥١/٦)، من حديث عائشة ﷺ.

(٤) رواه مسلم [٥٣٢]، والنسائي في «الكبرى» [١١١٢٣]، وأبو عوانة (٤٠١/١)، وابن حبان [إحسان - ٦٤٢٥]، والطبراني في «الكبير» [١٦٨٦]، والبيهقي في «الدلائل» (١٧٦/٧)، من حديث جندب بن عبد الله البجلي ﷺ.

ومن أسباب الشرك عبادة الكواكب واتخاذ الأصنام بحسب ما يظن أنه مناسب للكواكب من طباعها، وشرك قوم إبراهيم عليه السلام كان - فيما يقال - من هذا الباب. وكذلك الشرك بالملائكة والجن واتخاذ الأصنام لهم.

وهؤلاء كانوا مقرين بالصانع، وأنه ليس للعالم صانعان، ولكن اتخذوا هذه الوسائط شفعاء، كما أخبر عنهم تعالى بقوله: ﴿ **وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ** ﴾ [الزمر: ٣]، وقال تعالى: ﴿ **وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ** ﴾ [يونس: ١٨].

وكذلك كان حال الأمم السالفة المشركين الذين كذبوا الرسل. كما حكى الله تعالى فى قصة صالح عليه السلام عن التسعة الرهط الذين تقاسموا بالله، أى تحالفوا بالله لنبيتنه وأهله . فهؤلاء المفسدون المشركون تحالفوا بالله على قتل نبيهم وأهله، وهذا بين أنهم كانوا مؤمنين بالله إيمان المشركين .

فعلم أن التوحيد المطلوب هوتوحيد الألوهية الذى يتضمن توحيد الربوبية . قال تعالى: ﴿ **فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ** ﴾ إلى قوله: ﴿ **إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ** ﴾ [الروم: ٣٠ - ٣٦].

وقال تعالى: ﴿ **أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ** ﴾ [إبراهيم: ١٠].

وقال ﷺ: «**كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أوينصرانه**

أويمجسانه» [١] ولا يقال: إن معناه يولد ساذجا لا يعرف توحيداً ولا شركا - كما قال بعضهم - لما تلونا، ولقوله ﷺ فيما يروى عن ربه عزوجل: «**خلقت عبادى حنفاء، فاجتالتهم الشياطين** » الحديث [٢].

وفى الحديث المتقدم ما يدل على ذلك، حيث قال: «**يهودانه أوينصرانه أويمجسانه**» ولم يقل: ويسلمانه. وفى رواية «**يولد على الملة**» وفى أخرى: «**على هذه الملة**» [٣].

وهذا الذى أخبر به ﷺ هوالذى تشهد الأدلة العقلية بصدقه.

منها: أن يقال: لا ريب أن الإنسان قد يحصل له من الاعتقادات والإرادات ما يكون حقًا، وتارة ما يكون باطلاً، وهوحساس متحرك بالإرادات، فلابد له من أحدهما ،ولابد له من مرجح لأحدهما. ونعلم أنه اذا عرض على كل أحد أن يصدق وينتفع وأن يكذب ويتضرر مال بفطرته إلى أن يصدق وينتفع، وحينئذ فالاعتراف بوجود الصانع والإيمان به هوالحق أونقيضه، والثانى فاسد قطعاً فتعين الأول، فوجب أن يكون فى الفطرة ما يقتضى معرفة الصانع والإيمان به. وبعد ذلك: إما أن تكون محبته أنفع للعبد أولا. والثانى فاسد قطعاً، فوجب أن يكون فى فطرته محبة ما ينفعه.

---

(١) رواه البخارى [١٣٨٥] وهذا لفظه، ومسلم [٢٦٥٨]، وأبو داود [٤٧١٤]، والترمذى [٢١٣٨]، وأحمد (٢/ ٢٧٥)، وابن حبان [إحسان - ١٢٩]، من حديث أبى هريرة رضي الله عنه.

(٢) رواه مسلم [٢٨٦٥]، وأحمد (٤/ ١٦٢)، وعبد الرزاق [٢٠٠٨٨]، وابن حبان [إحسان - ٦٥٣]، والطبرانى فى «الكبير» (١٧/ ٣٦٠)، والبيهقى (٩/ ٦٠)، من حديث عياض بن حمار رضي الله عنه.

(٣) هو إحدى ألفاظ حديث أبى هريرة رضي الله عنه السابق، ولفظ «**يولد على الملة**» ورد فى رواية الترمذى، ولفظ: «**على هذه الملة**» ورد فى رواية مسلم، وأحمد.

ومنها: أنه مفطور على جلب المنافع ودفع المضار بحسبه، وحينئذ وإن لم تكن فطرة كل واحد مستقلة بتحصيل ذلك، بل يحتاج إلى سبب معين للفطرة، كالتعليم ونحوه فإذا وجد الشرط وانتفى المانع استجابت لما فيها من المقتضى لذلك.

ومنها: أن يقال: من المعلوم أن كل نفس قابلة للعلم وإرادة الحق، ومجرد التعليم والتحضيض لا يوجب العلم والإرادة، لولا أن فى النفس قوة تقبل ذلك، وإلا فلوعلم الجماد والبهائم وحضّضا لم يقبلا. ومعلوم أن حصول إقرارها بالصانع ممكن من غير سبب منفصل من خارج، وتكون الذات كافية فى ذلك، فإذا كان المقتضى قائماً فى النفس وقُدّر عدم المعارض، فالمقتضى السالم عن المعارض يوجب مقتضاه، فعلم أن الفطرة السليمة إذا لم يحصل لها ما يفسدها، كانت مقرة بالصانع عابدة له.

ومنها: أن يقال: إنه إذا لم يحصل المفسد الخارج ولا المصلح الخارج كانت الفطرة مقتضية للصلاح، لأن المقتضى فيها للعلم والإرادة قائم، والمانع منتف.

ويحكى عن أبى حنيفة ـ رحمه الله ـ: أن قوماً من أهل الكلام أرادوا البحث معه فى تقرير توحيد الربوبية فقال لهم: أخبرونى قبل أن نتكلم فى هذه المسألة عن سفينة فى دجلة، تذهب فتمتلئ من الطعام والمتاع وغيره بنفسها، وتعود بنفسها فترسى بنفسها، وتتفرغ وترجع، كل ذلك من غير أن يدبّرها أحد فقالوا: هذا محال لا يمكن أبدا. فقال لهم: إذا كان هذا محالاً فى سفينة، فكيف فى هذا العالم كله علوه وسفله !! وتحكى هذه الحكاية عن غير أبى حنيفة أيضاً.

فلو أقر رجل بتوحيد الربوبية الذى يقر به هؤلاء النظار ويفنى فيه كثير من أهل التصوف، ويجعلونه غاية السالكين، كما ذكره صاحب «منازل السائرين» وغيره، وهومع ذلك إن لم يعبد الله وحده ويتبرأ من عبادة ما سواه كان مشركا من جنس أمثاله من المشركين.

والقرآن مملوء من تقرير هذا التوحيد وبيانه وضرب الأمثال له.

ومن ذلك أنه يقرر توحيد الربوبية، ويبين أنه لا خالق إلا الله، وأن ذلك مستلزم أن لا يعبد إلا الله، فيجعل الأول دليلاً على الثانى، إذ كانوا يسلمون الأول وينازعون فى الثانى، فيبين لهم سبحانه أنكم إذا كنتم تعلمون أنه لا خالق إلا الله، وأنه هوالذى يأتى العباد بما ينفعهم، ويدفع عنهم ما يضرهم، لا شريك له فى ذلك، فلم تعبدون غيره، وتجعلون معه آلهة أخرى؟! كقوله تعالى: ﴿**قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ * أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ**﴾ [النمل: ٥٩ـ٦٠].

يقول الله تعالى فى آخر كل آية: ﴿**أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ**﴾ إى أإله مع الله فعل هذا؟ وهذا استفهام إنكار، يتضمن نفى ذلك وهم كانوا مقرين بأنه لم يفعل ذلك غير الله، فاحتج عليهم بذلك، وليس المعنى استفهام هل مع الله إله؟ كما ظنه بعضهم، لأن هذا المعنى لا يناسب سياق الكلام، والقوم كانوا يجعلون مع الله آلهة أخرى، كما قال تعالى: ﴿**أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَىٰ قُل لاَّ أَشْهَدُ**﴾ [الأنعام: ١٩]. وكانوا يقولون: ﴿**أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ**﴾ [ص: ٥]. لكنهم ما كانوا يقولون: إن معه إلهًا ﴿**جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا**

رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزاً﴾ [النمل: ٦١]. بل هم مقرون بأن الله وحده فعل هذا، وهكذا سائر الآيات.

وكذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١]. وكذلك قوله فى سورة الأنعام: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ﴾ [الأنعام: ٤٦]. وأمثال ذلك.

وإذا كان توحيد الربوبية الذى يجعله هؤلاء النظار، ومن وافقهم من الصوفية هوالغاية فى التوحيد داخلا فى التوحيد الذى جاءت به الرسل عليهم السلام، ونزلت به الكتب، فليعلم أن دلائله متعددة، كدلائل إثبات الصانع ودلائل صدق الرسول، فإن العلم كلما كان الناس إليه أحوج كانت أدلته أظهر رحمة من الله بخلقه.

والقرآن قد ضرب الله للناس فيه من كل مثل وهى المقاييس العقلية المفيدة للمطالب الدينية، لكن القرآن يبين الحق فى الحكم والدليل ، فماذا بعد الحق إلا الضلال؟ وما كان من المقدمات معلومة ضرورية متفقاً عليها، استدل بها ولم يحتج إلى الاستدلال عليها. والطريقة الفصيحة فى البيان أن تحذف، وهى طريقة القرآن، بخلاف ما يدعيه الجهال، الذين يظنون أن القرآن ليس فيه طريقة برهانية، بخلاف ما قد يشتبه ويقع فيه نزاع، فإنه يبينه ويدل عليه.

ولما كان الشرك فى الربوبية معلوم الامتناع عند الناس كلهم، باعتبار إثبات خالقين متماثلين فى الصفات والأفعال، وإنما ذهب بعض المشركين إلى أن ثم خالقا خلق بعض العالم، كما يقوله الثنوية

فى الظلمة، وكما يقوله القدرية فى أفعال الحيوان، وكما يقوله الفلاسفة الدهرية فى حركة الأفلاك أوحركات النفوس، أوالأجسام الطبيعية، فإن هؤلاء يثبتون أموراً محدثة بدون إحداث الله إياها، فهم مشركون فى بعض الربوبية، وكثير من مشركى العرب وغيرهم قد يظن فى آلهته شيئاً من نفع أوضر، بدون أن يخلق الله ذلك.

فلما كان هذا الشرك فى الربوبية موجودا فى الناس، بين القرآن بطلانه، كما فى قوله تعالى: ﴿**مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ**﴾ [المؤمنون: ٩١]. فتأمل هذا البرهان الباهر بهذا اللفظ الوجيز الظاهر، فإن الإله الحق لا بد أن يكون خالقاً فاعلاً يوصل إلى عابده النفع ويدفع عنه الضر، فلوكان معه سبحانه إله آخر يشركه فى ملكه، لكان له خلق وفعل، وحينئذ فلا يرضى تلك الشركة، بل إن قدر على قهر ذلك الشريك وتفرده بالملك والألوهية دونه فعل، وإن لم يقدر على ذلك انفرد بخلقه وذهب بذلك الخلق، كما ينفرد ملوك الدنيا بعضهم عن بعض بممالكه، إذا لم يقدر المنفرد منهم على قهر الآخر والعلوعليه. فلابد من أحد ثلاثة أمور:

إما أن يذهب كل إله بخلقه وسلطانه. .

وإما أن يعلوبعضهم على بعض.

وإما أن يكونوا تحت قهر ملك واحد يتصرف فيهم كيف يشاء، ولا يتصرفون فيه، بل يكون وحده هوالإله، وهم العبيد المربوبون المقهورون من كل وجه.

وانتظام أمر العالم كله وإحكام أمره. من أدل دليل على أن مدبره

إله واحد، وملك واحد، ورب واحد، لا إله للخلق غيره، ولا رب لهم سواه. كما قد دل دليل التمانع على أن خالق العالم واحد، لا رب غيره ولا إله سواه، فذاك تمانع فى الفعل والإيجاد، وهذا تمانع فى العبادة والألوهية. فكما يستحيل أن يكون للعالم ربان خالقان متكافئان، كذلك يستحيل أن يكون لهم إلهان معبودان.

فالعلم بأن وجود العالم عن صانعين متماثلين ممتنع لذاته، مستقر فى الفطر معلوم بصريح العقل بطلانه، فكذا تبطل ألوهية اثنين.

فالآية الكريمة موافقة لما ثبت واستقر فى الفطر من توحيد الربوبية، دالة مثبتة مستلزمة لتوحيد الإلهية.

وقريب من معنى هذه الآية قوله تعالى: ﴿**لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا**﴾ [الأنبياء: ٢٢]. وقد ظن طوائف أن هذا دليل التمانع الذى تقدم ذكره، وهوأنه لوكان للعالم صانعان. ... الخ، وغفلوا عن مضمون الآية، فإنه سبحانه أخبر أنه لوكان فيهما آلهة غيره، ولم يقل أرباب.

وأيضاً فإن هذا إنما هو بعد وجودهما، وأنه لوكان فيهما وهما موجودتان آلهة سواه لفسدتا.

وأيضاً فإنه قال: ﴿**لَفَسَدَتَا**﴾ وهذا فساد بعد الوجود، ولم يقل: لم يوجدا.

ودلت الآية على أنه لا يجوز أن يكون فيهما آلهة متعددة، بل لا يكون الإله إلا واحداً، وعلى أنه لا يجوز أن يكون هذا الإله الواحد إلا الله سبحانه وتعالى، وأن فساد السموات والأرض يلزم من كون الآلهة فيهما متعددة، ومن كون الإله الواحد غير الله وأنه لا صلاح لهما إلا

بأن يكون الإله فيهما هوالله وحده لا غيره. فلوكان للعالم إلهان معبودان لفسد نظامه كله، فإن قيامه إنما هوبالعدل. وبه قامت السموات والأرض، وأظلم الظلم على الإطلاق الشرك، وأعدل العدل التوحيد.

وتوحيد الإلوهية متضمن لتوحيد الربوبية دون العكس. فمن لا يقدر على أن يخلق يكون عاجزاً، والعاجز لا يصلح أن يكون إلها.

قال تعالى: ﴿**أَيُشْرِكُونَ مَا لا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ**﴾ [الأعراف: ١٩١]. وقال تعالى: ﴿**أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ**﴾ [النحل: ١٧]. وكذا قوله تعالى: ﴿**قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لاَّبْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً**﴾ [الإسراء: ٤٢].

وفيها للمتأخرين قولان:

أحدهما: لاتخذوا سبيلاً إلى مغالبته.

والثاني: وهوالصحيح المنقول عن السلف كقتادة وغيره وهوالذى ذكره ابن جرير ولم يذكر غيره: لا تخذوا سبيلاً بالتقرب إليه، كقوله تعالى: ﴿**إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً**﴾ [الإنسان: ٢٩]. وذلك أنه قال: ﴿**لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ**﴾ وهم لم يقولوا: إن العالم له صانعان، بل جعلوا معه آلهة اتخذوهم شفعاء، وقالوا: ﴿**مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ**﴾ [الزمر: ٣]. بخلاف الآية الأولى.

ثم التوحيد الذى دعت إليه رسل الله ونزلت به كتبه نوعان: توحيد فى الإثبات والمعرفة، وتوحيد فى الطلب والقصد.

فالأول: هو إثبات حقيقة ذات الرب تعالى وصفاته وأفعاله

وأسمائه، ليس كمثله شئ فى ذلك كله، كما أخبر به عن نفسه، وكما أخبر رسوله ﷺ. وقد أفصح القرآن عن هذا النوع كل الإفصاح، كما فى أول (الحديد)، و(طه)، وآخر (الحشر)، وأول (ألم تنزيل السجدة)، وأول (آل عمران)، وسورة (الإخلاص) بكمالها، وغير ذلك.

والثانى: وهوتوحيد الطلب والقصد مثل ما تضمنته سورة ﴿**قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ**﴾ [الكافرون: ١] و﴿**قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ**﴾ [آل عمران: ٦٤]، وأول سورة (تنزيل الكتاب) وآخرها، وأول سورة (يونس) وأوسطها وآخرها، وأول سورة (الأعراف) وآخرها، وجملة سورة (الأنعام).

وغالب سور القرآن متضمنة لنوعى التوحيد، بل كل سورة فى القرآن، فالقرآن إما خبر عن الله وأسمائه وصفاته، فهوالتوحيد العلمى الخبرى.

إما دعوة إلى عبادته وحده لا شريك له، وخلع ما يُعبد من دونه، فهوالتوحيد الإرادى الطلبى.

وإما أمر ونهى وإلزام بطاعته، فذلك من حقوق التوحيد ومكملاته.

وإما خبر عن إكرامه لأهل توحيده، وما فعل بهم فى الدنيا وما يكرمهم به فى الآخرة، فهوجزاء توحيده.

وإما خبر عن أهل الشرك، وما فعل بهم فى الدنيا من النكال، وما يحل بهم فى العقبى من العذاب فهوجزاء من خرج عن حكم

التوحيد .

فالقرآن كله في التوحيد وحقوقه وجزائه، وفي شأن الشرك وأهله وجزائهم. فـ ﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ توحيد، ﴿**الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**﴾ توحيد، ﴿**مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ**﴾ توحيد، ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾ توحيد، ﴿**اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ**﴾ توحيد متضمن لسؤال الهداية إلى طريق أهل التوحيد، ﴿**صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ**﴾ الذين فارقوا التوحيد .

وكذلك شهد الله لنفسه بهذا التوحيد، وشهدت له به ملائكته وأنبياؤه ورسله، قال تعالى : ﴿**شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ**﴾ [آل عمران : ١٨، ١٩] .

فتضمنت هذه الآية الكريمة إثبات حقيقة التوحيد، والرد على جميع طوائف الضلال، فتضمنت أجلَّ شهادة وأعظمها وأعدلها وأصدقها، من أجلَّ شاهد بأجلّ مشهود به .

وعبارات السلف في ﴿**شَهِدَ**﴾ تدور على الحكم، والقضاء، والإعلام والبيان والإخبار . وهذه الأقوال كلها حق لا تنافي بينها : فإن الشهادة تتضمن كلام الشاهد وخبره، وتتضمن إعلامه وإخباره وبيانه، فلها أربع مراتب :

فأول مراتبها : علم ومعرفة واعتقاد لصحة المشهود به وثبوته .

وثانيها : تكلمه بذلك، وإن لم يعلم به غيره، بل يتكلم بها مع نفسه ويذكرها وينطق بها أويكتبها .

وثالثها: أن يعلم غيره بما يشهد به ويخبره به ويبينه له.

ورابعها: أن يلزمه بمضمونها ويأمره به.

فشهادة الله سبحانه لنفسه بالوحدانية والقيام بالقسط تضمنت هذه المراتب الأربع: علمه بذلك سبحانه، وتكلمه به، وإعلامه وإخباره لخلقه به، وأمرهم وإلزامهم به

فأما مرتبة العلم فإن الشهادة تضمنتها ضرورة، وإلاكان الشاهد شاهداً بما لا علم له به. قال تعالى: ﴿**إِلاَّ مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ**﴾ [الزخرف: ٨٦]. وقال ﷺ: «**على مثلها فاشهد**» [(١)] وأشار إلى الشمس.

وأما مرتبة التكلم والخبر، فقال تعالى: ﴿**وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ**﴾ [الزخرف: ١٩]. فجعل ذلك منهم شهادة، وإن لم يتلفظوا بلفظ الشهادة ولم يؤدوها عند غيرهم.

وأما مرتبة الإعلام والإخبار فنوعان: إعلام بالقول، وإعلام بالفعل. وهذا شأن كل معلم لغيره بأمر: تارة يعلمه به بقوله، وتارة بفعله. ولهذا كان من جعل داره مسجداً وفتح بابها وأفرزها بطريقها وأذن

---

(١) **ضعيف**. رواه الحاكم (٤/٩٨)، والبيهقي (١٠/١٥٦)، والعقيلي في «الضعفاء» (٤/٧٠)، وابن عبد في «الكامل» (٦/٢٢١٣)، من طريق محمد بن سليمان بن مسمول، عن عبيد الله بن سلمة بن وهرام، عن أبيه، عن طاوس، عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رجلاً سأل النبي ﷺ عن الشهادة فقال: «**هل ترى الشمس**»، قال نعم: قال: «**على مثلها فاشهد أو دع**».

وإسناده ضعيف فيه محمد بن سليمان، وهو ضعيف كما في «الميزان»، وشيخه عبيد الله بن سلمة لينه أبو حاتم، وقال الأزدي: منكر الحديث كما في «اللسان» (٤/١٠٥).

والحديث ضعفه البيهقي، وابن عدي، والذهبي، والحافظ في «البلوغ» (ص: ٢٩٠).

للناس بالدخول والصلاة فيها معلماً أنها وقف، وإن لم يتلفظ به.

وكذلك من وجد متقرباً إلى غيره بأنواع المسار، يكون معلمًا له ولغيره أنه يحبه، وإن لم يتلفظ بقوله. وكذلك بالعكس.

وكذلك شهادة الرب عز وجل وبيانه وإعلامه يكون بقوله تارة، وبفعله أخرى. فالقول ما أرسل به رسله وأنزل به كتبه. وأما بيانه وإعلامه بفعله فكما قال ابن كيسان [1]: شهد الله بتدبيره العجيب وأموره المحكمة عند خلقه ـ أنه لا إله إلا هو، وقال آخر:

وفي كلّ شيئ له آية ... تدُلُّ على أنه واحد

ومما يدل على أن الشهادة تكون بالفعل، قوله تعالى: ﴿**مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ**﴾ [التوبة: ١٧]. فهذه شهادة منهم على أنفسهم بما يفعلون.

والمقصود أنه سبحانه يشهد بما جعل آياته المخلوقة دالة عليه، ودلالتها إنما هي بخلقه وجعله.

وأما مرتبة الأمر بذلك والإلزام به ـ وأن مجرد الشهادة لا يستلزمه، لكن الشهادة في هذا الموضع تدل عليه وتتضمنه ـ فإنه سبحانه شهد به شهادة من حكم به، وقضى وأمر وألزم عباده به، كما قال تعالى: ﴿**وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ**﴾ [الإسراء: ٢٣]. وقال تعالى: ﴿**وَقَالَ اللَّهُ لا**

---

(١) هو محمد بن أحمد بن كيسان، أو الحسن النحويّ اللغويّ الإمام الفاضل، كان يحفظ المذهبين الكوفي والبصري في النحو، وكان أبو بكر بن مجاهد يقول: أبو الحسن بن كيسان أنحى من الشيخين يعني المبردَ وثعلباً. من كتبه: «كتاب معاني القرآن»، «كتاب القراءات»، «كتاب التصاريف»، «كتاب المذكر والمؤنث»، «كتاب غريب الحديث»، «كتاب المهذب في النحو»، وغيرها. توفي سنة (٢٩٩ هـ).

تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ [النحل: ٥١]. وقال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِداً﴾ [التوبة: ٣١]. وقال تعالى: ﴿وَلا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ [الإسراء: ٣٩]. وقال تعالى: ﴿وَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ [القصص: ٨٨]. والقرآن كله شاهد بذلك.

ووجه استلزام شهادته سبحانه لذلك: أنه إذا شهد أنه لا إله إلا هو، فقد أخبر وبين وأعلم وحكم وقضى أن ما سواه ليس بإله، وأن ألوهية ما سواه باطلة، فلا يستحق العبادة سواه، كما لا تصلح الألوهية لغيره، وذلك يستلزم الأمر باتخاذه وحده إلها، والنهى عن اتخاذ غيره معه إلها وهذا يفهمه المخاطب من هذا النفى والإثبات، كما إذا رأيت رجلاً يستفتى رجلاً أويستشهده أويستطبه وهوليس أهلا لذلك، ويدع من هوأهل له، فتقول: هذا ليس بمفت ولا شاهد ولا طبيب، المفتى فلان، والشاهد فلان، والطبيب فلان، فإن هذا أمر منه ونهى.

وأيضا: فالآية دلت على أنه وحده المستحق للعبادة، فإذا أخبر أنه هووحده المستحق للعبادة تضمن هذا الإخبار أمر العباد وإلزامهم بأداء ما يستحقه الرب تعالى عليهم، وأن القيام بذلك هوخالص حقه عليهم.

وأيضا: فلفظ «الحكم» و«القضاء» يستعمل فى الجملة الخبرية، ويُقال للجملة الخبرية: قضية، وحكم وقد حكم فيها بكذا. قال تعالى: ﴿أَلا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ * وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [الصافات: ١٥١-١٥٤]. فجعل هذا الإخبار المجرد منهم حكماً، وقال تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم: ٣٥-٣٦]. لكن هذا حكم لا إلزام معه،

والحكم والقضاء بأنه لا إله إلا هومتضمن الإلزام.

ولوكان المراد مجرد شهادة لم يتمكنوا من العلم بها، ولم ينتفعوا بها ولم تقم عليهم بها الحجة، بل قد تضمنت البيان للعباد ودلالتهم وتعريفهم بما شهد به، كما أن الشاهد من العباد إذا كانت عنده شهادة ولم يبينها بل كتمها، لم ينتفع بها أحد ولم تقم بها حجة.

وإذا كان لا ينتفع بها إلا ببيانها، فهوسبحانه قد بينها غاية البيان بطرق ثلاثة: السمع، والبصر، والعقل:

أما السمع: فبسمع آياته المتلوة المبينة لما عرفنا إياه من صفات كماله كلها، الوحدانية وغيرها، غاية البيان، لا كما يزعمه الجهمية ومن وافقهم من المعتزلة ومعطلة بعض الصفات من دعوى احتمالات توقع فى الحيرة، تنافى البيان الذى وصف الله به كتابه العزيز ورسوله الكريم، كما قال تعالى: ﴿ **حمٓ ❊ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ** ﴾ [الزخرف: ١-٢]. ﴿ **الٓر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ** ﴾ [يوسف: ١]. ﴿ **الٓر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ** ﴾ [الحجر: ١]. ﴿ **هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ** ﴾ [آل عمران: ١٣٨]. ﴿ **فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلاغُ الْمُبِينُ** ﴾ [المائدة: ٩٢]. ﴿ **وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ** ﴾ [النحل: ٤٤].

وكذلك السنة تأتى مبينة أومقررة لما دل عليه القرآن، لم يحوجنا ربنا سبحانه وتعالى إلى رأى فلان، ولا إلى ذوق فلان ووجده فى أصول ديننا.

ولهذا نجد من خالف الكتاب والسنة مختلفين مضطربين. بل قد قال تعالى: ﴿ **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ**

﴿الإِسْلامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]. فلا يحتاج فى تكميله إلى أمر خارج عن الكتاب والسنة. وإلى هذا المعنى أشار الشيخ أبوجعفر الطحاوى فيما يأتى من كلامه من قوله: «لا ندخل في ذلك متأوّلين بآرائنا ولا متوهمين بأهوائنا، فإنه ما سلم في دينه إلا من سلم لله عز وجل ولرسوله ﷺ» [1].

وأما آياته العيانية الخلقية: فالنظر فيها والاستدلال بها يدل على ما تدل عليه آياته القولية والسمعية، والعقل يجمع بين هذه وهذه، فيجزم بصحة ما جاءت به الرسل، فتتفق شهادة السمع والبصر والعقل والفطرة.

فهوسبحانه لكمال عدله ورحمته وإحسانه وحكمته ومحبته للعذر وإقامة الحجة لم يبعث نبيا إلا ومعه آية تدل على صدقه فيما أخبر به قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥]. وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ * بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ﴾ [النحل: ٤٣ - ٤٤]. وقال تعالى: ﴿قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ﴾ [آل عمران: ١٨٣]. وقال تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ [آل عمران: ١٨٤]. وقال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ﴾ [الشورى: ١٧]. حتى إن من أخفى آيات الرسل آيات هود، حتى قال له قومه: ﴿يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ [هود: ٥٣]. ومع هذا فبينته من أوضح البينات لمن وفقه الله

---

[1] انظر ص: (١٦٨/١).

لتدبرها، وقد أشار اليه بقوله: ﴿إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ * إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٤ - ٥٦]. فهذا من أعظم الآيات: أن رجلاً واحداً يخاطب أمة عظيمة بهذا الخطاب، غير جزع ولا فزع ولا خَوَّار، بل هوواثق بما قاله، جازم به، فأشهد الله أولاً على براءته من دينهم وما هم عليه، إشهاد واثق به معتمد عليه، معلم لقومه أنه وليه وناصره وغير مسلط لهم عليه، ثم أشهدهم إشهاد مجاهر لهم بالمخالفة أنه بريئ من دينهم وآلهتهم التى يوالون عليها ويعادون عليها ويبذلون دماءهم وأموالهم فى نصرتهم لها، ثم أكد ذلك عليهم بالاستهانة بهم واحتقارهم وازدرائهم. ولويجتمعون كلهم على كيده وشفاء غيظهم منه، ثم يعاجلونه ولا يمهلونه، ثم قرر دعوتهم أحسن تقرير وبين أن ربه تعالى وربهم الذى نواصيهم بيده هووليه ووكيله القائم بنصره وتأييده، وأنه على صراط مستقيم، فلا يخذل من توكل عليه وأقر به، ولا يشمت به أعداءه.

فأى آية وبرهان أحسن من آيات الأنبياء عليهم السلام وبراهينهم وأدلتهم؟ وهى شهادة من الله سبحانه لهم بينها لعباده غاية البيان.

ومن أسمائه تعالى «المؤمن» وهوفى أحد التفسيرين: المصدق الذى يصدق الصادقين بما يقيم لهم من شواهد صدقهم، فإنه لا بد أن يرى العباد من الآيات الأفقية والنفسية ما يبين لهم أن الوحى الذى بلغته رسله حق قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣]. - أى القرآن -، فإنه هوالمتقدم فى قوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ [فصلت: ٥٢]. ثم قال: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ

أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [فصلت: ٥٣]. فشهد سبحانه لرسوله بقوله إن ما جاء به حق، ووعد أنه يرى العباد من آياته الفعلية الخلقية ما يشهد بذلك أيضا. ثم ذكر ما هوأعظم من ذلك كله وأجل، وهوشهادته سبحانه بأنه على كل شئ شهيد، فإن من أسمائه الشهيد الذى لا يغيب عنه شيء ولا يعزب عنه، بل هومطلع على كل شئ مشاهد له، عليم بتفاصيله.

وهذا استدلال بأسمائه وصفاته والأول استدلال بقوله وكلماته، واستدلال بالآيات الأفقية والنفسية استدلالٌ بأفعاله ومخلوقاته.

فإن قلت: كيف يُستدل بأسمائه وصفاته، فإن الاستدلال بذلك لا يعهد فى الاصطلاح؟

فالجواب: أن الله تعالى قد أودع فى الفطرة التى لم تتنجس بالجحود والتعطيل، ولا بالتشبيه والتمثيل، أنه سبحانه الكامل فى أسمائه وصفاته، وأنه الموصوف بما وصف به نفسه ووصفه به رسله، وما خَفِيَ عن الخلق من كماله أعظم وأعظم مما يعرفونه منه.

ومن كماله المقدس شهادته على كل شئ واطلاعه عليه، بحيث لا يغيب عنه ذرة فى السموات ولا فى الأرض باطناً وظاهراً. ومن هذا شأنه كيف يليق بالعباد أن يشركوا به، وأن يعبدوا غيره ويجعلوا معه إلها آخر؟ وكيف يليق بكماله أن يقر من يكذب عليه أعظم الكذب، ويخبر عنه بخلاف ما الأمر عليه، ثم ينصره على ذلك ويؤيده ويُعْلِيَ شأنه ويجيب دعوته ويهلك عدوه، ويظهر على يديه من الآيات والبراهين ما يعجز عن مثله قوى البشر، وهومع ذلك كاذب عليه

مفتر؟!.

ومعلوم أن شهادته سبحانه على كل شئ وقدرته وحكمته وعزته وكماله المقدس يأبى ذلك، ومن جوز ذلك فهومن أبعد الناس عن معرفته.

والقرآن مملوء من هذه الطريق، وهى طريق الخواص، يستدلون بالله على أفعاله وما يليق به أن يفعل ولا يفعله، قال تعالى: ﴿ **وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ * لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ * فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ** ﴾ [الحاقة: ٤٤ - ٤٧]. وسيأتى لذلك زيادة بيان إن شاء الله تعالى.

ويستدل أيضا بأسمائه وصفاته على وحدانيته وعلى بطلان الشرك، كما فى قوله تعالى: ﴿ **هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ** ﴾ [الحشر: ٢٣]. وأضعاف ذلك فى القرآن.

وهذه الطريق قليل سالكها، لا يهتدى إليها إلا الخواص وطريقة الجمهور الاستدلال بالآيات المشاهدة؛ لأنها أسهل تناولاً وأوسع. والله سبحانه يفضل بعض خلقه على بعض.

فالقرآن العظيم قد اجتمع فيه مالم يجتمع فى غيره، فإنه الدليل والمدلول عليه، والشاهد والمشهود له. قال تعالى لمن طلب آية تدل على صدق رسوله: ﴿ **أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** ﴾ الآيات [العنكبوت: ٥١].

وإذا عرف أن توحيد الألوهية هوالتوحيد الذى أرسلت به الرسل

وأنزلت به الكتب، كما تقدمت إليه الإشارة، فلا يلتفت إلى قول من قسم التوحيد إلى ثلاثة أنواع، وجعل هذا النوع: توحيد العامة، والنوع الثاني: توحيد الخاصة، وهوالذى يثبت بالحقائق، والنوع الثالث: توحيد قائم بالقدم، وهوتوحيد خاصة الخاصة، فإن أكمل الناس توحيداً الأنبياء ـ صلوات الله عليهم ـ والمرسلون منهم أكمل فى ذلك، وأولوالعزم من الرسل أكملهم توحيداً، وهم نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى ومحمد، صلى الله وسلم عليهم أجمعين.

وأكملهم توحيداً الخليلان: محمد وإبراهيم، صلوات الله عليهما وسلامه، فإنهما قاما من التوحيد بما لم يقم به غيرهما علماً ومعرفة، وحالا، ودعوة للخلق وجهاداً، فلا توحيد أكمل من الذى قامت به الرسل، ودعوا إليه، وجاهدوا الأمم عليه، ولهذا أمر سبحانه نبيه أن يَقتدى بهم فيه، كما قال تعالى بعد ذكر مناظرة إبراهيم قومه فى بطلان الشرك وصحة التوحيد وذكر الأنبياء من ذريته: ﴿**أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِه**﴾ [الأنعام: ٩٠]. فلا أكمل من توحيد من أمر رسول الله ﷺ أن يقتدى بهم.

وكان ﷺ يعلم أصحابه إذا أصبحوا أن يقولوا: «**أصبحنا على فطرة الإسلام وكلمة الإخلاص ودين نبينا محمد وملة أبينا إبراهيم حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين**»(١).

---

(١) **صحيح**. رواه النسائى فى «الكبرى» [٩٨٢٩]، وأحمد (٣/٤٠٦)، والدارمى [٢٦٩١]، وابن السني فى «عمل اليوم والليلة» [٣٣]، من طريق سفيان، عن سلمة ابن كهيل، عن عبد الله بن عبد الرحمن ابن أبزى، عن أبيه رضي الله عنه به.
وإسناده صحيح كما قال النووى فى «الأذكار» (ص:٦٨)، والعراقى فى «تخريج الإحياء» (الإتحاف ـ ٥/٣٨١).

فملة إبراهيم: التوحيد، ودين محمد ﷺ: ما جاء به من عند الله قولاً وعملاً واعتقاداً. وكلمة الإخلاص: هي شهادة أن لا إله إلا الله. وفطرة الإسلام: هي ما فطر عليه عباده من محبته وعبادته وحده لا شريك له، والاستسلام له عبودية وذلا وانقياداً وإنابة.

فهذا هو توحيد خاصة الخاصة، الذي من رغب عنه فهو من أسفه السفهاء. قال تعالى: ﴿**وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ * إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ [البقرة: ١٣٠ - ١٣١]. وكل من له حس سليم وعقل يميز به، لا يحتاج في الاستدلال إلى أوضاع أهل الكلام والجدل واصطلاحهم وطرقهم ألبتة، بل ربما يقع بسببها في شكوك وشبه يحصل له بها الحيرة والضلال والريبة، فإن التوحيد إنما ينفع إذا سلم قلب صاحبه من ذلك، وهذا هو القلب السليم الذي لا يفلح إلا من أتى الله به.

ولا شك أن النوع الثاني والثالث من التوحيد الذي ادعوا أنه توحيد الخاصة وخاصة الخاصة، ينتهي إلى الفناء الذي يشمر اليه غالب الصوفية، وهودرب خطر، يفضي إلى الاتحاد، انظر إلى ما أنشده شيخ الإسلام أبواسماعيل الأنصاري - رحمه الله تعالى - حيث يقول:

مَا وَحَّدَ الوَاحِدَ مِنْ وَاحِدٍ ... إِذْ كُلُّ مَنْ وَحَّدَهُ جَاحِدُ
تَوْحِيدُ مَنْ يَنْطِقُ عَنْ نَعْتِهِ ... عَارِيَّةٌ أَبْطَلَهَا الوَاحِدُ
تَوْحِيدُهُ إِيَّاهُ تَوحِيدُهُ ... وَنَعْتُ مَنْ يَنْعَتُهُ لاحِدُ

وإن كان قائله رحمه الله لم يرد به الاتحاد، لكن ذكر لفظاً مجملاً

محتملاً جذبه به الاتحادى إليه، وأقسم بالله جهد أيمانه أنه معه، ولوسلك الألفاظ الشرعية التى لا إجمال فيها كان أحق، مع أن المعنى الذى حام حوله لوكان مطلوباً منا لنبه الشارع عليه ودعا الناس إليه وبينه، فإن على الرسول البلاغ المبين، فأين قال الرسول: هذا توحيد العامة، وهذا توحيد الخاصة، وهذا توحيد خاصة الخاصة؟ أوما يقرب من هذا المعنى؟ أوأشار إليه؟!.

هذه النقول والعقول حاضرة، فهذا كلام الله المنزل على رسوله ﷺ، وهذه سنة الرسول، وهذا كلام خير القرون بعد الرسول، وسادات العارفين من الأئمة، هل جاء ذكر الفناء فيها، وهذا التقسيم عن أحد منهم؟ وإنما حصل هذا من زيادة الغلو فى الدين، المشبه لغلوالخوارج، بل لغلوالنصارى فى دينهم. وقد ذم الله تعالى الغلوفى الدين ونهى عنه، فقال تعالى: ﴿**يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ**﴾ [النساء: ١٧١]. ﴿**قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيراً وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ**﴾ [المائدة: ٧٧]. وقال ﷺ: «**لا تشددوا فيشدد الله عليكم، فإن من كان قبلكم شددوا فشدد الله عليهم، فتلك بقاياهم فى الصوامع والديارات رهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم**»[١] رواه أبوداود.

---

(١) **إسناده حسن**. رواه أبو داود [٤٩٠٤]، وأبو يعلى [٣٦٩٤]، من طريق عبد الله عبد بن وهب، عن سعيد بن عبد الرحمن بن أبى العمياء، أن سهل بن أبى أمامة حدثه أنه دخل هو وأبوه على أنس بن مالك رضي الله عنه بالمدينة - فذكر الحديث، وفيه قصة.
وإسناده حسن، رجاله ثقات غير سعيد بن عبد الرحمن وثقه ابن حبان، وقال الحافظ فى «التقريب»: مقبول. وله طريق آخر رواه البخارى فى «التاريخ الكبير» (٤ / ٩٧)، والطبرانى فى «الكبير» [٥٥٥١]، وفى «الأوسط» [٣٠٧٨]، من طريق عبد الله بن صالح عن أبى شريح أنه سمع سهل بن أبى أمامة بن سهل بن حنيف، عن أبيه، عن =

قوله: «**ولا شئ مثله**».

ش: اتفق أهل السنة على أن الله ليس كمثله شيء، لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله. ولكن لفظ التشبيه قد صار في كلام الناس لفظاً مجملا يراد به المعنى الصحيح، وهوما نفاه القرآن ودل عليه العقل، من أن خصائص الرب تعالى لا يوصف بها شئ من المخلوقات، ولا يماثله شئ من المخلوقات في شئ من صفاته: ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ**﴾ [الشورى: ١١]، رد على الممثلة المشبهة ﴿**وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**﴾ [الشورى: ١١]. رد على النفاة المعطلة، فمن جعل صفات الخالق مثل صفات المخلوق، فهوالمشبه المبطل المذموم، ومن جعل صفات المخلوق مثل صفات الخالق، فهونظير النصارى في كفرهم.

ويراد به أنه لا يثبت لله شئ من الصفات، فلا يقال: له قدرة، ولا علم، ولا حياة؛ لأن العبد موصوف بهذه الصفات!. ولازم هذا القول أنه لا يقال له: حي، عليم، قدير؛ لأن العبد يسمى بهذه الأسماء، وكذا كلامه وسمعه وبصره ورؤيته وغير ذلك.

وهم يوافقون أهل السنة على أنه موجود، عليم قدير حي. والمخلوق يقال له: موجود حي عليم قدير، ولا يقال: هذا تشبيه يجب نفيه، وهذا مما دل عليه الكتاب والسنة وصريح العقل، ولا يخالف فيه عاقل، فإن الله سمى نفسه بأسماء، وسمى بعض عباده بها، وكذلك سمى صفاته بأسماء وسمى ببعضها صفات خلقه، وليس المسمَّى كالمسمى

= جده بنحوه. ورجاله ثقات رجال مسلم سوى عبد الله بن صالح فإنه صدوق كثير الغلط وكانت فيه غفلة وهو ثبت في كتابه روى له البخاري تعليقاً كما في «التقريب».

فسمى نفسه: حياً، عليماً، قديراً، رؤوفاً، رحيماً، عزيزاً، حكيماً، سميعاً، بصيراً، ملكاً، مؤمناً، جباراً، متكبراً، وقد سمى بعض عباده بهذه الأسماء، فقال: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ [الأنعام: ٩٥]. ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلامٍ عَلِيمٍ﴾ [الذاريات: ٢٨]. ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠١]. ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]. ﴿فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [الإنسان: ٢]. ﴿قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ﴾ [يوسف: ٥١]. ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ﴾ [الكهف: ٧٩]. ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا﴾ [السجدة: ١٨]. ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: ٣٥].

ومعلوم أنه لا يماثل الحى الحى، ولا العليم العليم، ولا العزيز العزيز، وكذلك سائر الأسماء.

وقال تعالى: ﴿وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. ﴿أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾ [النساء: ١٦٦]. ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلا تَضَعُ إِلاَّ بِعِلْمِهِ﴾ [فاطر: ١١]. ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨]. ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥].

وعن جابر ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ يعلمنا الاستخارة فى الأمور كلها كما يعلمنا السورة من القرآن يقول: «**إذا هم أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة، ثم ليقل: اللهم إنى أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك وأسالك من فضلك العظيم، فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لى فى دينى ومعاشى وعاقبة أمرى ـ أوقال: عاجل أمرى وآجله ـ فاقدره لى ويسره لى، ثم بارك لى فيه وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لى فى دينى ومعاشى وعاقبة أمرى ـ أوقال: عاجل أمرى وآجله ـ فاصرفه عنى واصرفنى عنه، واقدر لى الخير حيث**

كان، **ثم رضني به قال: ويسمي حاجته»** [1] رواه البخاري.

وفي حديث عمار بن ياسر رضي الله عنه الذي رواه النسائي وغيره، عن النبي ﷺ أنه كان يدعو بهذا الدعاء: «**اللهم بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق، أحيني ما كانت الحياة خيرا لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي اللهم إني أسألك خشيتك في الغيب والشهادة، وأسألك كلمة الحق في الغضب والرضى، وأسألك القصد في الغنى والفقر، وأسألك نعيماً لا ينفد وقرة عين لا تنقطع وأسألك الرضى بعد القضاء، وأسألك برد العيش بعد الموت وأسألك لذة النظر إلى وجهك الكريم، والشوق إلى لقائك، في غير ضراء مضرة، ولا فتنة مضلة، اللهم زينا بزينة الإيمان، واجعلنا هداة مهتدين**» [2].

فقد سمى الله ورسوله صفات الله علما وقدرة وقوة، وقال تعالى: ﴿**ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً**﴾ [الروم: ٥٤]. ﴿**وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ**﴾ [يوسف: ٦٨]. ومعلوم أنه ليس العلم كالعلم، ولا القوة كالقوة، ونظائر هذا كثيرة. وهذا لازم لجميع العقلاء. فإن من نفى صفة من صفاته

---

(١) رواه البخاري [١١٦٢]، وأبو داود [١٥٣٨]، والترمذي [٤٨٠]، والنسائي (٦٦/٦)، وابن ماجه [١٣٨٣]، وأحمد (٣/٣٤٤).

(٢) **صحيح**. رواه النسائي (٣/٤٦)، وابن حبان [١٩٧١]، والحاكم (١/٥٢٤)، من طريق حماد بن زيد، عن عطاء بن السائب، عن أبيه، عن عمار بن ياسر رضي الله عنه به.
وإسناده صحيح رجاله ثقات غير عطاء بن السائب فإنه صدوق اختلط إلا أن حماد بن زيد قد سمع منه قبل الاختلاط كما في «تهذيب التهذيب» (٧/٢٠٥)، والحديث صححه الحاكم، ووافقه الذهبي.
ورواه النسائي (٣/٤٧)، وابن أبي شيبة (١٠/٢٦٤)، من طريق شريك عن أبي هاشم عن أبي مجلز عن عباد بن قيس، عن عمار رضي الله عنه به.
ورواه أحمد (٤/٢٦٤) من طريق شريك عن أبي هاشم عن أبي مجلز عن عمار به.
وشريك هو ابن عبد الله القاضي صدوق يخطئ كثيراً تغير حفظه لما ولي القضاء كما في «التقريب».

التى وصف الله بها نفسه، كالرضى والغضب، والمحبة والبغض، ونحوذلك وزعم أن ذلك يستلزم التشبيه والتجسيم! قيل له: فأنت تثبت له الإرادة والكلام والسمع والبصر مع أن ما تثبته له ليس مثل صفات المخلوقين فقل فيما نفيته وأثبته الله ورسوله مثل قولك فيما أثبته؛ إذ لا فرق بينهما.

فإن قال: أنا لا أثبت شيئاً من الصفات.

قيل له: فأنت تثبت له الأسماء الحسنى، مثل: عليم، حى، قادر، والعبد يسمى بهذه الأسماء وليس ما يثبت للرب من هذه الأسماء مماثلا لما يثبت للعبد فقل فى صفاته نظير قولك فى مسمى أسمائه.

فإن قال: وأنا لا أثبت له الأسماء الحسنى، بل أقول: هى مجاز، وهى أسماء لبعض مبتدعاته، كقول غلاة الباطنية والمتفلسفة!

قيل له: فلا بد أن تعتقد أنه موجود حق قائم بنفسه، والجسم موجود قائم بنفسه، وليس هومماثلاً له.

فإن قال: أنا لا أثبت شيئاً، بل أنكر وجود الواجب.

قيل له: معلوم بصريح العقل أن الموجود إما واجب بنفسه، وإما غير واجب بنفسه، وإما قديم أزلى، وإما حادث كائن بعد أن لم يكن، وإما مخلوق مفتقر إلى خالق، وإما غيرمخلوق ولا مفتقر إلى خالق، وإما فقير إلى ما سواه، وإما غنى عما سواه.

وغير الواجب بنفسه لا يكون إلا بالواجب بنفسه، والحادث لا يكون إلا بقديم، والمخلوق لا يكون إلا بخالق، والفقير لا يكون إلا بغنى

عنه، فقد لزم على تقدير النقيضين وجود موجود واجب بنفسه قديم أزلى خالق غنى عما سواه، وما سواه بخلاف ذلك.

وقد علم بالحس والضرورة وجود موجود حادث كائن بعد أن لم يكن، والحادث لا يكون واجباً بنفسه، ولا قديما أزلياً، ولا خالقاً لما سواه، ولا غنياً عما سواه، فثبت بالضرورة وجود موجودين: أحدهما واجب، والآخر ممكن، أحدهما قديم، والآخر حادث، أحدهما غنى والآخر فقير، أحدهما خالق والآخر مخلوق، وهما متفقان فى كون كل منهما شيئاً موجوداً ثابتاً.

ومن المعلوم أيضاً أن أحدهما ليس مماثلاً للآخر فى حقيقته ؛ إذ لوكان كذلك لتماثلا فيما يجب ويجوز ويمتنع، وأحدهما يجب قدمه وهوموجود بنفسه، والآخر لا يجب قدمه ولا هوموجود بنفسه، وأحدهما خالق والآخر ليس بخالق، وأحدهما غنى عما سواه، والآخر فقير.

فلوتماثلا للزم أن يكون كل منهما واجب القدم ليس بواجب القدم، موجودا بنفسه غير موجود بنفسه، خالقاً ليس بخالق، وغنياً غير غنى، فيلزم اجتماع الضدين على تقدير تماثلهما، فعلم أن تماثلهما منتف بصريح العقل، كما هومنتف بنصوص الشرع.

فعلم بهذه الأدلة اتفاقهما من وجه، واختلافهما من وجه، فمن نفى ما اتفقا فيه كان معطلاً قائلاً للباطل، ومن جعلهما متماثلين كان مشبهاً قائلاً للباطل، والله أعلم. وذلك لأنهما وإن اتفقا فى مسمى ما اتفقا فيه، فالله تعالى مختص بوجوده وعلمه، وقدرته وسائر صفاته

والعبد لا يشركه فى شئ من ذلك، والعبد أيضاً مختص بوجوده وعلمه وقدرته، والله تعالى منزه عن مشاركة العبد فى خصائصه.

وإذا اتفقا فى مسمى الوجود والعلم والقدرة، فهذا المشترك مطلق كلى يوجد فى الأذهان لا فى الأعيان، والموجود فى الأعيان مختص لا اشتراك فيه.

وهذا موضع اضطرب فيه كثير من النظار، حيث توهموا أن الاتفاق فى مسمى هذه الأشياء يوجب أن يكون الوجود الذى للرب كالوجود الذى للعبد.

وطائفة ظنت أن لفظ الوجود يقال بالاشتراك اللفظى، وكابروا عقولهم، فإن هذه الاسماء عامة قابلة للتقسيم، كما يقال: الموجود ينقسم إلى واجب وممكن، وقديم وحادث. ومورد التقسيم مشترك بين الأقسام، واللفظ المشترك كلفظ المشترى الواقع على المبتاع والكوكب لا ينقسم معناه، ولكن يقال: لفظ: المشترى يقال على كذا أوعلى كذا وأمثال هذه المقالات التى قد بسط الكلام عليها فى موضعه.

وأصل الخطأ والغلط: توهمهم أن هذه الأسماء العامة الكلية يكون مسماها المطلق الكلى هوبعينه ثابتاً فى هذا المعين وهذا المعين، وليس كذلك، فإن ما يوجد فى الخارج لا يوجد مطلقاً كلياً، لا يوجد إلا معيناً مختصاً، وهذه الاسماء إذا سمى الله بها كان مسماها معيناً مختصاً به، فإذا سمى بها العبد كان مسماها مختصاً به. فوجود الله وحياته لا يشاركه فيها غيره، بل وجود هذا الموجود المعين لا يشركه

فيـه غيـره فكيف بوجـود الخـالق! ألا ترى أنـك تقـول: هـذا هوذاك، فالمشار إليه واحد لكن بوجهين مختلفين.

وبهـذا ومثـله يتـبين لك أن المـشبـهـة أخـذوا هذا المعنى وزادوا فيـه على الحق فـضلوا، وأن المعطلة أخـذوا نفـى المماثلة بوجـه من الـوجـوه، وزادوا فـيـه على الحق حـتى ضلوا، وأن كـتـاب الله دل علـى الحق المحض الذى تعـقـله العـقـول السليـمة الصحيحة، وهوالحق المعـتـدل الذى لا انحراف فيه.

فـالنفـاة أحسنوا فى تنزيه الخـالق سبـحانـه عن التـشـبـيـه بشئ من خلقه، ولكن أساؤوا فى نفى المعانى الثابتة لله تعالى فى نفس الأمر.

والمشبهة أحسنوا فى إثبات الصفات، ولكن أساؤوا بزيادة التشبيه.

واعلم أن المخاطب لا يفـهم المعـانى المعبر عنهـا باللفظ إلا أن يعـرف عينهـا أوما يناسب عينها ويكون بينهـا قدر مشترك ومشابهة فى أصل المعنى، وإلا فـلا يمكن تفـهـيم المخاطبين بدون هذا قط، حـتى فى أول تعليم معـانى الكلام بتـعليم معـانى الألفـاظ المفردة، مثل تربيـة الصبى الذى يعلم البيـان واللغة وينطق له باللفظ المفـرد ويشار له إلى معناه إن كـان مشهـودا بالإحسـاس الظاهر أوالبـاطن، فـيقـال له: لبن، خـبـز، أم، أب، سمـاء، أرض، شـمس، قـمـر، مـاء، ويشـار له مع العبـارة إلى كل مسمى من هذه المسميات، وإلا لم يفـهم معنى اللـفظ ومراد الناطق به، وليس أحـد من بنى آدم يستـغنى عن التـعليم السـمـعى، كـيف وآدم أبوالبـشر وأول مـا علمـه الله تعالى أصول الأدلة السـمعيـة وهى الأسمـاء كلها، وكلمه وعلمه بخطاب الوحى ما لم يعلمه بمجرد العقل.

فدلالة اللفظ على المعنى هى بواسطة دلالته على ما عناه المتكلم وأراده، وإرادته وعنايته فى قلبه، فلا يعرف باللفظ ابتداء، ولكن يعرف المعنى بغير اللفظ حتى يعلم أولاً أن هذا المعنى المراد هوالذى يراد بذلك اللفظ ويعنى به، فإذا عرف ذلك ثم سمع اللفظ مرة ثانية، عرف المعنى المراد بلا إشارة إليه. وإن كانت الإشارة إلى ما يحس بالباطن، مثل الجوع والشبع والرى والعطش والحزن والفرح، فإنه لا يعرف اسم ذلك حتى يجده من نفسه، فإذا وجده أشير له إليه، وعرف أن اسمه كذا.

والإشارة تارة تكون إلى جوع نفسه أوعطش نفسه، مثل أن يراه أنه قد جاع فيقول له: جعت، أنت جائع، فيسمع اللفظ ويعلم ما عينه بالإشارة أو ما يجرى مجراها من القرائن التى تعين المراد، مثل نظر أمه إليه فى حال جوعه وإدراكه بنظرها أونحوه أنها تعنى جوعه، أويسمعهم يعبرون بذلك عن جوع غيره.

إذا عرف ذلك فالمخاطب المتكلم إذا أراد بيان معان، فلا يخلوإما أن يكون مما أدركها المخاطب المستمع بإحساسه وشهوده، أوبمعقوله، وإما أن لا يكون كذلك. فإن كانت من القسمين الأولين لم يحتج إلا إلى معرفة اللغة بأن يكون قد عرف معانى الألفاظ المفردة ومعنى التركيب، فإذا قيل له بعد ذلك: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ * وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ﴾ [البلد: ٨-٩]، أوقيل له: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨]. ونحوذلك فهم المخاطب بما أدركه بحسه.

وإن كانت المعانى التى يراد تعريفه بها ليست مما أحسه وشهده

بعينه، ولا بحيث صار له معقول كلى يتناولها حتى يفهم به المراد بتلك الألفاظ، بل هى مما لا يدركه بشئ من حواسه الباطنة والظاهرة، فلابد فى تعريفه من طريق القياس والتمثيل والاعتبار بما بينه وبين معقولات الأمور التى شاهدها من التشابه والتناسب وكلما كان التمثيل أقوى، كان البيان أحسن، والفهم أكمل.

فالرسول صلوات الله وسلامه عليه لما بين لنا أموراً لم تكن معروفة قبل ذلك، وليس فى لغتهم لفظ يدل عليها بعينها، أتى بألفاظ تناسب معانيها تلك المعانى، وجعلها أسماء لها، فيكون بينها قدر مشترك، كالصلاة والزكاة والصوم والإيمان والكفر.

وكذلك لما أخبرنا بأمور تتعلق بالإيمان بالله وباليوم الآخر، وهم لم يكونوا يعرفونها قبل ذلك حتى يكون لهم ألفاظ تدل عليها بعينها، أخذ من اللغة الألفاظ المناسبة لتلك بما تدل عليه من القدر المشترك بين تلك المعانى الغيبية، والمعانى الشهودية التى كانوا يعرفونها وقرن بذلك من الإشارة ونحوها ما يعلم به حقيقة المراد، كتعليم الصبى، كما قال ربيعة بن أبى عبد الرحمن [١]: الناس فى حجور علمائهم كالصبيان فى حجور آبائهم.

وأما ما يخبر به الرسول من الأمور الغائبة، فقد يكون مما أدركوا نظيره بحسهم وعقلهم، كإخبارهم بأن الريح أهلكت عاداً فإن عاداً من

(١) هو المشهور بربيعة الرأى، أبو عثمان، واسم أبيه فَرُّوخ. مفتى المدينة، وعالم الوقت، وكان من أئمة الاجتهاد، وأوعية العلم. قال مالك: ذهبت حلاوة الفقه منذ مات ربيعة. توفى سنة (١٣٦ هـ) على الصحيح. («سير أعلام النبلاء» ٦ / ٨٩ - «تقريب التهذيب»).

جنسهم والريح من جنس ريحهم، وإن كانت أشد . وكذلك غرق فرعون فى البحر، وكذا بقية الأخبار عن الأمم الماضية ؛ ولهذا كان الإخبار بذلك فيه عبرة لنا، كما قال تعالى : ﴿ **لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِي الأَلْبَابِ** ﴾ [يوسف: ١١١] .

وقد يكون الذى يخبر به الرسول مالم يدركوا مثله الموافق له فى الحقيقة من كل وجه لكن فى مفرداته ما يشبه مفرداتهم من بعض الوجوه . كما إذا أخبرهم عن الأمور الغيبية المتعلقة بالله واليوم الآخر فلابد أن يعلموا معنى مشتركا وشبها بين مفردات تلك الألفاظ وبين مفردات ألفاظ ما علموه فى الدنيا بحسهم وعقلهم .

فإذا كان ذلك المعنى الذى فى الدنيا لم يشهدوه بعد، ويريد أن يجعلهم يشهدونه مشاهدة كاملة ليفهموا به القدر المشترك بينه وبين المعنى الغائب، أشهدهم إياه، وأشار لهم إليه، وفعل فعلاً يكون حكاية له وشبها به يعلم المستمعون أن معرفتهم بالحقائق المشهودة هى الطريق التى يعرفون بها الأمور الغائبة، فينبغى أن تعرف هذه الدرجات :

أولها : إدراك الإنسان المعانى الحسية المشاهدة .

وثانيها : عقله لمعانيها الكلية .

وثالثها : تعريف الألفاظ الدالة على تلك المعانى الحسية والعقلية .

فهذه المراتب الثلاث لا بد منها فى كل خطاب . فإذا أخبرنا عن الأمورالغائبة فلا بد من تعريفنا المعانى المشتركة بينها وبين الحقائق المشهودة والاشتباه الذى بينهما، وذلك بتعريفنا الأمور المشهودة، ثم إن كانت مثلها لم يحتج إلى ذكر الفارق كما تقدم فى قصص الأمم،

وإن لم يكن مثلها بين ذلك بذكر الفارق، بأن يقال: ليس ذلك مثل هذا، ونحوذلك. وإذا تقرر انتفاء المماثلة كانت الإضافة وحدها كافية فى بيان الفارق، وانتفاء التساوى لا يمنع وجود القدر المشترك الذى هومدلول اللفظ المشترك، وبه صرنا نفهم الأمور الغائبة ولولا المعنى المشترك ما أمكن ذلك قط.

قوله: «**ولا شئ يعجزه**».

ش: لكمال قدرته. قال تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ [البقرة: ٢٠]. ﴿**وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا**﴾ [الكهف: ٤٥]. ﴿**وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا**﴾ [فاطر: ٤٤]. ﴿**وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ**﴾ [البقرة: ٢٥٥]. ﴿**وَلَا يَئُودُهُ**﴾ - أى - لا يكرثه ولا يثقله ولا يعجزه. فهذا النفى لثبوت كمال ضده، وكذلك كل نفى يأتى فى صفات الله تعالى فى الكتاب والسنة إنما هولثبوت كمال ضده كقوله تعالى: ﴿**وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا**﴾ [الكهف: ٤٩]، لكمال عدله. ﴿**لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ**﴾ [سبأ: ٣]، لكمال علمه، وقوله تعالى: ﴿**وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ**﴾ [ق: ٣٨]. لكمال قدرته. ﴿**لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ**﴾ [البقرة: ٢٥٥]. لكمال حياته وقيوميته. ﴿**لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ**﴾ [الأنعام: ١٠٣]. لكمال جلاله وعظمته وكبريائه، والا فالنفى الصرف لا مدح فيه، ألا ترى أن قول الشاعر:

قُبَيِّلَةٌ لاَ يَغْدِرُونَ بِذِمَّةٍ ... وَلاَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ حَبَّةَ خَرْدَلِ

لما اقترن بنفى الغدر والظلم عنهم ما ذكره قبل هذا البيت وبعده،

وتصغيرهم بقوله « قبيلة » علم أن المراد عجزهم وضعفهم، لا كمال قدرتهم. وقول الآخر:

لَكِنَّ قَوْمِى وَإِنْ كَانُوا ذَوِى عَدَدٍ لَيْسُوا مِنَ الشَّرِّ فِى شَئٍ وَإِنْ هَانا

لما اقترن بنفى الشر عنهم ما يدل على ذمهم، عُلم أن المراد عجزهم وضعفهم أيضاً.

ولهذا يأتى الإثبات للصفات فى كتاب الله مفصلاً، والنفى مجملاً، عكس طريقة أهل الكلام المذموم: فإنهم يأتون بالنفى المفصل والإثبات المجمل يقولون: ليس بجسم ولا شبح ولا جثة ولا صورة ولا لحم ولا دم ولا شخص ولا جوهر ولا عرض ولا بذى لون ولا رائحة ولا طعم ولا مجسَّة ولا بذى حرارة ولا برودة ولا رطوبة ولا يبوسة ولا طول ولا عرض ولا عمق ولا اجتماع ولا افتراق، ولا يتحرك ولا يسكن ولا يتبعض، وليس بذى أبعاض وأجزاء وجوارح وأعضاء، وليس بذى جهات، ولا بذى يمين ولا شمال وأمام وخلف وفوق وتحت، ولا يحيط به مكان ولا يجرى عليه زمان ولا يجوز عليه المماسة ولا العزلة ولا الحلول فى الأماكن، ولا يوصف بشئ من صفات الخلق الدالة على حدوثهم، ولا يوصف بأنه متناه، ولا يوصف بمساحة ولا ذهاب فى الجهات وليس بمحدود، ولا والد ولا مولود، ولا تحيط به الأقدار ولا تحجبه الأستار إلى آخر ما نقله أبوالحسن الأشعرى (١) - رحمه الله - عن

---

(١) هو إمام المتكلمين، على بن إسماعيل بن أبى بشر إسحق بن سالم بن إسماعيل بن عبد الله بن موسى بن أمير البصرة بلال بن أبى بردة بن صاحب رسول الله ﷺ أبى موسى عبد الله بن قيس، الأشعرى اليمانى البصرىّ. توفى سنة (٣٢٤ هـ) (« سير أعلام النبلاء » - ١٥ / ٨٥).

المعتزلة.

وفى هذه الجملة حق وباطل. ويظهر ذلك لمن يعرف الكتاب والسنة، وهذا النفى المجرد مع كونه لا مدح فيه، فيه إساءة أدب، فإنك لوقلت للسلطان: أنت لست بزبال ولا كساح ولا حجام ولا حائك. لأدبك على هذا الوصف وإن كنت صادقاً، وإنما تكون مادحاً إذا أجملت النفى فقلت: أنت لست مثل أحد من رعيتك، أنت أعلى منهم وأشرف وأجل، فإذا أجملت فى النفى أجملت فى الأدب.

والتعبير عن الحق بالألفاظ الشرعية النبوية الإلهية هوسبيل أهل السنة والجماعة. والمعطلة يعرضون عما قاله الشارع من الأسماء والصفات، ولا يتدبرون معانيها، ويجعلون ما ابتدعوه من المعانى والألفاظ هوالمحكم الذى يجب اعتقاده واعتماده.

وأما أهل الحق والسنة والإيمان فيجعلون ما قاله الله ورسوله هوالحق الذى يجب اعتقاده واعتماده والذى قاله هؤلاء إما أن يعرضوا عنه إعراضا جملياً أويبينوا حاله تفصيلا، ويحكم عليه بالكتاب والسنة، لا يحكم به على الكتاب والسنة.

والمقصود: أن غالب عقائدهم السلوب، ليس بكذا، ليس بكذا، وأما الإثبات فهوقليل، وهو أنه عالم قادر حى، وأكثر النفى المذكور ليس متلقى عن الكتاب والسنة، ولاعن الطرق العقلية التى سلكها غيرهم من مثبتة الصفات، فإن الله تعالى قال: ﴿ **لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ** ﴾ [الشورى: ١١]. ففى هذا الإثبات ما يقرر معنى النفى، ففهم أن المراد انفراده سبحانه بصفات الكمال فهوسبحانه وتعالى

موصوف بما وصف به نفسه، ووصفه به رسله، ليس كمثله شئ فى صفاته ولا فى أسمائه ولا فى أفعاله مما أخبرنا به من صفاته، وله صفات لم يطلع عليها أحد من خلقه، كما قال رسوله الصادق ﷺ فى دعاء الكرب: «**اللهم إنى اسألك بكل اسم هولك سميت به نفسك أوأنزلته فى كتابك أوعلمته أحداً من خلقك أواستأثرت به فى علم الغيب عندك أن تجعل القرآن ربيع قلبى ونور صدرى وجلاء حزنى وذهاب همى وغمى**» [1] وسيأتى التنبيه على فساد طريقتهم فى الصفات إن شاء الله تعالى.

وليس قول الشيخ - رحمه الله تعالى - «ولا شئ يعجزه» من النفى المذموم، فإن الله تعالى قال: ﴿**وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيماً قَدِيراً**﴾ [فاطر: ٤٤]، فنبه سبحانه وتعالى فى آخر الآية على دليل انتفاء العجز، وهوكمال العلم والقدرة، فإن العجز إنما ينشأ إما من الضعف عن القيام بما يريده الفاعل، وإما من عدم علمه به، والله تعالى لا يعزب عنه مثقال ذرة وهوعلى كل شئ قدير. وقد

---

(١) **حسن**. رواه أحمد (١/٣٩١)، وابن أبى شيبة (١٠/٢٥٣)، وأبو يعلى [٥٢٩٧]، وابن حبان [٩٧٢]، والحاكم (١/٥٠٩)، من طريق فضيل بن مرزوق، عن أبى سلمة الجهنى، عن القاسم بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن ابن مسعود رضي الله عنه به.
وأبو سلمة الجهنى مجهول الحال كما فى «الميزان» (٤/٥٣٣)، و«تعجيل المنفعة» (ص: ٣٢٢)، وذكره ابن حبان فى«الثقات»، وتابعه عبد الرحمن بن إسحق، عن القاسم به. أخرجه ابن السنى فى «عمل اليوم والليلة» [٣٤٢]، والبزار فى «البحر الزخار» [١٩٩٤]، والبيهقى فى «الأسماء والصفات» (ص: ٦)، وعبد الرحمن بن إسحق ضعيف كما فى «التقريب»، وله شاهد رواه ابن السنى [٣٢١]، والطبرانى فى «الدعاء» (إتحاف السادة المتقين - ٥/٣٧٤)، من طريق جعفر بن برقان عن فياض الكوفى، عن عبد الله بن زبيد، عن أبى موسى رضي الله عنه بنحوه، وإسناده حسن فى الشواهد.
والحديث حسن بمجموع طرقه، وشاهده. وحسنه الحافظ فى «تخريج الأذكار» (الفتوحات الربانية - ٤/١٣).

علم ببداثة العقول والفطر كمال قدرته وعلمه، فانتفى العجز؛ لما بينه وبين القدرة من التضاد؛ ولأن العاجز لا يصلح أن يكون إلها، تعالى الله عن ذكر ذلك علواً كبيراً.

قوله: «**ولا إله غيره**».

ش: هذه كلمة التوحيد التى دعت إليها الرسل كلها، كما تقدم ذكره. وإثبات التوحيد بهذه الكلمة باعتبار النفى والإثبات المقتضى للحصر فإن الإثبات المجرد قد يتطرق إليه الاحتمال؛ ولهذا ـ والله أعلم ـ لما قال تعالى: ﴿ **وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ** ﴾ [البقرة: ١٦٣]، قال بعده: ﴿ **لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ** ﴾ [البقرة: ١٦٣]. فإنه قد يخطر ببال أحد خاطر شيطانى: هب أن إلهنا واحد، فلغيرنا إله غيره فقال تعالى: ﴿ **لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ** ﴾ [البقرة: ١٦٣].

وقد اعترض صاحب «المنتخب» على النحويين فى تقدير الخبر فى «لا إله إلا هو» فقالوا: تقديره: لا إله فى الوجود إلا الله، فقال: يكون ذلك نفياً لوجود الإله ومعلوم أن نفى الماهية أقوى فى التوحيد الصرف من نفى الوجود فكان إجراء الكلام على ظاهره والإعراض عن هذا الإضمار أولى.

وأجاب أبوعبد الله محمد بن أبى الفضل المرسى فى «رى الظمآن» فقال: هذا كلام من لا يعرف لسان العرب، فإن «إله» فى موضع المبتدأ على قول سيبويه، وعند غيره اسم «لا» وعلى التقديرين فلا بد من خبر المبتدأ، وإلا فما قاله من الاستغناء عن الإضمار فاسد.

وأما قوله: إذا لم يضمر يكون نفياً للماهية فليس بشئ؛ لأن نفى

الماهية هونفى الوجود، لا تتصور الماهية إلا مع الوجود، فلا فرق بين «لا ماهية» و «لا وجود» وهذا مذهب أهل السنة، خلافاً للمعتزلة، فانهم يثبتون ماهية عارية عن الوجود، و «إلا الله» مرفوع، بدلا من «لا إله» لا يكون خبراً لـ «لا» ولا للمبتدأ. وذكر الدليل على ذلك.

وليس المراد هنا ذكر الإعراب، بل المراد رفع الإشكال الوارد على النحاة فى ذلك، وبيان أنه من جهة المعتزلة، وهوفاسد: فإن قولهم: فى الوجود ليس تقييداً ؛ لأن العدم ليس بشئ قال تعالى: ﴿ **وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا** ﴾ [مريم: ٩]. ولا يقال: ليس قوله: غيره. كقوله: إلا الله ؛ لأن غير تعرب بإعراب الاسم الواقع بعد إلا. فيكون التقدير للخبر فيهما واحدا ؛ فلهذا ذكرت هذا الإشكال وجوابه هنا.

قوله: «**قديم بلا ابتداء، دائم بلا انتهاء**».

ش: قال الله تعالى: ﴿ **هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ** ﴾ [الحديد: ٣]. وقال ﷺ: «**اللهم أنت الأول فليس قبلك شئ، وأنت الآخر فليس بعدك شيء**» (١).

فقول الشيخ - رحمه الله - «قديم بلا ابتداء، دائم بلا انتهاء» هومعنى اسمه الأول والآخر.

والعلم بثبوت هذين الوصفين مستقر في الفطر، فان الموجودات لا بد أن تنتهى إلى واجب الوجود لذاته قطعاً للتسلسل، فإنا نشاهد حدوث الحيوان والنبات والمعادن وحوادث الجوكالسحاب والمطر وغير

---

(١) رواه مسلم [٢٧١٣]، وأبو داود [٥٠٥١]، والترمذى [٣٤٠٠]، والنسائى فى «الكبرى» [١٠٦٢٦]، وابن ماجه [٣٨٧٣]، وأحمد (٢/ ٣٨١، ٤٠٤)، من حديث أبى هريرة رضي الله عنه.

ذلك، وهذه الحوادث وغيرها ليست ممتنعة، فإن الممتنع لا يوجد، ولا واجبة الوجود بنفسها فإن واجب الوجود بنفسه لا يقبل العدم وهذه كانت معدومة ثم وجدت، فعدمها ينفى وجوبها، ووجودها ينفى امتناعها، وما كان قابلا للوجود والعدم لم يكن وجوده بنفسه كما قال تعالى: ﴿**أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ**﴾ [الطور: ٣٥]. يقول سبحانه: أحدثوا من غير محدث أم هم أحدثوا أنفسهم؟ ومعلوم أن الشئ المحدث لا يوجد نفسه، فالممكن الذى ليس له من نفسه وجود ولا عدم لا يكون موجوداً بنفسه، بل إن حصل ما يوجده وإلا كان معدوماً، وكل ما أمكن وجوده بدلاً عن عدمه وعدمه بدلا عن وجوده، فليس له من نفسه وجود ولا عدم لازم له.

وإذا تأمل الفاضل غاية ما يذكره المتكلمون والفلاسفة من الطرق العقلية، وجد الصواب منها يعود إلى بعض ما ذكر فى القرآن من الطرق العقلية بأفصح عبارة وأوجزها، وفى طرق القرآن من تمام البيان والتحقيق مالا يوجد عندهم مثله قال تعالى: ﴿**وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً**﴾ [الفرقان: ٣٣].

ولا نقول: لا ينفع الاستدلال بالمقدمات الخفية والأدلة الطويلة فإن الخفاء والظهور من الأمور النسبية، فربما ظهر لبعض الناس ما خفى على غيره، ويظهر للإنسان الواحد فى حال ما خفى عليه فى حال أخرى.

وأيضاً فالمقدمات وإن كانت خفية فقد يسلمها بعض الناس وينازع فيما هوأجلى منها، وقد تفرح النفس بما علمته بالبحث والنظر مالا تفرح بما علمته من الأمور الظاهرة. ولا شك أن العلم بإثبات الصانع ووجوب وجوده أمر ضرورى فطرى، وإن كان يحصل لبعض الناس من

الشبه ما يخرجه إلى الطرق النظرية.

وقد أدخل المتكلمون فى أسماء الله تعالى «القديم»، وليس هومن الأسماء الحسنى، فإن القديم فى لغة العرب التى نزل بها القرآن: هوالمتقدم على غيره، فيقال: هذا قديم للعتيق، وهذا حديث، للجديد. ولم يستعملوا هذا الاسم إلا فى المتقدم على غيره، لا فيما لم يسبقه عدم، كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ [يس: ٣٩]. والعرجون القديم: الذى يبقى إلى حين وجود العرجون الثانى، فإذا وجد الجديد قيل للأول: قديم. وقال تعالى. ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ [الأحقاف: ١١]، أى متقدم فى الزمان. وقال تعالى: ﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ﴾ [الشعراء: ٧٥-٧٦]. فالأقدم مبالغة فى القديم ومنه: القول القديم والجديد للشافعى رحمه الله تعالى. وقال تعالى: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾ [هود: ٩٨]، -أى-يتقدمهم. ويُستعمل منه الفعل لازماً ومتعدياً، كما يقال: أخذنى ما قدم وما حدث، ويقال: هذا قدم هذا وهويقدمه. ومنه سميت القدم قدماً؛ لأنها تقدم بقية بدن الإنسان وأما إدخال القديم فى أسماء الله تعالى، فهومشهور عند أكثر أهل الكلام. وقد أنكر ذلك كثير من السلف والخلف، منهم ابن حزم.

ولا ريب أنه إذا كان مستعملاً فى نفس التقدم، فإن ما تقدم على الحوادث كلها فهوأحق بالتقدم من غيره. لكن أسماء الله تعالى هى الأسماء الحسنى التى تدل على خصوص ما يمدح به، والتقدم فى اللغة مطلق لا يختص بالتقدم على الحوادث كلها، فلا يكون من الأسماء الحسنى. وجاء الشرع باسمه الأول. وهوأحسن من القديم،

لأنه يشعر بأن ما بعده آيل إليه وتابع له بخلاف القديم. والله تعالى له الأسماء الحسنى لا الحسنة.

قوله: «**لا يفنى ولا يبيد**».

ش: إقرار بدوام بقائه سبحانه وتعالى قال عز من قائل: ﴿**كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ**﴾ [الرحمن: ٢٦-٢٧]. والفناء والبيد متقاربان فى المعنى والجمع بينهما فى الذكر للتأكيد، وهوأيضا مقرّر ومؤكّد؛ لقوله: دائم بلا انتهاء.

قوله: «**ولا يكون إلا ما يريد**».

ش: هذا رد لقول القدرية والمعتزلة، فإنهم زعموا أن الله أراد الإيمان من الناس كلّهم والكافر أراد الكفر. وقولهم فاسد مردود؛ لمخالفته الكتاب والسنة والمعقول الصحيح، وهى مسألة القدر المشهورة، وسيأتى لها زيادة بيان إن شاء الله تعالى.

وسموا قدرية؛ لإنكارهم القدر، وكذلك تسمى الجبرية المحتجون بالقدر قدرية أيضاً. والتسمية على الطائفة الأولى أغلب.

أما أهل السنة فيقولون: إن الله وإن كان يريد المعاصى قدراً فهولا يحبها ولا يرضاها ولا يأمر بها، بل يبغضها ويسخطها ويكرهها وينهى عنها. وهذا قول السلف قاطبة، فيقولون: ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن؛ ولهذا اتفق الفقهاء على أن الحالف لوقال: والله لأفعلن كذا إن شاء الله، لم يحنث إذا لم يفعله وإن كان واجباً أومستحباً. ولوقال: إن أحب الله، حنث إذا كان واجباً أومستحباً.

والمحققون من أهل السنة يقولون: الإرادة فى كتاب الله نوعان:

إرادة قدرية كونية خلقية، وإرادة دينية أمرية شرعية.

فالإرادة الشرعية هى المتضمنة للمحبة والرضى.

والكونية هى المشيئة الشاملة لجميع الحوادث، وهذا كقوله تعالى: ﴿**فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ**﴾ [الأنعام: ١٢٥]. وقوله تعالى عن نوح عليه السلام: ﴿**وَلا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ**﴾ [هود: ٣٤]. وقوله تعالى: ﴿**وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ**﴾ [البقرة: ٢٥٣].

وأما الإرادة الدينية الشرعية الأمرية فكقوله تعالى: ﴿**يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ**﴾ [البقرة: ١٨٥]. وقوله تعالى: ﴿**يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيمًا * يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا**﴾ [النساء: ٢٦-٢٨]. وقوله تعالى: ﴿**مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ**﴾ [المائدة: ٦]. وقوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا**﴾ [الأحزاب: ٣٣].

فهذه الإرادة هى المذكورة فى مثل قول الناس لمن يفعل القبائح: هذا يفعل ما لا يريده الله، أى: لا يحبه ولا يرضاه ولا يأمر به.

وأما الإرادة الكونية فهى: الإرادة المذكورة فى قول المسلمين: ما شاء الله كان وما لم يشاء لم يكن.

والفرق ثابت بين إرادة المريد أن يفعل، وبين إرادته من غيره أن

يفعل. فإذا أراد الفاعل أن يفعل فعلاً فهذه الإرادة معلقة بفعله، وإذا أراد من غيره أن يفعل فعلاً فهذه الإرادة لفعل الغير، وكلا النوعين معقول للناس، والأمر يستلزم الإرادة الثانية دون الأولى، فالله تعالى إذا أمر العباد بأمر فقد يريد إعانة المأمور على ما أمر به وقد لا يريد ذلك، وإن كان مريداً منه فعله.

وتحقيق هذا مما يبين فصل النزاع فى أمر الله تعالى: هل هومستلزم لإرادته أم لا؟ فهوسبحانه أمر الخلق على ألسن رسله - عليهم السلام - بما ينفعهم ونهاهم عما يضرهم، ولكن منهم من أراد أن يخلق فعله، فأراد سبحانه أن يخلق ذلك الفعل ويجعله فاعلاً له. ومنهم من لم يرد أن يخلق فعله، فجهة خلقه سبحانه لأفعال العباد وغيرها من المخلوقات، غير جهة أمره للعبد على وجه البيان لما هومصلحة للعبد أومفسدة، وهوسبحانه إذا أمر فرعون وأبا لهب وغيرهما بالإيمان كان قد بين لهم ما ينفعهم ويصلحهم إذا فعلوه، ولا يلزم إذا أمرهم أن يعينهم، بل قد يكون فى خلقه لهم ذلك الفعل وإعانتهم عليه وجه مفسدة من حيث هوفعل له، فإنه يخلق ما يخلق لحكمة، ولا يلزم إذا كان الفعل المأمور به مصلحة للمأمور، إذا فعله أن يكون مصلحة للآمر إذا فعله هو، أوجعل المأمور فاعلاً له - فأين جهة الخلق من جهة الأمر؟ فالواحد من الناس يأمر غيره وينهاه مريداً لنصحه ومبينا لما ينفعه، وإن كان مع ذلك لا يريد أن يعينه على ذلك الفعل؛ إذ ليس كل ما كان مصلحتى فى أن آمر به غيرى وأنصحه يكون مصلحتى فى أن أعاونه أنا عليه، بل قد تكون مصلحتى إرادة ما يضاده فجهة أمره لغيره نصحاً غير جهة فعله لنفسه، وإذا أمكن الفرق فى حق المخلوقين فهوفى حق

الله أولى بالإمكان.

والقدرية تضرب مثلاً بمن أمر غيره بأمره، فإنه لابد أن يفعل ما يكون المأمور أقرب إلى فعله، كالبشر والطلاقة وتهيئة المساند والمقاعد ونحو ذلك.

فيقال لهم: هذا يكون على وجهين:

أحدهما: أن تكون مصلحة الأمر تعود إلى الآمر، كأمر الملك جنده بما يؤيد ملكه، وأمر السيد عبده بما يصلح ملكه، وأمر الإنسان شركائه بما يصلح الأمر المشترك بينهما، ونحو ذلك.

الثاني: أن يكون الآمر يرى الإعانة للمأمور مصلحة له، كالأمر بالمعروف، وإذا أعان المأمور على البر والتقوى فإنه قد علم أن الله يثيبه على إعانته على الطاعة، وأنه في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه.

فأما إذا قدر أن الآمر إنما أمر المأمور لمصلحة المأمور، لا لنفع يعود على الآمر من فعل المأمور، كالناصح المشير، وقدر أنه إذا أعانه لم يكن ذلك مصلحة للآمر، وأن في حصول مصلحة المأمور مضرة على الآمر، مثل الذي جاء من أقصى المدينة يسعى وقال لموسى عليه السلام: **﴿إِنَّ الْمَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾** [القصص: ٢٠]. فهذا مصلحته في أن يأمر موسى عليه السلام بالخروج، لا في أن يعينه على ذلك، إذ لو أعانه لضره قومه. ومثل هذا كثير.

وإذا قيل: إن الله أمر العباد بما يصلحهم لم يلزم من ذلك أن يعينهم على ما أمرهم به، لاسيما وعند القدرية لا يقدر أن يعين أحداً على ما

به يصير فاعلاً. وإذا عللت أفعاله بالحكمة، فهى ثابتة فى نفس الأمر، وإن كنا نحن لا نعلمها. فلا يلزم إذا كان في نفس الآمر له حكمة فى الأمر أن يكون فى الإعانة على فعل المأمور به حكمة، بل قد تكون الحكمة تقتضى أن لا يعينه على ذلك، فإنه إذا أمكن فى المخلوق أن يكون مقتضى الحكمة والمصلحة أن يأمر بأمر لمصلحة المأمور، وأن تكون الحكمة والمصلحة للآمر أن لا يعينه على ذلك ؛ فإمكان ذلك فى حق الرب أولى وأحرى.

والمقصود: أنه يمكن فى حق المخلوق الحكيم أن يأمر غيره بأمر ولا يعينه عليه فالخالق أولى بإمكان ذلك فى حقه مع حكمته. فمن أمره وأعانه على فعل المأمور كان ذلك المأمور به قد تعلق به خلقُه وأمره نشأة خلقاً ومحبة، فكان مراداً بجهة الخلق ومراداً بجهة الأمر، ومن لم يعنه على فعل المأمور كان ذلك المأمور قد تعلق به أمره ولم يتعلق به خلقه، لعدم الحكمة المقتضية لتعلق الخلق به ؛ ولحصول الحكمة المقتضية لخلق ضده. وخلق أحد الضدين ينافى خلق الضد الآخر، فإن خلق المرض الذى يحصل به ذل العبد لربه ودعاؤه وتوبته وتكفير خطاياه ويرق به قلبه ويذهب عنه الكبرياء والعظمة والعدوان يضاد خلق الصحة التى لا تحصل معها هذه المصالح؛ ولذلك كان خلق ظلم الظالم الذى يحصل به للمظلوم من جنس ما يحصل بالمرض يضاد خلق عدله الذى لا يحصل به هذه المصالح، وإن كانت مصلحته هوفى أن يعدل.

وتفصيل حكمة الله فى خلقه وأمره، يعجز عن معرفتها عقول البشر، والقدرية دخلوا فى التعليل على طريقة فاسدة: مثلوا الله فيها

بخلقه ولم يثبتوا حكمة تعود إليه .

قوله : «**لا تبلغه الأوهام، ولا تدركه الأفهام**» .

ش: قال الله تعالى : ﴿**وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا**﴾ [طه: ١١٠]. قال في «الصحاح»: توهمت الشيء: ظننته، وفهمت الشيء: علمته ؛ فمراد الشيخ ـ رحمه الله ـ: أنه لا ينتهي إليه وهم، ولا يحيط به علم . قيل: الوهم ما يرجى كونه، ـ أي ـ: يظن أنه على صفة كذا والفهم: هوما يحصله العقل ويحيط به . والله تعالى لا يعلم كيف هوإلا هوسبحانه وتعالى ، وإنما نعرفه سبحانه بصفاته، وهوأنه أحد، صمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، ﴿**اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ**﴾ [البقرة: ٢٥٥] . ﴿**هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۞ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾ [الحشر: ٢٣ ـ ٢٤] .

قوله : «**ولا يشبه الأنام**» .

ش: هذا رد لقول المشبهة الذين يشبهون الخالق بالمخلوق سبحانه وتعالى قال عز وجل: ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**﴾ [الشورى: ١١]. وليس المراد نفى الصفات كما يقول أهل البدع فمن كلام أبى حنيفة ـ رحمه الله ـ فى «الفقه الأكبر»: لا يشبه شيئاً من خلقه ولا يشبهه شئ من خلقه. ثم قال بعد ذلك: وصفاته كلها خلاف صفات المخلوقين، يعلم لا كعلمنا، ويقدر لا كقدرتنا، ويرى لا [illegible] انتهى .

وقال نعيم بن حماد: من شبه الله بشئ من خلقه فقد كفر، ومن أنكر ما وصف الله به نفسه فقد كفر، وليس فيما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيه [1].

وقال إسحق بن راهويه: من وصف الله فشبه صفاته بصفات أحد من خلق الله فهو كافر بالله العظيم [2].

وقال: علامة جهم وأصحابه، دعواهم على أهل السنة والجماعة ماأولعوا به من الكذب أنهم مشبهة، بل هم المعطلة.

وكذلك قال خلق كثير من أئمة السلف: علامة الجهمية تسميتهم أهل السنة مشبهة فإنه ما من أحد من نفاة شئ من الأسماء والصفات إلا يسمى المثبت لها مشبها، فمن أنكر أسماء الله بالكلية من غالية الزنادقة، القرامطة والفلاسفة، وقال: إن الله لا يقال له: عالم ولا قادر يزعم أن من سماه بذلك فهومشبه لأن الاشتراك فى الاسم يوجب الاشتباه فى معناه، ومن أثبت الاسم وقال: هومجاز، كغالية الجهمية، يزعم أن من قال: إن الله عالم حقيقة، قادر حقيقة فهومشبه، ومن أنكر الصفات وقال: إن الله ليس له علم ولا قدرة ولا كلام ولا محبة ولا إرادة قال لمن أثبت الصفات: إنه مشبه، وإنه مجسم ؛ ولهذا كتب نفاة الصفات ، من الجهمية والمعتزلة والرافضة ونحوهم ، كلها مشحونة بتسمية مثبتة الصفات مشبهة ومجسمة، ويقولون فى كتبهم: إن من جملة المجسمة قوماً يقال لهم: المالكية، ينسبون إلى رجل يقال له:

---

(١) رواه الذهبى فى «العلو» (ص:١١٦)، واللاكائى فى «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» [٩٣٦].

(٢) رواه اللالكائى فى «السنة» [٩٣٧].

مالك بن أنس، وقوماً يقال لهم الشافعية، ينسبون إلى رجل يقال له: محمد بن إدريس؛ حتى الذين يفسرون القرآن منهم، كعبد الجبار [1]، والزمخشرى [2]، وغيرهما، يسمون كل من أثبت شيئاً من الصفات وقال بالرؤية مشبهاً، وهذا الاستعمال قد غلب عند المتأخرين من غالب الطوائف.

ولكن المشهور من استعمال هذا اللفظ عند علماء السنة المشهورين: أنهم لا يريدون بنفى التشبيه نفى الصفات، ولا يصفون به كل من أثبت الصفات. بل مرادهم أنه لا يشبه المخلوق فى أسمائه وصفاته وأفعاله، كما تقدم من كلام أبى حنيفة - رحمه الله - أنه تعالى يعلم لا كعلمنا، ويقدر لا كقدرتنا، ويرى لا كرؤيتنا، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**﴾ [الشورى: ١١]. فنفى المثل وأثبت الوصف.

وسيأتى فى كلام الشيخ إثبات الصفات، تنبيهاً على أنه ليس نفى التشبيه مستلزماً لنفى الصفات.

ومما يوضح هذا: أن العلم الإلهى لا يجوز أن يُستدل فيه بقياس تمثيل يستوى فيه الأصل والفرع، ولا بقياس شمولى يستوى أفراده، فإن

---

(١) هو العلامة المتكلم، القاضى عبد الجبار بن أحمد بن عبد الجبار بن أحمد بن خليل، شيخ المعتزلة، أبو الحسن الهَمَذانى، صاحب التصانيف، من كبار فقهاء الشافعية. تخريج به خلق فى الرأى الممقوت. توفى سنة (٤١٥ هـ). (السير - ١٧ / ٢٤٤).

(٢) هو كبير المعتزلة، أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد الزمخشرىّ الخوارزىّ النحوىّ، صاحب «الكشاف»، و«المفصل» ولد سنة (٤٦٧ هـ)، كان رأساً فى البلاغة، والعربية، والمعانى، والبيان.
قال الذهبى: وكان داعية إلى الاعتزال، الله يسامحه. (السير - ٢٠ / ١٥١).

الله سبحانه ليس كمثله شيء، فلا يجوز أن يمثل بغيره، ولا يجوز أن يدخل هو وغيره تحت قضية كلية يستوى أفرادها ؛ ولهذا لما سلكت طوائف من المتفلسفة والمتكلمة مثل هذه الأقيسة فى المطالب الإلهية - لم يصلوا بها إلى اليقين، بل تناقضت أدلتهم، وغلب عليهم بعد التناهى الحيرة والاضطراب ؛ لما يرونه من فساد أدلتهم أوتكافئها.

ولكن يستعمل فى ذلك قياس الأولى سواء كان تمثيلاً أوشمولاً كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَىٰ﴾ [النحل: ٦٠]. مثل أن يعلم أن كل كمال ثبت للممكن أوللمحدث، لا نقص فيه بوجه من الوجوه، وهوما كان كمالاً للوجود غير مستلزم للعدم بوجه فالواجب القديم أولى به. وكل كمال لا نقص فيه بوجه من الوجوه ثبت نوعه للمخلوق المربوب المدبر: فإنما استفاده من خالقه وربه ومدبره، وهوأحق به منه. وأن كل نقص وعيب فى نفسه، وهوما تضمن سلب هذا الكمال، إذا وجب نفيه عن شئ من أنواع المخلوقات والممكنات والمحدثات فإنه يجب نفيه عن الرب تعالى بطريق الأولى.

ومن أعجب العجب: أن من غلاة نفاة الصفات الذين يستدلون بهذه الآية الكريمة على نفى الصفات أوالأسماء، ويقولون: واجب الوجود لا يكون كذا ولا يكون كذا، ثم يقولون: أصل الفلسفة هى التشبه بالإله على قدر الطاقة، ويجعلون هذا غاية الحكمة ونهاية الكمال الإنسانى، ويوافقهم على ذلك بعض من يطلق هذه العبارة، ويروى عن النبى ﷺ أنه قال: «**تخلقوا بأخلاق الله**» [1] فإذا كانوا ينفون

---

(١) لم أعثر عليه.

الصفات، فبأى شئ يتخلق العبد على زعمهم؟ وكما أنه لا يشبه شيئاً من مخلوقاته تعالى ، لا يشبهه شئ من مخلوقاته، لكن المخالف فى هذا النصارى والحلولية والاتحادية [1] لعنهم الله تعالى.

ونفى مشابهة شئ من مخلوقاته له مستلزم لنفى مشابهته لشئ من مخلوقاته ؛ فلذلك اكتفى الشيخ ـ رحمه الله ـ بقوله ولا يشبه الأنام والأنام: الناس، وقيل: الخلق كلهم، وقيل: كل ذى روح، وقيل: الثقلان. وظاهر قوله تعالى: ﴿وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ﴾ [الرحمن: ١٠]. يشهد للأول أكثر من الباقى والله أعلم.

قوله: «**حى لا يموت قيوم لا ينام**».

ش: قال تعالى: ﴿**اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ**﴾ [البقرة: ٢٥٥]. فنفى السِّنة والنوم دليل على كمال حياته وقيوميته، وقال تعالى: ﴿**الم * اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ * نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ**﴾ [آل عمران: ١ ـ ٣]. وقال تعالى: ﴿**وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ**﴾ [طه: ١١١]. وقال تعالى: ﴿**وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ**﴾ [الفرقان: ٥٨]. وقال تعالى: ﴿**هُوَ الْحَيُّ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ**﴾ [غافر: ٦٥]. وقال ﷺ: «**إن الله لا ينام ولا ينبغى له أن ينام**» [2] ـ الحديث.

لما نفى الشيخ ـ رحمه الله ـ التشبيه أشار الى ما تقع به التفرقة بينه وبين خلقه، بما يتصف به تعالى دون خلقه.

---

(١) هم الذين يقولون بحلول الرب، أو اتحاده ببعض الخلق كالمسيح، أو يجعلون الحول والاتحاد عاماً لجميع الخلق، فهذه أربعة أقسام، فصلها سيخ الإسلام ابن تيمية في «مجموع الفتاوى» (٢/ ١٧١ ـ ١٧٢).

(٢) رواه مسلم [١٧٩]، وابن ماجه [١٩٥، ١٩٦]، وأحمد (٤/ ٣٩٥، ٤٠١)، وأبو عوانة (١/ ١٤٥)، وابن حبان [٢٦٦]، من حديث أبى موسى الأشعرى رضي الله عنه.

فمن ذلك: أنه حى لا يموت ؛ لأن صفة الحياة الباقية مختصة به تعالى دون خلقه. فإنهم يموتون.

ومنه: أنه قيوم لا ينام، إذ هومختص بعدم النوم والسنة، دون خلقه فإنهم ينامون.

وفى ذلك إشارة إلى أن نفى التشبيه ليس المراد به نفى الصفات، بل هوسبحانه موصوف بصفات الكمال ؛ لكمال ذاته.

فالحى بحياة باقية لا يشبه الحى بحياة زائلة، ولهذا كانت الحياة الدنيا متاعاً ولهواً ولعباً ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾ [العنكبوت: ٦٤]، فالحياة الدنيا كالمنام، والحياة الآخرة كاليقظة، ولا يقال: فهذه الحياة الآخرة كاملة، وهى للمخلوق لأنا نقول: الحى الذى الحياة من صفات ذاته اللازمة لها، هوالذى وهب المخلوق تلك الحياة الدائمة، فهى دائمة بإدامة الله لها، لا أن الدوام وصف لازم لها لذاتها، بخلاف حياة الرب تعالى.، وكذلك سائر صفاته، فصفات الخالق كما يليق به وصفات المخلوق كما يليق به.

واعلم أن هذين الاسمين ـ أعنى: الحى القيوم ـ مذكوران فى القرآن معا فى ثلاث سور كما تقدم، وهما من أعظم أسماء الله الحسنى، حتى قيل: إنهما الاسم الأعظم، فإنهما يتضمنان إثبات صفات الكمال أكمل تضمن وأصدقه، ويدل القيوم على معنى الأزلية والأبدية ما لا يدل عليه لفظ القديم. ويدل أيضاً على كونه موجوداً بنفسه وهومعنى كونه واجب الوجود. والقيوم أبلغ من «القيام» لأن الواو أقوى من الألف، ويفيد قيامه بنفسه باتفاق المفسرين وأهل اللغة،

وهو معلوم بالضرورة، وهل يفيد إقامته لغيره وقيامه عليه؟ فيه قولان، أصحهما: أنه يفيد ذلك. وهويفيد دوام قيامه وكمال قيامه؛ لما فيه من المبالغة، فهوسبحانه لا يزول ولا يأفل؛ فإن الآفل قد زال قطعاً أى: لا يغيب ولا ينقص ولا يفنى ولا يعدم، بل هوالدائم الباقى الذى لم يزل ولا يزال موصوفاً بصفات الكمال.

واقترانه بالحى يستلزم سائر صفات الكمال، ويدل على بقائها ودوامها، وانتفاء النقص والعدم عنها أزلاً وأبداً؛ ولهذا كان قوله: ﴿**اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ**﴾ [البقرة: ٢٥٥]. أعظم آية فى القرآن، كما ثبت ذلك فى «الصحيح» عن النبى ﷺ (١).

فعلى هذين الاسمين مدار الأسماء الحسنى كلها، وإليهما ترجع معانيها. فإن الحياة مستلزمة لجميع صفات الكمال، فلا يتخلف عنها صفة منها إلا لضعف الحياة، فإذا كانت حياته تعالى أكمل حياة وأتمها، استلزم إثباتها إثبات كل كمال يضاد نفيه كمال الحياة.

وأما القيوم فهومتضمن كمال غناه وكمال قدرته، فإنه القائم بنفسه، فلا يحتاج إلى غيره بوجه من الوجوه. المقيم لغيره، فلا قيام لغيره إلا بإقامته. فانتظم هذان الاسمان صفات الكمال أتم انتظام.

قوله: «**خالق بلا حاجة، رازق بلا مؤونة**».

ش: قال تعالى: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُون * مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ * إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ**﴾ [الذاريات:

---

(١) رواه مسلم [٨١٠]، وأبو داود [١٤٦٠]، وأحمد (٥/١٤٢)، والحاكم (٣/٣٠٤)، من حديث أبى بن كعب رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال: «**يا أبا المنذر أتدرى أى آيةٍ من كتاب الله معك أعظم**» ـ الحديث.

٥٦ - ٥٨]. ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥]. ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾ [محمد: ٣٨]. ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلا يُطْعَمُ﴾ [الأنعام: ١٤]. وقال ﷺ، من حديث أبى ذر رضي الله عنه: «**يا عبادى لوأن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك فى ملكى شيئا، يا عبادى لوأن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكى شيئاً، يا عبادى لوأن أولكم، وآخركم، وإنسكم وجنكم قاموا فى صعيد واحد، فسألونى، فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندى إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر**» (١) الحديث. رواه مسلم.

وقوله: «**بلا مؤونة**»: بلا ثقل ولا كلفة

قوله: «**مميت بلا مخافة، باعث بلا مشقة**».

ش: الموت صفة وجودية، خلافاً للفلاسفة ومن وافقهم. قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ [الملك: ٢]. والعدم لا يوصف بكونه مخلوقاً. وفى الحديث: أنه «**يؤتى بالموت يوم القيامة على صورة كبش أملح، فيذبح بين الجنة والنار**» (٢)، وهو وإن كان عرضاً فالله تعالى يقلبه عيناً، كما ورد فى العمل الصالح: «**أنه يأتى صاحبه فى صورة الشاب الحسن، والعمل القبيح على أقبح صورة**» (٣)، وورد فى القرآن: «**أنه**

---

(١) رواه مسلم [٢٥٧٧]، وأحمد (٥/ ١٦٠)، والبخارى فى «الأدب» [٤٩٠]، والحاكم (٤/ ٢٤١). ورواه ابن حبان [٦١٩] مختصراً.

(٢) رواه البخارى [٤٧٣٠]، ومسلم [٢٨٤٩]، والترمذى [٣١٥٦]، والنسائى فى «الكبرى» [١١٣١٦]، وأحمد (٣/ ٩). من حديث أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه.

(٣) **صحيح**. رواه أحمد (٤/ ٢٨٧)، والطيالسى [٧٥٣]، والحاكم (١/ ٣٧)، =

يأتى على صورة الشاب الشاحب اللون» [1]، الحديث - أى - فى قراءة القارىء. وورد فى الأعمال «أنها توضع فى الميزان» [2]، والأعيان هى التى تقبل الوزن دون الأعراض. وورد فى سورة البقرة وآل عمران: أنهما يوم القيامة «يظلان صاحبهما كأنهما غمامتان أوغيايتان أوفرقان من

= والبيهقى فى «الشعب» [٣٩٠]، من طريق المنهال بن عمرو، عن زادان، عن البراء بن عازب رضي الله عنه فى حديث طويل، وأوله يقول ﷺ: «**استعيذوا بالله من عذاب القبر**» - الحديث، وفيه: «**ويأتيه رجل حسن الوجه حسن الثياب طيب الريح فيقول أبشر بالذى يسرك هذا يومك الذى كنت توعد فيقول له من أنت فوجهك الوجه يجئ بالخير فيقول أنا عملك الصالح**» - الحديث.

وإسناده صحيح، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبى، وصحح إسناده البيهقى، وصححه ابن القيم فى «إعلام الموقعين» (١ / ١٧٨)، والزبيدى فى «الإتحاف» (١٤ / ٣٣٧).

والحديث رواه أبو داود [٣٢١٢، ٤٧٥٣]، والنسائى (٤ / ٧٨)، بدون موضع الشاهد.

(١) **حسن**. رواه ابن ماجه [٣٧٨١]، وأحمد (٥ / ٣٤٨)، والدارمى [٣٣٩٤]، والحاكم (١ / ٧٤٢)، من طريق مهاجر عن ابن بريدة، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يجئ القرآن يوم القيامة كالرجل الشاحب فيقول: أنا الذى أسهرت ليلك وأظمأت نهارك**».

ورجاله ثقات سوى بشير بن مهاجر فإنه صدوق لين الحديث كما فى «التقريب». قال الحاكم: صحيح على شرط مسلم، وقال البغوى فى «شرح السنة» (٤ / ٤٥٤): هذا حديث حسن غريب. وقال ابن كثير فى «التفسير» (١ / ٣٤): هذا إسناد حسن على شرط مسلم. اهـ.

وله شاهد رواه عبد الرزاق [٦٠١٤]، عن معمر، عن يحيى بن أبى كثير قال: بلغنا أن القرآن - فذكره. وإسناده صحيح إلا أنه معضل يحيى بن أبى كثير ثقة من صغار التابعين.

(٢) **صحيح**. رواه الترمذى [٢٦٣٩]، وابن ماجه [٤٣٠٠]، والحاكم (١ / ٦، ٥٢٩)، وابن حبان [٢٢٥]، من طريق الليث بن سعد، عن عامر بن يحيى، عن أبى عبد الرحمن المعافرى الحبلى، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله سيخلص رجلاً من أمتى على رؤوس الخلائق يوم القيامة**» - الحديث، وفيه: «**فتوضع السجلات فى كفة والبطاقة فى كفة**» - الحديث.

وإسناده صحيح رجاله ثقات رجال مسلم، وصححه الحاكم على شرط مسلم، ووافقه الذهبى، وحسنه البغوى فى «شرح السنة» (١٥ / ١٣٥).

طير صواف»[1].

وفى الصحيح: «**أن أعمال العباد تصعد إلى السماء**»[2] وسيأتى الكلام على البعث والنشور. إن شاء الله تعالى.

قوله: «**ما زال بصفاته قديما قبل خلقه، لم يزدد بكونهم شيئا لم يكن قبلهم من صفته، وكما كان بصفاته أزليا، كذلك لا يزال عليها أبديا**».

ش: ـ أى ـ أن الله سبحانه وتعالى لم يزل متصفا بصفات الكمال: صفات الذات وصفات الفعل. ولا يجوز أن يعتقد أن الله وصف بصفة بعد أن لم يكن متصفاً بها، لأن صفاته سبحانه صفات كمال، وفقدها صفة نقص، ولا يجوز أن يكون قد حصل له الكمال بعد أن كان متصفا بضده. ولا يرد على هذا صفات الفعل والصفات الاختيارية ونحوها، كالخلق والتصوير، والإحياء والإماتة، والقبض، والبسط، والطى، والاستواء والإتيان والمجىء، والنزول، والغضب الرضى،

(١) رواه مسلم [٨٠٤]، وأحمد (٥/٢٤٩)، وابن حبان [١١٦]، والحاكم (١/٥٦٤)، من حديث أبى أمامة الباهلى رضي الله عنه مرفوعاً بلفظ: «**اقرؤوا القرآن فإنه يجئ يوم القيامة شفيعاً، اقرؤوا الزهراوين: البقرة وآل عمران، فإنهما يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان، أو كأنهما غيايتان، أو كأنهما فرقان من طير صواف تحاجّان عن أصحابهما**» ـ الحديث.

(٢) ورد هذا المعنى فى أحاديث كثيرة:

* منها ما رواه البخارى [٧٤٣٠]، ومسلم [١٠١٤]، من حديث أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب ولا يصعد إلى الله إلا الطيب**» ـ الحديث.

* ومنها ما رواه أحمد (٤/٣٥٥)، من حديث عبيد الله بن إياد بن لقيط، عن إياد، عن عبد الله بن سعيد، عن عبد الله بن أبى أوفى رضي الله عنه قال: جاء رجل ونحن فى الصف خلف رسول الله ﷺ فدخل فى الصف فقال: الله أكبر كبيراً ـ الحديث. وفيه يقول رسول الله ﷺ: «**لقد رأيت كلامك يصعد فى السماء حتى فتح باب فدخل فيه**» وإسناده صحيح رجاله ثقات.

ونحوذلك مما وصف به نفسه ووصفه به رسوله، وإن كنا لا ندرك كنهه وحقيقته التى هى تأويله، ولا ندخل فى ذلك متأولين بآرائنا، ولا متوهمين بأهوائنا، ولكن أصل معناه معلوم لنا، كما قال الإمام مالك رضي الله عنه، لما سئل عن قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤]. كيف استوى؟ فقال: الاستواء معلوم، والكيف مجهول [١].

وإن كانت هذه الأحوال تحدث فى وقت دون وقت، كما فى حديث الشفاعة: «**إن ربى قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله**» [٢]؛ لأن هذا الحدوث بهذا الاعتبار غير ممتنع، ولا يطلق عليه أنه حدث بعد أن لم يكن ألا ترى أن من تكلم اليوم وكان متكلماً بالأمس لا يقال: أنه حدث له الكلام، ولوكان غير متكلم؛ لآفة كالصغر والخرس، ثم تكلم يقال: حدث له الكلام ، فالساكت لغير آفة يسمى متكلماً بالقوة بمعنى أنه يتكلم إذا شاء، وفى حال تكلمه يسمى متكلماً بالفعل، وكذلك الكاتب فى حال الكتابة هوكاتب بالفعل، ولا يخرج عن كونه كاتباً فى حال عدم مباشرته للكتابة.

وحلول الحوادث بالرب تعالى المنفى فى علم الكلام المذموم، لم

---

(١) ذكره اللالكائى فى «شرح أصول اعتقاد أهل السنة» [٦٦٤]، وأبو نعيم فى «الحلية» (٦/ ٣٢٥-٣٢٦)، والذهبى فى كتاب «العلو» (ص: ١٠٣-١٠٤)، والبيهقى فى «الأسماء والصفات (ص: ٤٠٨)، والصابونى فى «عقيدة السلف» (ص: ١١٠)، وغيرهم، عن الإمام مالك بن أنس ـ رحمه الله تعالى ـ.
وقد ورد معزواً إلى ربيعة بن أبى عبد الرحمن، كما ورد من قول أم سلمة رضي الله عنها.

(٢) رواه البخارى [٣٣٤٠]، ومسلم [١٩٤]، والترمذى [٢٤٣٤]، والنسائى فى «الكبرى» [١١٢٨٦]، وأحمد (٢/ ٤٣٥)، من حديث أبى هريرة رضي الله عنه.
وسيأتى ذكر تمامه (١/ ٢٣٠) فى باب الشفاعة

يرد نفيه ولا إثباته فى كتاب ولا سنة، وفيه إجمال: فإن أريد بالنفى أنه سبحانه لا يحل فى ذاته المقدسة شئ من مخلوقاته المحدثة، أولا يحدث له وصف متجدد لم يكن فهذا نفى صحيح. وإن أريد به نفى الصفات الاختيارية، من أنه لا يفعل ما يريد، ولا يتكلم بما شاء إذا شاء، ولا أنه يغضب ويرضى لا كأحد من الورى، ولا يوصف بما وصف به نفسه من النزول والاستواء والإتيان كما يليق بجلاله وعظمته ؛ فهذا نفى باطل.

وأهل الكلام المذموم يطلقون نفى حلول الحوادث فيسلم السنى للمتكلم ذلك على ظن أنه نفى عنه سبحانه ما لا يليق بجلاله، فإذا سلم له هذا النفى ألزمه نفى الصفات الاختيارية وصفات الفعل، وهو لازم له. وإنما أتى السنى من تسليم هذا النفى المجمل، وإلا فلواستفسر واستفصل لم ينقطع معه.

وكذا مسألة الصفة: هل هى زائدة على الذات أم لا؟ لفظها مجمل، وكذلك لفظ الغير فيه إجمال، فقد يراد به ما ليس هو إياه، وقد يراد به ما جاز مفارقته له.

ولهذا كان أئمة السنة رحمهم الله تعالى لا يطلقون على صفات الله وكلامه أنه غيره، ولا أنه ليس غيره. لأن إطلاق الإثبات قد يشعر أن ذلك مباين له، وإطلاق النفى قد يشعر بأنه هو هو، إذ كان لفظ الغير فيه إجمال، فلا يطلق إلا مع البيان والتفصيل: فإن أريد به أن هناك ذاتا مجردة قائمة بنفسها منفصلة عن الصفات الزائدة عليها فهذا غير صحيح، وإن أريد به أن الصفات زائدة على الذات التى يفهم من معناها غير ما يفهم من معنى الصفة فهذا حق، ولكن ليس فى الخارج ذات مجردة عن الصفات ؛ بل الذات الموصوفة بصفات الكمال

الثابتة لها لا تنفصل عنها، وإنما يفرض الذهن ذاتا وصفة، كلاً وحده، ولكن ليس فى الخارج ذات غير موصوفة، فإن هذا محال. ولولم يكن إلا صفة الوجود فإنها لا تنفك عن الموجود، وإن كان الذهن يفرض ذاتاً ووجوداً، يتصور هذا وحده، وهذا وحده لكن لا ينفك أحدهما عن الآخر فى الخارج.

وقد يقول بعضهم: الصفة لا عين الموصوف ولا غيره. وهذا له معنى صحيح، وهو: أن الصفة ليست عين ذات الموصوف التى يفرضها الذهن مجردة بل هى غيرها، وليست غير الموصوف، بل الموصوف بصفاته واحد غير متعدد.

والتحقيق أن يفرق بين قول القائل: الصفات غير الذات، وبين قوله: صفات الله غير الله، فإن الثانى باطل، لأن مسمى الله يدخل فيه صفاته بخلاف مسمى الذات، فإنه لا يدخل فيه الصفات، لأن المراد أن الصفات زائدة على ما أثبته المثبتون من الذات، والله تعالى هو الذات الموصوفة بصفاته اللازمة، ولهذا قال الشيخ -رحمه الله-: «لا زال بصفاته» ولم يقل: لا زال وصفاته، لأن العطف يؤذن بالمغايرة، وكذلك قال الإمام أحمد ﷺ فى مناظرته الجهمية، لا نقول: الله وعلمه، الله وقدرته، الله ونوره، ولكن نقول: الله بعلمه وقدرته ونوره هو إله واحد سبحانه وتعالى.

فإذا قلت : أعوذ بالله فقد عذت بالذات المقدسة الموصوفة بصفات الكمال المقدس الثابتة التى لا تقبل الانفصال بوجه من الوجوه.

وإذا قلت: أعوذ بعزة الله: فقد عذت بصفة من صفات الله تعالى،

ولم أعذ بغير الله.

وهذا المعنى يفهم من لفظ الذات، فإن ذات فى أصل معناها لا تستعمل إلا مضافة، أى: ذات وجود، ذات قدرة، ذات عز، ذات علم، ذات كرم، إلى غير ذلك من الصفات، فذات كذا بمعنى صاحبة كذا: تأنيث «ذو». هذا أصل معنى الكلمة.

فعلم أن الذات لا يتصور انفصال الصفات عنها بوجه من الوجوه، وإن كان الذهن قد يفرض ذاتاً مجردة عن الصفات، كما يفرض المحال. وقد قال ﷺ: «**أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر**» (١). وقال ﷺ: «**أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق**» (٢)، ولا يعوذ ﷺ بغير الله. وكذا قال: «**اللهم إنى أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك**» (٣). وقال ﷺ: «**ونعوذ بعظمتك أن نغتال من تحتنا**» (٤).

---

(١) رواه مسلم [٢٢٠٢]، وأبو داود [٣٨٩١]، والترمذى [٢٠٨٠]، والنسائى فى «الكبرى» [١٠٨٣٧]، وابن ماجه [٣٥٢٢]، وأحمد (٤ / ٢١)، وابن حبان [إحسان - ٢٩٦٤]، من حديث عثمان بن أبى العاص رضي الله عنه.

(٢) رواه مسلم [٢٧٠٨]، والترمذى [٣٤٣٧]، والنسائى فى «الكبرى» [١٠٣٩٤]، وابن ماجه [٣٥٤٧]، وأحمد (٦ / ٣٧٧)، من حديث خولة بنت حكيم رضي الله عنها.
ورواه مسلم [٢٧٠٩]، والنسائى فى «الكبرى» [١٠٤٢١]، وابن ماجه [٣٥١٨]، وأحمد (٢ / ٣٧٥)، من حديث أبى هريرة رضي الله عنه.

(٣) رواه مسلم [٤٨٦]، وأبو داود [٨٧٩]، والنسائى (١ / ٨٥، ٢ / ١٦٦)، وابن ماجه [٣٨٤١]، وأحمد (٦ / ٨، ٢٠١)، وابن خزيمة [٦٥٥، ٦٧١]، وابن حبان [إحسان - ٥٩٣٢]، والبيهقى (١ / ١٢٧)، من حديث أبى هريرة عن عائشة رضي الله عنهما.

(٤) **صحيح**. رواه أبو داود [٥٠٧٤]، والنسائى (٨ / ٢٤٩)، وابن ماجه [٣٨٧١]، وأحمد (٢ / ٢٥)، وابن حبان [٩٦١]، والحاكم (١ / ٥١٧)، من طريق عبادة بن مسلم عن جبير بن أبى سليمان بن جبير بن مطعم، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: لم يكن رسول الله ﷺ يدع هؤلاء الدعوات حين يمسى وحين يصبح: «**اللهم إنى أسألك العافية فى الدنيا والآخرة**» - الحديث، وآخره: «**وأعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتى**».
وإسناده صحيح، رجاله ثقات، وقال الحاكم: صحيح الإسناد ووافقه الذهبى، =

وقال ﷺ «أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات» (١).

وكذلك قولهم: الاسم عين المسمى أوغير ه؟ وطالما غلط كثير من الناس فى ذلك، وجهلوا الصواب فيه: فالاسم يراد به المسمى تارة ويراد به اللفظ الدال عليه أخرى، فإذا قلت: قال الله كذا، أوسمع الله لمن حمده، ونحوذلك ؛ فهذا المراد به المسمى نفسه، وإذا قلت : الله اسم عربى، والرحمن اسم عربى، والرحمن من أسماء الله تعالى ونحوذلك - فالاسم ها هنا للمسمى، ولا يقال غيره لما فى لفظ الغير من الإجمال: فإن أريد بالمغايرة أن اللفظ غير المعنى فحق، وإن أريد أن الله سبحانه كان ولا اسم له، حتى خلق لنفسه أسماء، أوحتى سماه خلقه بأسماء من صنعهم فهذا من أعظم الضلال والإلحاد فى أسماء الله تعالى.

والشيخ - رحمه الله - أشار بقوله: «ما زال بصفاته قديماً قبل خلقه» إلى آخر كلامه - إلى الرد على المعتزلة والجهمية ومن وافقهم من الشيعة. فإنهم قالوا: إنه تعالى صار قادراً على الفعل والكلام بعد أن لم يكن قادراً عليه، لكونه صار الفعل والكلام ممكناً بعد أن كان ممتنعاً، وأنه انقلب من الامتناع الذاتى إلى الإمكان الذاتى! وعَلَى ابن كلاب (٢) والأشعرى ومن وافقهما، فإنهم قالوا: إن الفعل صار ممكناً

= وصحح إسناده النووى فى «الأذكار» (ص: ٦٦)، وقال الحافظ فى «نتائج الأفكار» (٢/٣٦٢): هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث عبادة بهذا السند. اهـ.

(١) **إسناده ضعيف**. رواه الطبرانى فى «الدعاء» [١٠٣٦]، وابن عدى فى «الكامل» (٦/٢١٢٤)، من طريق محمد بن إسحق، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عبد الله ابن جعفر ﷺ به.

وإسناده ضعيف فيه محمد بن إسحق وهو صدوق يدلس وقد عنعن.

(٢) بضم الكاف وتشديد اللام، هو رأس المتكلمين بالبصرة فى زمانه، أبو محمد، عبد الله بن سعيد بن كلاب القطان البصرىّ. وكان يلقب كُلاباً لأنه كان يَجُر الخصم =

له بعد أن كان ممتعنا منه.

وأما الكلام عندهم فلا يدخل تحت المشيئة والقدرة، بل هوشئ واحد لازم لذاته.

وأصل هذا الكلام من الجهمية، فإنهم قالوا: إن دوام الحوادث ممتنع، وإنه يجب أن يكون للحوادث مبدأ ؛ لامتناع حوادث لا أول لها، فيمتنع أن يكون البارى عز وجل لم يزل فاعلاً متكلما بمشيئته، بل يمتنع أن يكون قادرا على ذلك ؛ لأن القدرة على الممتنع ممتنعة!.

وهذا فاسد؛ فإنه يدل على امتناع حدوث العالم وهوحادث، والحادث إذا حدث بعد أن لم يكن محدثاً فلا بد أن يكون ممكنا، والإمكان ليس له وقت محدود، وما من وقت يقدر إلا والإمكان ثابت فيه، وليس لإمكان الفعل وجوازه وصحته مبدأ ينتهى إليه، فيجب أنه لم يزل الفعل ممكنا جائزا صحيحا، فيلزم أنه لم يزل الرب قادرا عليه، فيلزم جواز حوادث لا نهاية لأولها.

قالت الجهمية ومن وافقهم: نحن لا نسلم أن إمكان الحوادث لا بداية له، لكن نقول: إمكان الحوادث بشرط كونها مسبوقة بالعدم لا بداية له ؛ وذلك لأن الحوادث عندنا تمتنع أن تكون قديمة النوع، بل يجب حدوث نوعها ويمتنع قدم نوعها، لكن لا يجب الحدوث فى وقت بعينه، فإمكان الحوادث بشرط كونها مسبوقة بالعدم لا أول له، بخلاف جنس الحوادث.

= إلى نفسه ببيانه وبلاغته. (سير أعلام النبلاء - ١١ / ١٧٤).

فيقال لهم: هب إنكم تقولون ذلك، لكن يقال: إمكان جنس الحوادث عندكم له بداية، فإنه صار جنس الحدوث عندكم ممكناً بعد أن لم يكن ممكناً، وليس لهذا الإمكان وقت معين، بل ما من وقت يفرض إلا والإمكان ثابت قبله، فيلزم دوام الإمكان، وإلا لزم انقلاب الجنس من الامتناع إلى الإمكان من غير حدوث شيء. ومعلوم أن انقلاب حقيقة جنس الحدوث أوجنس الحوادث، أوجنس الفعل، أوجنس الأحداث، أوما أشبه هذا من العبارات من الامتناع إلى الإمكان، وهو يصير ذلك ممكناً جائزاً بعد أن كان ممتنعاً من غير سبب تجدد، وهذا ممتنع فى صريح العقل.

وهوأيضا انقلاب الجنس من الامتناع الذاتى إلى الإمكان الذاتى، فإن ذات جنس الحوادث عندهم تصير ممكنة بعد أن كانت ممتنعة، وهذا الانقلاب لا يختص بوقت معين، فإنه ما من وقت يقدر إلا والإمكان ثابت قبله، فيلزم أنه لم يزل هذا الانقلاب ممكناً، فيلزم أنه لم يزل الممتنع ممكنا. وهذا أبلغ فى الامتناع من قولنا: لم يزل الحادث ممكناً، فقد لزمهم فيما فروا إليه أبلغ مما لزمهم فيما فروا منه. فإنه يعقل كون الحادث ممكناً، ويعقل أن هذا الإمكان لم يزل، وأما كون الممتنع ممكناً فهوممتنع فى نفسه، فكيف إذا قيل: لم يزل إمكان هذا الممتنع. وهذا مبسوط فى موضعه.

فالحاصل: أن نوع الحوادث هل يمكن دوامها فى المستقبل والماضى أم لا؟ أوفى المستقبل فقط؟ أوالماضى فقط؟

فيه ثلاثة أقوال معروفة لأهل النظر من المسلمين وغيرهم:

أضعفها: قول من يقول: لا يمكن دوامها لا فى الماضى ولا فى المستقبل كقول جهم بن صفوان وأبى الهذيل العلاف [1].

وثانيها قول من يقول: يمكن دوامها فى المستقبل دون الماضى، كقول كثير من أهل الكلام ومن وافقهم من الفقهاء وغيرهم.

والثالث: قول من يقول: يمكن دوامها فى الماضى والمستقبل، كما يقوله أئمة الحديث، هى من المسائل الكبار. ولم يقل أحد يمكن دوامها فى الماضى دون المستقبل.

ولا شك أن جمهور العالم من جميع الطوائف يقولون: إن كل ما سوى الله تعالى مخلوق كائن بعد أن لم يكن، وهذا قول الرسل وأتباعهم من المسلمين واليهود والنصارى وغيرهم.

ومن المعلوم بالفطرة أن كون المفعول مقارنا لفاعله لم يزل ولا يزال معه ممتنع محال، ولما كان تسلسل الحوادث فى المستقبل لا يمنع أن يكون الرب سبحانه هو الآخر الذى ليس بعده شىء، فكذا تسلسل الحوادث فى الماضى لا يمنع أن يكون سبحانه وتعالى هوالأول الذى ليس قبله شىء، فإن الرب سبحانه وتعالى لم يزل ولا يزال يفعل ما يشاء ويتكلم إذا يشاء. قال تعالى: ﴿**قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ**﴾ [آل عمران: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿**وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ**﴾ [البقرة: ٢٥٣]، وقال تعالى: ﴿**ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ * فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ**﴾ [البروج: ١٥-١٦]، وقال

---

(١) هو محمد بن الهذيل بن عبد الله بن مكحول العبدى، المعروف بالعلاف، المتكلم كان شيخ البصريين فى الاعتزال، ومن أكبر علمائهم. أنكر الصفات المقدسة حتى العلم والقدرة، ونقلت عنه أقوال شنيعة حكى الذهبى بعضها. توفى سنة (٢٢٧هـ). (سير أعلام النبلاء ١٠/ ٥٤٢ - الفهرست).

تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ ﴾ [لقمان: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴾ [الكهف: ١٠٩].

والمثبت إنما هوالكمال الممكن الوجود، وحينئذ فإذا كان النوع دائماً فالممكن والأكمل هوالتقدم على كل فرد من الأفراد بحيث لا يكون فى أجزاء العالم شئ يقارنه بوجه من الوجوه.

وأما دوام الفعل فهوأيضاً من الكمال، فإن الفعل إذا كان صفة كمال فدوامه دوام الكمال.

قالوا: والتسلسل لفظ مجمل، لم يرد بنفيه ولا إثباته كتاب ولا سنة؛ ليجب مراعاة لفظه، وهو ينقسم إلى واجب وممتنع وممكن.

وكالتسلسل فى المؤثرين محال ممتنع لذاته، وهوأن يكون مؤثرون كل واحد منهم استفاد تأثيره ممن قبله لا إلى غاية.

والتسلسل الواجب: ما دل عليه العقل والشرع، من دوام أفعال الرب تعالى فى الأبد، وأنه كلما انقضى لأهل الجنة نعيم أحدث لهم نعيماً آخر لا نفاد له.

وكذلك التسلسل فى أفعاله سبحانه من طرف الأزل، وأن كل فعل مسبوق بفعل آخر، فهذا واجب فى كلامه، فإنه لم يزل متكلماً إذا شاء، ولم تحدث له صفة الكلام فى وقت، وهكذا أفعاله التى هى من لوازم حياته، فإن كل حى فعال والفرق بين الحى والميت: الفعل؛ ولهذا قال غير واحد من السلف: الحى الفعَّال، وقال عثمان بن سعيد:

كل حى فعال، ولم يكن ربنا تعالى قط فى وقت من الأوقات معطلاً عن كماله: من الكلام والإرادة والفعل.

وأما التسلسل الممكن: فالتسلسل فى مفعولاته من هذا الطرف، كما تتسلسل فى طرف الأبد، فإنه إذا لم يزل حياً قادراً مريداً متكلماً، وذلك من لوازم ذاته؛ فالفعل ممكن له بوجوب هذه الصفات له، وأن يفعل أكمل من أن لا يفعل، ولا يلزم من هذا أنه لم يزل الخلق معه، فإنه سبحانه متقدم على كل فرد من مخلوقاته تقدماً لا أول له، فلكل مخلوق أول، والخالق سبحانه لا أول له، فهو وحده الخالق، وكل ما سواه مخلوق كائن بعد أن لم يكن.

قالوا: وكل قول سوى هذا فصريح العقل يرده ويقضى ببطلانه، وكل من اعترف بأن الرب تعالى لم يزل قادرا على الفعل لزمه أحد أمرين، لابد له منهما:

إما أن يقول بأن الفعل لم يزل ممكناً.

وإما أن يقول لم يزل واقعاً، وإلا تناقض تناقضاً بيناً؛ حيث زعم أن الرب تعالى لم يزل قادراً على الفعل، والفعل محال ممتنع لذاته، لوأراده لم يمكن وجوده، بل فرض إرادته عنده محال وهومقدور له. وهذا قول ينقض بعضه بعضاً.

والمقصود: أن الذى دل عليه الشرع والعقل أن كل ما سوى الله تعالى محدث كائن بعد أن لم يكن.

أما كون الرب تعالى لم يزل معطلا عن الفعل ثم فعل، فليس فى الشرع ولا فى العقل ما يثبته، بل كلاهما يدل على نقيضه.

وقد أورد أبوالمعالى [1] فى «إرشاده» وغيره من النظار على التسلسل فى الماضى، فقالوا: لأنك لوقلت: لا أعطيك درهماً إلا أعطيك بعده درهماً، كان هذا ممكناً، ولوقلت: لا أعطيك درهماً حتى أعطيك قبله درهماً، كان هذا ممتنعاً.

وهذا التمثيل والموازنة غير صحيحة، بل الموازنة الصحيحة أن تقول: ما أعطيتك درهماً إلا أعطيتك قبله درهماً، فتجعل ماضياً قبل ماض، كما جعلت هناك مستقبلاً بعد مستقبل. وأما قول القائل: لا أعطيك حتى أعطيك قبله، فهونفى للمستقبل حتى يحصل فى المستقبل ويكون قبله. فقد نفى المستقبل حتى يوجد المستقبل، وهذا ممتنع. أما نفيِ الماضى حتى يكون قبله ماض، فإن هذا ممكن. والعطاء المستقبل ابتداؤه من المعطى. والمستقبل الذى له ابتداء وانتهاء لا يكون قبله ما لا نهاية له، فإن مالا نهاية له فيما يتناهى ممتنع.

قوله: **«ليس منذ خلق الخلق استفاد اسم «الخالق» ولا بإحداثه البرية استفاد اسم «البارى»».**

ش: ظاهر كلام الشيخ ـ رحمه الله ـ أنه يمنع تسلسل الحوادث فى الماضى، ويأتى فى كلامه ما يدل على أنه لا يمنعه فى المستقبل، وهوقوله «والجنة والنار مخلوقتان لا تفنيان أبداً ولا تبيدان»، وهذا مذهب الجمهوركما تقدم. ولا شك فى فساد قول من منع ذلك فى الماضى والمستقبل، كما ذهب إليه الجهم وأتباعه، وقال بفناء الجنة

---

(١) هو الإمام الكبير، شيخ الشافعية، إمام الحرمين، عبد الملك بن الإمام أبى محمد عبد الله بن يوسف بن عبد الله بن يوسف بن محمد بن حَيّويه الجوينى. ولد سنة (٤١٩ هـ) (سير أعلام النبلاء ـ ١٨ / ٤٦٨).

والنار، لما يأتى من الأدلة إن شاء الله تعالى.

وأما قول من قال بجواز حوادث لا أول لها من القائلين بحوادث لا آخر لها فأظهر فى الصحة من قول من فرق بينهما، فإنه سبحانه لم يزل حياً، والفعل من لوازم الحياة، فلم يزل فاعلاً لما يريد، كما وصف بذلك نفسه، حيث يقول: ﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ * فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: ١٥ - ١٦].

والآية تدل على أمور:

أحدهما: أنه تعالى يفعل بإرادته ومشيئته.

الثانى: أنه لم يزل كذلك، لأنه ساق ذلك فى معرض المدح والثناء على نفسه، وأن ذلك من كماله سبحانه، ولا يجوز أن يكون عادماً لهذا الكمال فى وقت من الأوقات، وقد قال تعالى: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٧]. ولما كان من أوصاف كماله ونعوت جلاله لم يكن حادثاً بعد أن لم يكن.

الثالث: أنه إذا أراد شيئا فعله، فإن «ما» موصولة عامة، أى: يفعل كل ما يريد أن يفعله، وهذا فى إرادته المتعلقة بفعله، وأما إرادته المتعلقة بفعل العبد فتلك لها شأن آخر فإن أراد فعل العبد ولم يرد من نفسه أن يعينه عليه ويجعله فاعلاً لم يوجد الفعل وإن أراده حتى يريد من نفسه أن يجعله فاعلاً. وهذه هى النكتة التى خفيت على القدرية والجبرية، وخبطوا فى مسألة القدر؛ لغفلتهم عنها، وفرق بين إرادته أن يفعل العبد وإرادة أن يجعله فاعلاً، وسيأتى الكلام على مسألة القدر فى موضعه إن شاء الله تعالى.

الرابع: أن فعله وإرادته متلازمان، فما أراد أن يفعله فعله، وما فعله فقد أراده. بخلاف المخلوق، فإنه يريد ما لا يفعل، وقد يفعل مالا يريد. فما ثم فعال لما يريد إلا الله وحده.

الخامس: إثبات إرادات متعددة بحسب الأفعال، وأن كل فعل له إرادة تخصه، هذا هوالمعقول فى الفطر، فشأنه سبحانه أنه يريد على الدوام ويفعل ما يريد.

السادس: أن كل ما صح أن تتعلق به إرادته جاز فعله، فإذا أراد أن ينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا، وأن يجئ يوم القيامة لفصل القضاء، وأن يرى عباده نفسه، وأن يتجلى لهم كيف شاء، ويخاطبهم، ويضحك إليهم، وغير ذلك مما يريد سبحانه لم يمتنع عليه فعله، فإنه تعالى فعال لما يريد. وإنما تتوقف صحة ذلك على إخبار الصادق به، فإذا أخبر وجب التصديق، وكذلك محو ما يشاء، وإثبات ما يشاء، كل يوم هو فى شأن سبحانه وتعالى.

والقول بأن الحوادث لها أول، يلزم منه التعطيل قبل ذلك، وأن الله سبحانه وتعالى لم يزل غير فاعل ثم صار فاعلاً.

ولا يلزم من ذلك قدم العالم، لأن كل ما سوى الله تعالى محدث ممكن الوجود، موجود بإيجاد الله تعالى له، ليس له من نفسه إلا العدم، والفقر، والاحتياج وصف ذاتى لازم لكل ما سوى الله تعالى والله تعالى واجب الوجود لذاته غنى لذاته، والغنى وصف ذاتى لازم له سبحانه وتعالى.

وللناس قولان فى هذا العالم: هل هومخلوق من مادة أم لا؟

واختلفوا في أول هذا العالم ما هو؟ وقد قال تعالى: ﴿**وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ**﴾ [هود: ٧].

وروى البخارى وغيره عن عمران بن حصين رضي الله عنه، قال: «قال أهل اليمن لرسول الله ﷺ: جئناك لنتفقه فى الدين، ولنسألك عن أول هذا الأمر فقال: «**كان الله ولم يكن شئ قبله**» وفى رواية: «**ولم يكن شئ معه**»، وفى رواية «**غيره**»: «**وكان عرشه على الماء وكتب فى الذكر كل شىء، وخلق السموات والأرض**»، وفى لفظ: «**ثم خلق السموات والأرض**»[1] فقوله «**كتب فى الذكر**»، يعنى اللوح المحفوظ، كما قال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ**﴾ [الأنبياء: ١٠٥] سمى ما يكتب فى الذكر ذكرا، كما يسمى ما يكتب فى الكتاب كتاباً.

والناس في هذا الحديث على قولين: منهم من قال: إن المقصود إخباره بأن الله كان موجوداً وحده ولم يزل كذلك دائماً، ثم ابتدأ إحداث جميع الحوادث، فجنسها وأعيانها مسبوقة بالعدم، وأن جنس الزمان حادث لا فى زمان، وأن الله صار فاعلاً بعد أن لم يكن يفعل شيئاً من الأزل إلى حين ابتداء الفعل ولا كان الفعل ممكناً.

والقول الثانى: المراد إخباره عن مبدأ خلق هذا العالم المشهود الذى خلقه الله فى ستة أيام ثم استوى على العرش كما أخبر القرآن بذلك

---

(١) رواه البخارى [٧٤١٨]، وابن حبان [٦١٤٢]، بلفظ: «**كان الله ولم يكن شئ قبله**».
ورواه أحمد (٤ / ٤٣١) بلفظ: «**كان الله تبارك وتعالى قبل كل شئ**».
وأما لفظ: «**غيره**» فقد رواه البخارى [٣١٩١]، والنسائى فى «الكبرى» [١١٢٤٠]، وابن حبان [٦١٤٠]، وأما لفظ: «**ولم يكن شئ معه**» فلم أعثر عليه.

فى غير موضع، وفى «صحيح مسلم» عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبى ﷺ أنه قال: «**قدر الله تعالى مقادير الخلق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء**» [1] فأخبر ﷺ: أن تقدير هذا العالم المخلوق فى ستة أيام كان قبل خلقه بخمسين ألف سنة، وأن عرش الرب تعالى كان حينئذ على الماء.

دليل صحة هذا القول الثانى من وجوه:

أحدها: أن قول أهل اليمن «جئناك لنسألك عن أول هذا الأمر» وهو إشارة إلى حاضر مشهود موجود، والأمر هنا بمعنى المأمور أى الذى كونه الله بأمره، وقد أجابهم النبى ﷺ عن بدء هذا العالم الموجود، لا عن جنس المخلوقات؛ لأنهم لم يسألوه عنه، وقد أخبرهم عن خلق السموات والأرض حال كون عرشه على الماء، لم يخبرهم عن خلق العرش، وهومخلوق قبل خلق السموات والأرض.

وأيضاً فإنه قال: «**كان الله ولم يكن شئ قبله**» وقد روى «**معه**»، وروى «**غيره**» والمجلس كان واحداً، فعلم أنه قال أحد الألفاظ والآخران رويا بالمعنى، ولفظ «**القبل**» ثبت عنه فى غير هذا الحديث. ففى حديث مسلم عن أبى هريرة رضي الله عنه عن النبى ﷺ: أنه كان يقول فى دعائه: «**اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء**» [2]- الحديث. واللفظان الآخران لم يثبت واحد منهما فى موضع آخر؛ ولهذا كان كثير من أهل الحديث

---

(١) رواه مسلم [٢٦٥٣]، بلفظ: «**كتب الله تعالى**».
ورواه الترمذى [٢١٥٦]، وأحمد (٢/١٦٩)، وابن حبان [إحسان - ٦١٣٨]، بدون لفظ: «**وكان عرشه على الماء**».
(٢) سبق تخريجه (١/٦١).

إنما يرويه بلفظ القبل، كالحميدى والبغوى وابن الأثير. وإذا كان كذلك لم يكن فى هذا اللفظ تعرض لابتداء الحوادث، ولا لأول مخلوق.

وأيضاً: فإنه قال: «كان الله ولم يكن شئ قبله شيء» أو«معه» أو«غيره» «وكان عرشه على الماء وكتب فى الذكر كل شيء» فأخبر عن هذه الثلاثة بالواو، و«خلق السموات والأرض» روى بالواو وبثم؛ فظهر أن مقصوده إخباره إياهم ببدء خلق السموات والأرض وما بينهما، وهى المخلوقات التى خلقت فى ستة أيام، لا ابتداء خلق ما خلقه الله قبل ذلك، وذكر السموات والأرض بما يدل على خلقهما، وذكر ما قبلهما بما يدل على كونه ووجوده، ولم يتعرض لابتداء خلقه له.

وأيضاً: فإنه إذا كان الحديث قد ورد بهذا وهذا، فلا يجزم بأحدهما إلا بدليل، فإذا رجح أحدهما فمن جزم بأن الرسول أراد المعنى الآخر فهومخطئ قطعاً، ولم يأت فى الكتاب ولا فى السنة ما يدل على المعنى الآخر، فلا يجوز إثباته بما يظن أنه معنى الحديث، ولم يرد: «كان الله ولا شئ معه» مجرداً وإنما ورد على السياق المذكور، فلا يظن أن معناه الإخبار بتعطيل الرب تعالى دائماً عن الفعل حتى خلق السموات والأرض.

وأيضاً: فقوله ﷺ: «**كان الله ولا شئ قبله، أومعه، أوغيره، وكان عرشه على الماء**»، لا يصح أن يكون المعنى أنه تعالى موجود وحده لا مخلوق معه أصلاً؛ لأن قوله: «**وكان عرشه على الماء**» . يرد ذلك، فإن هذه الجملة وهى: «**وكان عرشه على الماء**» إما حالية، أومعطوفة، وعلى كلا التقديرين

فهومخلوق موجود في ذلك الوقت، فعلم أن المراد ولم يكن شئ من هذا العالم المشهود.

قوله: «**له معنى الربوبية ولا مربوب، ومعنى الخالق ولا مخلوق**».

ش: يعنى أن الله تعالى موصوف بأنه «الرب» قبل أن يوجد مربوب، وموصوف بأنه «خالق» قبل أن يوجد مخلوق.

قال بعض المشايخ الشارحين: وإنما قال: «له معنى الربوبية ومعنى الخالق» دون الخالقية؛ لأن الخالق هوالمخرج للشئ من العدم إلى الوجود لا غير، والرب يقتضى معانى كثيرة، وهى: الملك والحفظ والتدبير والتربية وهى تبليغ الشئ كماله بالتدريج، فلا جرم أتى بلفظ يشمل هذه المعانى وهى الربوبية. انتهى.

وفيه نظر؛ لأن الخلق يكون بمعنى التقدير أيضاً.

قوله: «**وكما أنه محيى الموتى بعد ما أحيا؛ استحق هذا الاسم قبل إحيائهم، كذلك استحق اسم الخالق قبل إنشائهم**».

ش: يعنى: أنه سبحانه وتعالى موصوف بأنه محيى الموتى قبل إحيائهم، فكذلك يوصف بأنه خالق قبل خلقهم إلزاماً للمعتزلة ومن قال بقولهم كما حكينا عنهم فيما تقدم. وتقدم تقرير أنه تعالى لم يزل يفعل ما يشاء.

قوله: «**ذلك بأنه على كل شئ قدير، وكل شئ إليه فقير، وكل أمر عليه يسير، لا يحتاج إلى شىء، ليس كمثله شىء، وهوالسميع البصير**».

ش: ذلك إشارة إلى ثبوت صفاته فى الأزل قبل خلقه. والكلام على كل وشمولها وشمول «كل» فى كل مقام بحسب ما يحتف به

من القرائن، يأتى فى مسألة الكلام إن شاء الله تعالى.

وقد حرفت المعتزلة المعنى المفهوم من قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٨٤]، فقالوا: إنه قادر على كل ما هومقدور له، وأما نفس أفعال العباد فلا يقدر عليها عندهم، وتنازعوا: هل يقدر على مثلها أم لا؟. ولوكان المعنى على ما قالوا لكان هذا بمنزلة أن يقال: هوعالم بكل ما يعلمه وخالق لكل ما يخلقه ونحوذلك من العبارات التى لا فائدة فيها. فسلبوا صفة كمال قدرته على كل شيء.

وأما أهل السنة، فعندهم أن الله على كل شئ قدير، وكل ممكن فهومندرج فى هذا. وأما المحال لذاته، مثل كون الشئ الواحد موجوداً معدوماً فى حال واحدة، فهذا لا حقيقة له، ولا يتصور وجوده، ولا يسمى شيئا، باتفاق العقلاء. ومن هذا الباب: خلق مثل نفسه وإعدام نفسه وأمثال ذلك من المحال.

وهذا الأصل هوالإيمان بربوبيته العامة التامة، فإنه لا يؤمن بأنه رب كل شئ إلا من آمن أنه قادر على تلك الأشياء، ولا يؤمن بتمام ربوبيته وكمالها إلا من آمن بأنه على كل شئ قدير.

وإنما تنازعوا فى المعدوم الممكن: هل هوشئ أم لا؟ والتحقيق: أن المعدوم ليس بشئ فى الخارج، ولكن الله يعلم ما يكون قبل أن يكون، ويكتبه، وقد يذكره ويخبر به، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج: ١]، فيكون شيئا فى العلم والذكر والكتاب، لا فى الخارج، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، قال تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ [مريم:

٩]، أى لم تكن شيئا فى الخارج وإن كان شيئاً فى علمه تعالى. وقال تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان: ١].

وقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] رد على المشبهة. وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، رد على المعطلة، فهوسبحانه وتعالى موصوف بصفات الكمال، وليس له فيها شبيه. فالمخلوق وإن كان يوصف بأنه سميع بصير فليس سمعه وبصره كسمع الرب وبصره، ولا يلزم من إثبات الصفة تشبيه، إذ صفات المخلوق كما يليق به، وصفات الخالق كما يليق به.

ولا تنف «عن الله ما وصف به نفسه وما وصفه به أعرف الخلق بربه وما يجب له وما يمتنع عليه، وأنصحهم لأمته، وأفصحهم، وأقدرهم على البيان. فإنك إن نفيت شيئاً من ذلك كنت كافراً بما أنزل على محمد ﷺ.

وإذا وصفته بما وصف به نفسه فلا تشبهه بخلقه فليس كمثله شىء، فإذا شبهته بخلقه كنت كافرا به. قال نعيم بن حماد الخزاعى شيخ البخارى: من شبه الله بخلقه فقد كفر ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر، وليس ما وصف الله به نفسه ولا ما وصفه به رسوله تشبيها. وسيأتى فى كلام الشيخ الطحاوى - رحمه الله - «ومن لم يتوق النفى والتشبيه زل ولم يصب التنزيه».

وقد وصف الله تعالى نفسه بأن له المثل الأعلى، فقال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَى﴾ [النحل: ٦٠]، وقال

تعالى: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الروم: ٢٧]. فجعل سبحانه مثل السوء المتضمن للعيوب والنقائص وسلب الكمال لأعدائه المشركين وأوثانهم، وأخبر أن المثل الأعلى المتضمن لإثبات الكمال كله لله وحده. فمن سلب صفات الكمال عن الله تعالى فقد جعل له مثل السوء، ونفى عنه ما وصف به نفسه من المثل الأعلى، وهوالكمال المطلق المتضمن للأمور الوجودية، والمعانى الثبوتية التى كلما كانت أكثر فى الموصوف وأكمل كان بها أكمل وأعلى من غيره.

ولما كانت صفات الرب سبحانه وتعالى أكثر وأكمل؛ كان له المثل الأعلى وكان أحق به من كل ما سواه، بل يستحيل أن يشترك فى المثل الأعلى المطلق اثنان؛ لأنهما إن تكافآ من كل وجه، لم يكن أحدهما أعلى من الآخر، وإن لم يتكافآ فالموصوف به أحدهما وحده، فيستحيل أن يكون لمن له المثل الأعلى مثل أونظير.

واختلفت عبارات المفسرين فى المثل الأعلى. ووفق بين أقوالهم بعض من وفقه الله وهداه، فقال: المثل الأعلى يتضمن: الصفة العليا، وعلم العالمين بها، ووجودها العلمى، والخبر عنها وذكرها، وعبادة الرب تعالى بواسطة العلم والمعرفة القائمة بقلوب عابديه وذاكريه.

فها هنا أمور أربعة:

الأول: ثبوت الصفات العليا لله سبحانه وتعالى سواء علمها العباد أولا، وهذا معنى قول من فسرها بالصفة.

الثانى: وجودها فى العلم والشعور، وهذا معنى قول من قال من

السلف والخلف: إنه ما فى قلوب عابديه وذاكريه، من معرفته وذكره، ومحبته وإجلاله، وتعظيمه، وخوفه ورجائه، والتوكل عليه، والإنابة اليه. وهذا الذى فى قلوبهم من المثل الأعلى لا يشركه فيه غيره أصلاً، بل يختص به فى قلوبهم، كما اختص به فى ذاته. وهذا معنى قول من قال من المفسرين: إن معناه: أهل السموات يعظمونه، ويحبونه، ويعبدونه، وأهل الأرض كذلك، وإن أشرك به من أشرك، وعصاه من عصاه، وجحد صفاته من جحدها، فأهل الأرض معظمون له، مجلون، خاضعون لعظمته، مستكينون لعزته وجبروته. قال تعالى: ﴿ **وَلَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ** ﴾ [الروم: ٢٦].

الثالث: ذكر صفاته والخبر عنها وتنزيهها من العيوب والنقائص والتمثيل.

الرابع: محبة الموصوف بها وتوحيده، والإخلاص له، والتوكل عليه، والإنابة إليه. وكلما كان الإيمان بالصفات أكمل كان هذا الحب والإخلاص أقوى.

فعبارات السلف كلها تدور على هذه المعانى الأربعة.

فمن أضل ممن يعارض بين قوله تعالى: ﴿ **وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَى** ﴾ [الروم: ٢٧] وبين قوله: ﴿ **لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ** ﴾ [الشورى: ١١]؟ ويستدل بقوله: ﴿ **لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ** ﴾ على نفى الصفات ويعمى عن تمام الآية وهوقوله: ﴿ **وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ** ﴾ [الشرى: ١١] حتى أفضى هذا الضلال ببعضهم، وهوأحمد بن أبى دواد القاضى، إلى أن أشار على الخليفة المأمون أن يكتب على ستر الكعبة: ليس كمثله شئ وهوالعزيز الحكيم، حرف

كلام الله لينفى وصفه تعالى بأنه السميع البصير كما قال الضال الآخر، جهم بن صفوان: وددت أنى أحك من المصحف قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤] فنسأل الله العظيم السميع البصير أن يثبتنا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة، بمنه وكرمه.

وفى إعراب «كمثله» وجوه:

أحدها: أن الكاف صلة زيدت للتأكيد، قال أوس بن حجر:

ليس كمثل الفتى زهير خلق يوازيه فى الفضائل

وقال آخر:

ما إن كمثلهمُ فى الناس من بشر (١)

وقال آخر:

وقتلى كمثل جذوع النخيل (٢)

فيكون «مثله» خبر «ليس» واسمها «شىء». وهذا وجه قوى حسن، تعرف العرب معناه فى لغتها، ولا يخفى عنها إذا خوطبت به، وقد جاء عن العرب أيضاً زيادة الكاف للتأكيد فى قول بعضهم:

وصَالياتٍ كَكَمَا يُؤثفَيْنْ (٣)

---

(١) تمام البيت كما فى «البحر المحيط» لابن حبان (٧/ ٥١٠):
سعدُ بن زيد إذا أبصرت فضلهمُ ما إنَّ كملثهمُ فى الناس من بشرِ
(٢) تمام البيت كما فى «البحر المحيط (٧/ ٥١٠):
وقتلى كمثل جذوع النخيـ ـل تغشاهم مسبل منهمر
(٣) قائله هو: خطام بن نصر المجاشعى كما فى «لسان العرب»، و«الصحاح» للجوهرى.
وصاليات: أراد بها الأثافى، وهى الحجارة التى ينصب عليها القدر.

وقول الآخر:

فأصبحت مثل كعصف مأكول [1]

الوجه الثاني: أن الزائد مثل، أي: ليس كهوشئ. وهذا القول بعيد؛ لأن مثل: اسم، والقول بزيادة الحرف للتأكيد أولى من القول بزيادة الاسم.

الثالث: أنه ليس ثم زيادة أصلاً، بل هذا من باب قولهم: مثلك لا يفعل كذا، أي: أنت لا تفعله، وأتى بمثل للمبالغة، وقالوا في معنى المبالغة هنا: أي: ليس كمثله مثل لوفرض المثل فكيف ولا مثل له. وقيل غير ذلك، والأول أظهر.

قوله: «**خلق الخلق بعلمه**».

ش: خلق: أي: أوجد وأنشأ وأبدع. ويأتي خلق أيضاً بمعنى: قدر. والخلق: مصدر وهوهنا بمعنى المخلوق. وقوله: «بعلمه» في محل نصب على الحال، أي: خلقهم عالماً بهم، قال تعالى: ﴿**أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ**﴾ [الملك: ١٤]. وقال تعالى: ﴿**وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ * وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ**﴾ [الأنعام: ٥٩-٦٠] وفي ذلك رد على المعتزلة.

قال الإمام عبد العزيز المكي [2] صاحب الإمام الشافعي - رحمه الله

---

(١) قائله هو: رؤبة بن العجاج كما في «سيرة بن هشام» (١/٥٥)، والبيت بتمامه:

ترميهم حجارةً من سجيلْ فصُيِّروا مثل كعصفٍ مأكولْ

(٢) هو عبد العزيز بن يحيى بن عبد العزيز بن مسلم الكناني المكي، كان يلقَّب بالغول =

ـ وجليسه، فى كتاب «الحيدة»، الذى حكى فيه مناظرته بشراً المريسى عند المأمون حين سأله عن علمه تعالى: فقال بشر: أقول: لا يجهل، فجعل يكرر السؤال عن صفة العلم، تقريراً له، وبشر يقول: لا يجهل، ولا يعترف له أنه عالم بعلم، فقال الإمام عبد العزيز: نفى الجهل لا يكون صفة مدح، فإن قولى: هذه الإسطوانة لا تجهل ليس هو إثبات العلم لها، وقد مدح الله تعالى الأنبياء والملائكة والمؤمنين بالعلم، لا بنفى الجهل. فمن أثبت العلم فقد نفى الجهل، ومن نفى الجهل لم يثبت العلم، وعلى الخلق أن يثبتوا ما أثبته الله تعالى لنفسه وينفوا ما نفاه ويمسكوا عما أمسك عنه.

والدليل العقلى على علمه تعالى: أنه يستحيل إيجاده الأشياء مع الجهل، ولأن إيجاده الأشياء بإرادته، والإرادة تستلزم تصور المراد، وتصور المراد: هوالعلم بالمراد، فكان الإيجاد مستلزما للإرادة والإرادة مستلزمة للعلم، فالإيجاد مستلزم للعلم، ولأن المخلوقات فيها من الإحكام والإتقان ما يستلزم علم الفاعل لها؛ لأن الفعل المحكم المتقن يمتنع صدوره عن غير عالم، ولأن من المخلوقات ما هوعالم، والعلم صفة كمال، ويمتنع أن لا يكون الخالق عالماً. وهذا له طريقان:

أحدهما: أن يقال: نحن نعلم بالضرورة أن الخالق أكمل من المخلوق، وأن الواجب أكمل من الممكن، ونعلم ضرورة أنا لوفرضنا شيئين، أحدهما عالم والآخر غير عالم كان العالم أكمل، فلولم يكن

= لدمامة منظره، وهو الفقيه صاحب كتاب «الحيدة». جرت بينه وبين بشر المريسى مناظرات فى القرآن. وهو أحد أتباع الشافعى، وقد طالت صحبته له، توفى فى حدود سنة (٢٤٠ هـ) (الوافى ـ ١٨ / ٥٦٥).

الخالق عالماً لزم أن يكون الممكن أكمل منه، وهوممتنع.

الثاني: أن يقال: كل علم في الممكنات، التي هي المخلوقات فهومنه، ومن الممتنع أن يكون فاعل الكمال ومبدعه عارياً منه بل هوأحق به. والله تعالى له المثل الأعلى لا يستوي هوو المخلوقات، لا في قياس تمثيلي، ولا في قياس شمولي، بل كل ما ثبت للمخلوق من كمال فالخالق به أحق، وكل نقص تنزه عنه مخلوق ما فتنزيه الخالق عنه أولى.

قوله: «**وقدر لهم أقدارا**».

ش: قال تعالى: ﴿**وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً**﴾ [الفرقان: ٢]، وقال تعالى: ﴿**إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ**﴾ [القمر: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿**وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَراً مَّقْدُوراً**﴾ [الأحزاب: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿**الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ**﴾ [الأعلى: ٢-٣]. وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: «**قدر الله مقادير الخلق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء**»(١).

قوله: «**وضرب لهم آجالا**».

ش: يعني: أن الله سبحانه وتعالى قدر آجال الخلائق بحيث إذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون. قال تعالى: ﴿**إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ**﴾ [يونس: ٤٩]. وقال تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَاباً مُّؤَجَّلاً**﴾ [آل عمران: ١٤٥]. وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «قالت أم حبيبة رضي الله عنها زوج

(١) سبق تخريجه (١/٩٣).

النبى ﷺ : اللهم أمتعنى بزوجى رسول الله، وبأبى أبى سفيان وبأخى معاوية، قال: فقال النبى ﷺ : «**قد سألت الله لآجال مضروبة، وأيام معدودة، وأرزاق مقسومة، لن يعجل شيئاً قبل حله، ولن يؤخر شيئاً عن حله، ولو كنت سألت الله أن يعيذك من عذاب فى النار وعذاب فى القبر كان خيراً وأفضل**»[١] .

فالمقتول ميت بأجله، فعلم الله تعالى وقدر وقضى أن هذا يموت بسبب المرض، وهذا بسبب القتل، وهذا بسبب الهدم، وهذا بسبب الحرق، وهذا بالغرق، إلى غير ذلك من الأسباب . والله سبحانه خلق الموت والحياة، وخلق سبب الموت والحياة، وعند المعتزلة: المقتول مقطوع عليه أجله، ولولم يقتل لعاش إلى أجله فكأن له أجلان وهذا باطل؛ لأنه لا يليق أن ينسب إلى الله تعالى أنه جعل له أجلا يعلم أنه لا يعيش إليه البتة، أويجعل أجله أحد الأمرين، كفعل الجاهل بالعواقب، ووجوب القصاص والضمان على القاتل؛ لارتكابه المنهى عنه ومباشرته السبب المحظور. وعلى هذا يخرج قوله ﷺ : «**صلة الرحم تزيد فى العمر**» [٢] أى: سبب طول العمر. وقد قدر الله أن هذا يصل رحمه فيعيش بهذا السبب إلى هذه الغاية، ولولا ذلك السبب لم يصل إلى هذه الغاية، ولكن قدر هذا السبب وقضاه، وكذلك قدر أن هذا يقطع رحمه فيعيش إلى كذا، كما قلنا فى القتل وعدمه .

---

(١) رواه مسلم [٢٦٦٣]، والنسائى فى«الكبرى» [١٠٠٩٤]، وأحمد (١/ ٣٩٠، ٤١٣)، وابن حبان [إحسان - ٢٩٦٩].

(٢) **صحيح**. رواه القضاعى فى «مسند الشهاب» [١٠٠]، من طريق عاصم بن عمرو البجلى، عن عاصم بن بهدلة، عن أبى وائل، عن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً به .
وإسناده حسن، رجاله ثقات سوى عاصم بن عمرو البجلى فإنه صدوق كما قال أبو حاتم فى «الجرح والتعديل» لابن أبى حاتم، والحافظ فى «التقريب» .
ورواه الطبرانى فى «الكبير» [٨٠١٤]، من طريق حفص بن سليمان، عن يزيد بن =

فإن قيل: هل يلزم من تأثير صلة الرحم فى زيادة العمر ونقصانه تأثير الدعاء فى ذلك أم لا؟

فالجواب: أن ذلك غير لازم؛ لقوله ﷺ لأم حبيبة ﵂: «**قد سألت الله تعالى لآجال مضروبة**» (١) الحديث، كما تقدم.

فعلم أن الأعمار مقدرة لم يشرع الدعاء بتغيرها بخلاف النجاة من عذاب الآخرة. فإن الدعاء مشروع له نافع فيه ألا ترى أن الدعاء بتغيير العمر لما تضمن النفع الأخروى شرع كما فى الدعاء الذى رواه النسائى من حديث عمار ابن ياسر عن النبى ﷺ أنه قال: «**اللهم بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق أحينى ما كانت الحياة خيرا لى، وتوفنى إذا كانت الوفاة خيراً لى**» (٢) إلى آخر الدعاء .

ويؤيد هذا ما رواه الحاكم فى صحيحه من حديث ثوبان ﵁ عن النبى ﷺ: «**لا يرد القدر إلا الدعاء، ولا يزيد فى العمر إلا إلبر، وإن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه**» (٣).

= عبد الرحمن عن أبيه، عن أبى أمامة ﵁ مرفوعاً بلفظ: «**صنائع المعروف تقى مصارع السوء، وصدقة السر تطفئ غضب الرب، وصلة الرحم تزيد فى العمر**». وإسناده ضعيف، فيه حفص بن سليمان، وهو متروك مع إمامته فى القراءة كما فى «التقريب».
ورواه الطبرانى فى «الأوسط» [٩٤٧]، والقضاعى فى «مسند الشهاب» [١٠٢]، من حديث بهز بن حكيم، عن أبيه، عن جده بنحو حديث أبى أمامة ﵁.
ويشهد له ما رواه البخارى [٥٩٨٦]، ومسلم [٢٥٧]، من حديث أنس بن مالك ﵁ أن رسول الله ﷺ قال: «من أحب أن يبسط له فى رزقه وينسأ له فى أثره فليصل رحمه».
والحديث صحيح بمجموع طرقه وشواهده.

(١) سبق تخريجه قبل هذا بحديثين.

(٢) سبق تخريجه (١/ ٤٨).

(٣) **حسن**. رواه ابن ماجه [٤٠٢٢]، وأحمد (٥/ ٢٧٧، ٢٨٢)، وابن حبان [٨٧٢]، =

وفي الحديث رد على من يظن أن النذر سبب في دفع البلاء وحصول النعماء، وقد ثبت في الصحيحين عن النبيّ ﷺ: أنه نَهى عن النذر وقال: «**إنه لا يأتي بخير وإنّما يُستخرج به من البخيل**» [1].

واعلم أن الدعاء يكون مشروعاً نافعاً في بعض الأشياء دون بعض، وكذلك هو؛ ولهذا لا يُجيب الله المعتدين في الدعاء. وكان الإمام أحْمد رحِمه الله يكره أن يدعى له بطول العمر، ويقول: هذا أمر قد فرغ منه.

وأما قوله تعالَى: ﴿**وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلاَ يُنقَصَ مِنْ عُمُرِهِ إلاَّ فِي كِتَابٍ**﴾ [فاطر: ١١]، فقد قيل في الضمير المذكور في قوله تعالَى: ﴿**مِنْ عُمُرِهِ**﴾ أنه بِمنْزلة قولِهم: عندي درهم ونصفه أي: ونصف درهم آخر، فيكون المعنَى: ولا ينقص من عمر معمر آخر.

وقيل: الزيادة والنقصان في الصحف الَّتي في أيدي الملائكة، وحُمل قوله تعالَى: ﴿ **لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ * يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ**﴾

= والحاكم (١ / ٤٩٣)، من طريق عبد الله بن عيسى، عن عبد الله بن أبى الجعد، عن ثوبان ﷺ به.
وإسناده حسن رجاله ثقات، وعبد الله بن أبى الجعد وثقه ابن حبان، وقال الذهبى فى «الميزان»: وثق، وقال الحافظ فى «التقريب»: مقبول. والحديث حسنه الحافظ العراقى، والبوصيرى كما فى زوائد ابن ماجه [٣٤، ١٤١٦].
ويشهد له ما رواه الترمذى [٢١٣٩]، والطبرانى فى «الكبير» [٦١٢٨]، من طريق أبى مودود، عن سليمان التيمى، عن أبى عثمان النهدى، عن سليمان ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يرد القضاء إلا الدعاء، ولا يزيد فى العمر إلا البر**». ورجاله ثقات سوى أبى مودود فضة البصرى فإن فيه لين كما فى «التقريب». وقال الترمذى: حديث حسن غريب.

(١) رواه البخارى [٦٦٩٣]، ومسلم [١٦٣٩]، وأبو داود [٣٢٨٧]، والنسائى (٧ / ١٥)، وابن ماجه [٢١٢٢]، وأحمد (٢ / ٦١، ٨٦)، من حديث ابن عمر ﷺ.

الْكِتَابِ ﴾ [الرعد: ٣٨ - ٣٩]، على أن المحو والإثبات من الصحف التى فى أيدى الملائكة، وأن قوله: ﴿ **وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ** ﴾. اللوح المحفوظ، ويدل على هذا الوجه سياق الآية، وهوقوله: ﴿ **لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ** ﴾، ثم قال: ﴿ **يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ** ﴾ أى: من ذلك الكتاب، ﴿ **وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ** ﴾ أى: أصله ، وهواللوح المحفوظ.

وقيل: يمحو الله ما يشاء من الشرائع وينسخه ويثبت ما يشاء فلا ينسخه، والسياق أدل على هذا الوجه من الوجه الأول، وهوقوله تعالى: ﴿ **وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ** ﴾ [الرعد: ٣٧]. فأخبر تعالى أن الرسول لا يأتى بالآيات من قبل نفسه، بل من عند الله، ثم قال: ﴿ **لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ * يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ** ﴾ [الرعد: ٣٨ - ٣٩] أى: أن الشرائع لها أجل وغاية تنتهى إليها، ثم تنسخ بالشريعة الأخرى، فينسخ الله ما يشاء من الشرائع عند انقضاء الأجل، ويثبت ما يشاء.

وفى الآية أقوال أخرى ، والله أعلم بالصواب.

قوله: «**ولم يخف عليه شئ قبل أن يخلقهم، وعلم ما هم عاملون قبل أن يخلقهم**».

ش: يعلم سبحانه ما كان، وما يكون ومالم يكن أن لوكان كيف يكون، كما قال تعالى: ﴿ **وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ** ﴾ [الأنعام: ٢٨]. وإن كان يعلم أنهم لا يردون، ولكن أخبر أنهم لوردوا لعادوا، كما قال تعالى: ﴿ **وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُم مُّعْرِضُونَ** ﴾ [الأنفال: ٢٣]. وفى ذلك رد على الرافضة والقدرية، الذين

قالوا: إنه لا يعلم الشئ قبل أن يخلقه ويوجده. وهى من فروع مسألة القدر، وسيأتى لها زيادة بيان، إن شاء الله تعالى.

قوله: «**وأمرهم بطاعته، ونهاهم عن معصيته**».

ش: ذكر الشيخ - رحمه الله - الأمر والنهى، بعد ذكره الخلق والقدر، إشارة إلى أن الله تعالى خلق الخلق لعبادته، كما قال تعالى: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ**﴾ [الذاريات: ٥٦]، وقال تعالى: ﴿**الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً**﴾ [الملك: ٢].

قوله: «**وكل شئ يجرى بتقديره ومشيئته، ومشيئته تنفذ، لا مشيئة للعباد، إلا ما شاء لهم، فما شاء لهم كان، وما لم يشأ لم يكن**».

ش: قال تعالى: ﴿**وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا**﴾ [الإنسان: ٣٠]. وقال: ﴿**وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ**﴾ [التكوير: ٢٩]. وقال تعالى: ﴿**وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ**﴾ [الأنعام: ١١١]. وقال تعالى: ﴿**وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ**﴾ [الأنعام: ١١٢]. وقال تعالى: ﴿**وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا**﴾ [يونس: ٩٩]. وقال تعالى: ﴿**فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ**﴾ [الأنعام: ١٢٥]. وقال تعالى حكاية عن نوح ﷺ إذ قال لقومه: ﴿**وَلا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ**﴾ [هود: ٣٤]. وقال تعالى: ﴿**مَن يَشَأِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾ [الأنعام: ٣٩]. إلى غير ذلك من الأدلة على أنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن وكيف يكون فى ملكه ما لا يشاء.

ومن أضل سبيلاً وأكفر ممن يزعم أن الله شاء الإيمان من الكافر والكافر شاء الكفر فغلبت مشيئة الكافر مشيئة الله!! تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

فإن قيل: يشكل على هذا قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلا آبَاؤُنَا﴾ الآية [الأنعام: ١٤٨]. وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ﴾ الآية [النحل: ٣٥]، وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم مَّا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ﴾ [الزخرف: ٢٠]. فقد ذمهم الله تعالى حيث جعلوا الشرك كائنا منهم بمشيئة الله، وكذلك ذم إبليس حيث أضاف الإغواء إلى الله تعالى. إذ قال: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ﴾ [الحجر: ٣٩].

قيل: قد أجيب على هذا بأجوبة، من أحسنها:

أنه أنكر عليهم ذلك؛ لأنهم احتجوا بمشيئته على رضاه ومحبته، وقالوا: لو كره ذلك وسخطه لما شاءه، فجعلوا مشيئته دليل رضاه، فرد الله عليهم ذلك.

أوأنه أنكر عليهم اعتقادهم أن مشيئة الله دليل على أمره به.

أو أنه أنكر عليهم معارضته شرعه، وأمره الذى أرسل به رسله وأنزل به كتبه بقضائه وقدره، فجعلوا المشيئة العامة دافعة للأمر، فلم يذكروا المشيئة على جهة التوحيد، وإنما ذكروها معارضين بها لأمره دافعين بها لشرعه كفعل الزنادقة والجهال، إذا أمروا أونهوا احتجوا بالقدر. وقد احتج سارق على عمر ﷺ بالقدر، فقال: وأنا أقطع يدك بقضاء الله وقدره. يشهد لذلك قوله تعالى فى الآية: ﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ

الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [الأنعام: ١٤٨]. فعلم أن مرادهم التكذيب، فهومن قبل الفعل من أين له أن الله لم يقدره؟ أطلع الغيب؟!.

فإن قيل: فما يقولون فى احتجاج آدم على موسى عليهما السلام بالقدر، إذ قال له: أتلومنى على أمر قد كتبه الله على قبل أن أخلق بأربعين عاماً؟ وشهد النبى ﷺ أن آدم حَجَّ موسى [1]، أى: غلبه بالحجة.

قيل: نتلقاه بالقبول والسمع والطاعة؛ لصحته عن رسول الله ﷺ، ولا نتلقاه بالرد والتكذيب لراويه، كما فعلت القدرية، ولا بالتأويلات الباردة. بل الصحيح أن آدم لم يحتج بالقضاء والقدر على الذنب، وهوكان أعلم بربه وذنبه، بل آحاد بنيه من المؤمنين لا يحتج بالقدر، فإنه باطل. وموسى عليه السلام كان أعلم بأبيه وبذنبه من أن يلوم آدم على ذنب قد تاب منه وتاب الله عليه واجتباه وهداه، وإنما وقع اللوم على المصيبة التى أخرجت أولاده من الجنة، فاحتج آدم بالقدر على المصيبة، لا على الخطيئة، فإن القدر يحتج به عند المصائب لا عند المعائب.

وهذا المعنى أحسن ما قيل فى الحديث. فما قدر من المصائب يجب الاستسلام له، فإنه من تمام الرضى بالله ربا، وأما الذنوب فليس للعبد أن يذنب، وإذا أذنب فعليه أن يستغفر ويتوب. فيتوب من المعائب، ويصبر على المصائب. قال تعالى: **﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ**

---

(١) رواه البخارى [٣٤٠٩، ٦٦١٤]، ومسلم [٢٦٥٢]، وأبو داود [٤٧٠١]، والترمذى [٢١٣٤]، والنسائى فى «الكبرى» [١١١٨٧، ١١٤٤٣]، وابن ماجه [٨٠]، وأحمد (٢/٢٤٨)، من حديث أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**احتج آدم وموسى**» ـ الحديث.

وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ [غافر: ٥٥]. وقال تعالى: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ [آل عمران: ١٢٠].

وأما قول إبليس: ﴿رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾ [الحجر: ٣٩]. إنما ذم على احتجاجه بالقدر لا على اعترافه بالقدر وإثباته له. ألم تسمع قول نوح عليه السلام: ﴿وَلا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [هود: ٣٤]. ولقد أحسن القائل:

فما شئت كان وإن لم أشأ   وما شئت إن لم تشأ لم يكن

وعن وهب بن منبه [١] أنه قال: نظرت فى القدر فتحيرت، ثم نظرت فيه فتحيرت، ووجدت أعلم الناس بالقدر أكفهم عنه، وأجهل الناس بالقدر أنطقهم فيه.

قوله: «**يهدى من يشاء ويعصم ويعافى فضلاً. ويضل من يشاء، ويخذل ويبتلى عدلاً**».

ش: هذا رد على المعتزلة فى قولهم بوجوب الأصلح للعبد على الله وهى مسألة الهدى والضلال.

قالت المعتزلة: الهدى من الله: بيان طريق الصواب، والإضلال: تسمية العبد ضالاً، أو حكمه تعالى على العبد بالضلال عند خلق العبد الضلال فى نفسه. وهذا مبنى على أصلهم الفاسد: أن أفعال

---

(١) هو العلامة الأخبارىّ القصصىّ، وهب بن منبه بن كامل بن شيج بن ذى كبار، الأنبارى اليمانى، الذمارى، الصنعانى، أخو همام بن منبه، ومعقل بن منبه، وغيلان بن منبه.
ولد سنة (٣٤ هـ). مات سنة بضع عشرة ومائة. («سير أعلام النبلاء» - ٤/٥٤٤ - التقريب).

العباد مخلوقة لهم. والدليل على ما قلناه قوله تعالى: ﴿**إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ**﴾ [القصص: ٥٦]. ولوكان الهدى بيان الطريق لما صح هذا النفى عن نبيه، لأنه ﷺ بين الطريق لمن أحب وأبغض، وقوله تعالى: ﴿**وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا**﴾ [السجدة: ١٣]. ﴿**يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ**﴾ [المدثر: ٣١]. ولوكان الهدى من الله البيان، وهوعام فى كل نفس لما صح التقييد بالمشيئة وكذا قوله تعالى: ﴿**وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ**﴾ [الصافات: ٥٧]. وقوله: ﴿**مَن يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾ [الأنعام: ٣٩].

قوله: «**وكلهم يتقلبون فى مشيئته بين فضله وعدله**».

ش: فإنهم كما قال تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ**﴾ [التغابن: ٢]. فمن هداه إلى الإيمان فبفضله ـ وله الحمد ـ ومن أضله فبعدله ـ وله الحمد ـ وسيأتى لهذا المعنى زيادة إيضاح، إن شاء الله تعالى، فإن الشيخ رحمه الله لم يجمع الكلام فى القدر فى مكان واحد، بل فرقه، فأتيت به على ترتيبه.

قوله: «**وهو متعال عن الأضداد والأنداد**».

ش: الضد: المخالف، والند: المثل. فهوسبحانه لا معارض له، بل ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، ولا مثل له، كما قال تعالى: ﴿**وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ**﴾ [الإخلاص: ٤]. ويشير الشيخ رحمه الله بنفى الضد والند إلى الرد على المعتزلة، فى زعمهم أن العبد يخلق فعله.

قوله: «**لاراد لقضائه ولامعقب لحكمه، ولا غالب لأمره**».

ش: أى: لا يرد قضاء الله راد، ولا يعقب، أى: لا يؤخر حكمه

مؤخر، ولا يغلب أمره غالب، بل هوالله الواحد القهار.

قوله: «**آمنا بذلك كله، وأيقنا أن كلاً من عنده**».

ش: أما الإيمان فسيأتي الكلام عليه إن شاء الله تعالى. والإيقان: الاستقرار من يقن الماء في الحوض إذا استقر. والتنوين في «كلاً» بدل الإضافة أي: كل كائن محدث من عند الله، أي: بقضائه وقدره وإرادته ومشيئته وتكوينه وسيأتي الكلام على ذلك في موضعه إن شاء الله تعالى.

قوله: «**وإن محمداً عبده المصطفى ونبيه المجتبى ورسوله المرتضى**».

ش: الاصطفاء والاجتباء والارتضاء: متقارب المعنى.

واعلم أن كمال المخلوق في تحقيق عبوديته لله تعالى. وكلما ازداد العبد تحقيقاً للعبودية ازداد كماله وعلت درجته ومن توهم أن المخلوق يخرج عن العبودية بوجه من الوجوه، وأن الخروج عنها أكمل، فهو من أجهل الخلق وأضلهم قال تعالى: ﴿**وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ**﴾ [الأنبياء: ٢٦]. إلى غير ذلك من الآيات. وذكر الله نبيه باسم العبد في أشرف المقامات، فقال في ذكر الإسراء: ﴿**سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ**﴾ [الإسراء: ١]. وقال تعالى: ﴿**وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ**﴾ [الجن: ١٩]. وقال تعالى: ﴿**فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ**﴾ [النجم: ١٠]. وقال تعالى: ﴿**وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا**﴾ [البقرة: ٢٣]. وبذلك استحق التقديم على الناس في الدنيا والآخرة؛ ولذلك يقول المسيح ﷺ يوم القيامة إذا طلبوا منه الشفاعة بعد الأنبياء عليهم السلام:

«اذهبوا إلى محمد، عبد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر» [1] فحصلت له تلك المرتبة بتكميل عبوديته لله تعالى.

وقوله: «وإن محمداً» بكسر الهمزة عطفاً على قوله: «إن الله واحد لا شريك له» لأن الكل معمول القول، أعني قوله: «نقول في توحيد الله».

والطريقة المشهورة عند أهل الكلام والنظر تقرير نبوة الأنبياء بالمعجزات، لكن كثير منهم لا يعرف نبوة الأنبياء إلا بالمعجزات، وقرروا ذلك بطرق مضطربة والتزم كثير منهم إنكار خرق العادات لغير الأنبياء، حتى أنكروا كرامات الأولياء والسحر ونحوذلك.

ولا ريب أن المعجزات دليل صحيح، لكن الدليل غير محصور في المعجزات، فإن النبوة إنما يدعيها أصدق الصادقين أوأكذب الكاذبين، ولا يلتبس هذا بهذا إلا على أجهل الجاهلين، بل قرائن أحوالهما تعرب عنهما، وتُعرِّف بهما، والتمييز بين الصادق والكاذب له طرق كثيرة فيما دون دعوى النبوة، فكيف بدعوى النبوة؟ وما أحسن ما قال حسان ﷺ:

لولم يكن فيه آيات مبينة كانت بديهته تأتيك بالخبر

وما من أحد ادعى النبوة من الكذابين إلا وقد ظهر عليه من الجهل والكذب والفجور واستحواذ الشياطين عليه ما ظهر لمن له أدنى

---

(١) رواه البخاري [٤٤٧٦]، ومسلم [١٩٣]، والنسائي في «الكبرى» [١١٤٣٣]، وابن ماجه [٤٣١٢]، وأحمد (٣/١١٦).
وهو قطعة من حديث أنس بن مالك ﷺ ـ الطويل ـ في الشفاعة.

تمييز فإن الرسول لابد أن يخبر الناس بأمور ويأمرهم بأمور، ولابد أن يفعل أموراً يبين بها صدقه والكاذب يظهر فى نفس ما يأمر به ويخبر عنه وما يفعله ما يبين به كذبه من وجوه كثيرة. والصادق ضده، بل كل شخصين ادعيا أمراً: أحدهما صادق والآخر كاذب لابد أن يظهر صدق هذا وكذب هذا ولوبعد مدة؛ إذ الصدق مستلزم للبر والكذب مستلزم للفجور، كما فى الصحيحين عن النبى ﷺ أنه قال: «**عليكم بالصدق، فإن الصدق يهدى إلى البر، وإن البر يهدى إلى الجنة، ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق، حتى يكتب عند الله صديقاً، وإياكم والكذب فإن الكذب يهدى إلى الفجور، وإن الفجور يهدى إلى النار، ولا يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب، حتى يكتب عند الله كذاباً**» [1]. ولهذا؛ قال تعالى: ﴿**هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ * تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ * يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ * وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ * أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ**﴾ [الشعراء: ٢٢١-٢٢٦].

فالكهان ونحوهم، وإن كانوا أحياناً يخبرون بشئ من المغيبات، ويكون صدقاً ـ فمعهم من الكذب والفجور ما يبين أن الذى يخبرون به ليس عن ملك، وليسوا بأنبياء ولهذا لما قال النبى ﷺ لابن صياد: «**قد خبأت لك خبيئاً**» وقال: الدخ ـ قال له النبى ﷺ: «**اخسأ، فلن تعدو قدرك**» [2] يعنى: إنما أنت كاهن، وقد قال للنبى ﷺ: «**يأتينى صادق**

---

(١) رواه البخارى [٦٠٩٤] مختصراً، ومسلم [٢٦٠٧]، وأبو داود [٤٩٨٩]، والترمذى [١٩٧١]، وأحمد (١/ ٣٨٤)، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٢) رواه البخارى [١٣٥٤]، ومسلم [٢٩٣٠]، وأبو داود [٤٣٢٩]، والترمذى [٢٢٤٩]، وأحمد (٢/ ١٤٨)، من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

ورواه مسلم [٢٩٢٤]، وأحمد (١/ ٣٨٠)، وابن حبان [إحسان ـ ٦٧٨٣]، من =

وكاذب» [1]. وقال: «**أرى عرشًا على الماء**» [2] وذلك هوعرش الشيطان وبين أن الشعراء يتبعهم الغاوون والغوى: الذى يتبع هواه وشهوته، وإن كان ذلك مضراً له فى العاقبة.

فمن عرف الرسول وصدقه ووفاءه ومطابقة قوله لعمله علم علماً يقينياً أنه ليس بشاعر ولا كاهن.

والناس يميزون بين الصادق والكاذب بأنواع من الأدلة، حتى فى المدعى للصناعات والمقالات، كمن يدعى الفلاحة والنساجة والكتابة، وعلم النحو والطب والفقه وغير ذلك.

والنبوة مشتملة على علوم وأعمال لابد أن يتصف الرسول بها، وهى أشرف العلوم وأشرف الأعمال. فكيف يشتبه الصادق فيها بالكاذب؟ ولا ريب أن المحققين على أن خبر الواحد والإثنين والثلاثة: قد يقترن به من القرائن ما يحصل معه العلم ضرورى، كما يعرف الرجل رضى الرجل وحبه وبغضه وفرحه وحزنه وغير ذلك مما فى نفسه، بأمور تظهر على وجهه، قد لا يمكن التعبير عنها، كما قال تعالى: ﴿ **وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ** ﴾ [محمد: ٣٠]. ثم قال: ﴿ **وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ** ﴾ وقد قيل: ما أسر أحد سريرة إلا أظهرها الله على صفحات وجهه وفلتات لسانه.

حديث عبد الله بن مسعود ﷺ.

(١) هذا اللفظ ضمن الحديث السابق.

(٢) رواه مسلم [٢٩٢٥]، والترمذى [٢٢٤٧]، وأحمد (٣/٦٦)، من حديث أبى سعيد الخدرى ﷺ.

ورواه مسلم [٢٩٢٦]، وأحمد (٣/٣٦٨)، والطحاوى فى «شرح المشكل» [٢٩٤٢]، وابن حبان [إحسان - ٦٧٨٤]، من حديث جابر بن عبد الله ﷺ.

فإذا كان صدق المخبر وكذبه يعلم بما يقترن من القرائن، فكيف بدعوى المدعى أنه رسول الله، كيف يخفى صدق هذا من كذبه؟ وكيف لا يتميز الصادق فى ذلك من الكاذب بوجوه من الأدلة؟!.

ولهذا لما كانت خديجة رضي الله عنها تعلم من النبى ﷺ أنه الصادق البار قال لها لما جاءه الوحى: «**إنى قد خشيت على نفسى**» . فقالت: كلا والله لا يخزيك الله، إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث وتحمل الكل، وتقرى الضيف، وتكسب المعدوم، وتعين على نوائب الحق» [(١)] فهو لم يَخَف من تعمد الكذب، فهويعلم من نفسه ﷺ أنه لم يكذب، وإنما خاف أن يكون قد عرض له عارض سوء، وهوالمقام الثانى فذكرت خديجة ما ينفى هذا، وهوما كان مجبولاً عليه من مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم، وقد علم من سنة الله أن من جبله على الأخلاق المحمودة ونزهه عن الأخلاق المذمومة فإنه لا يخزيه.

وكذلك قال النجاشى لما استخبرهم عما يخبر به واستقرأهم القرآن فقرؤوه عليه: «إن هذا والذى جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة» [(٢)]. وكذلك ورقة بن نوفل ، لما أخبره النبى ﷺ بما رآه

---

(١) رواه البخارى [٣، ٦٩٨٢]،ومسلم [١٦٠]، وأحمد (٦/١٥٣، ٢٣٢)، وأبو عوانة (١/١١٠)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) **حسن**. رواه أحمد (١/٢٠١)، وأبو نعيم فى «الحلية»]١/١١٥)، والبيهقى فى «الدلائل» (٢/٣٠١)، من طريق محمد بن إسحق، حدثنى ابن شهاب، عن أبى بكر ابن عبد الرحمن بن الحارث، عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: لما نزلنا أرض الحبشة جاورنا بها خير جار النجاشى. ـ فذكرته، وفيه يقول النجاشى: إن هذا والله والذى جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة ـ الحديث.
وإسناده حسن، رجاله ثقات سوى محمد بن إسحق فإنه صدوق يدلس إلا أنه قد صرح بالسماع، كما قال الهيثمى فى «المجمع» (٦/٢٧).

وكان ورقة قد تنصر، وكان يكتب الإنجيل بالعربية، فقالت له خديجة: «أى: عم، اسمع من ابن أخيك ما يقول، فأخبره النبى ﷺ بما رأى فقال: هذا هو الناموس الذى كان يأتى موسى» (١).

وكذلك هرقل ملك الروم، فإن النبى ﷺ لما كتب إليه كتاباً يدعوه فيه إلى الإسلام، طلب من كان هناك من العرب، وكان أبوسفيان قد قدم فى طائفة من قريش فى تجارة إلى الشام، وسألهم عن أحوال النبى ﷺ، فسأل أبا سفيان، وأمر الباقين إن كذب أن يكذبوه، فصاروا بسكوتهم موافقين له فى الأخبار:

سألهم: هل كان فى آبائه من ملك؟ فقالوا: لا.

قال: هل قال هذا القول أحد قبله؟ فقالوا: لا.

وسألهم: أهوذونسب فيكم؟ فقالوا: نعم.

وسألهم: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فقالوا: لا، ما جربنا عليه كذباً.

وسألهم: هل اتبعه ضعفاء الناس أم أشرافهم؟ فذكروا أن الضعفاء اتبعوه.

وسألهم: هل يزيدون أم ينقصون؟ فذكروا أنهم يزيدون.

وسألهم: هل يرجع أحد منهم عن دينه سخطة له بعد أن يدخل فيه؟ فقالوا: لا.

وسألهم: هل قاتلتموه؟ قالوا: نعم.

---

(١) سبق تخريجه قبل هذا بحديثين من حديث عائشة رضي الله عنها.

وسألهم عن الحرب بينهم وبينه؟ فقالوا: يدال علينا مرة وندال عليه أخرى.

وسألهم: هل يغدر؟ فذكروا أنه لا يغدر.

وسألهم: بماذا يأمركم؟ فقالوا: يأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئاً، وينهانا عما كان يعبد آباؤنا ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة.

وهذه أكثر من عشر مسائل، ثم بين لهم ما فى هذه المسائل من الأدلة، فقال:

سألتكم هل كان فى آبائه من ملك؟ فقلتم: لا، قلت: لوكان فى آبائه من ملك لقلت: رجل يطلب ملك أبيه.

وسألتكم: هل قال هذا القول فيكم أحد قبله: فقلتم: لا، فقلت: لوقال هذا القول أحد قبله لقلت: رجل ائتم بقول قيل قبله.

وسألتكم: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فقلتم: لا: فقلت: قد علمت أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس ثم يذهب فيكذب على الله.

وسألتكم أضعفاء الناس يتبعونه أم أشرافهم؟ فقلتم: ضعفاؤهم وهم أتباع الرسل، يعنى فى أول أمرهم.

ثم قال: وسألتكم هل يزيدون أم ينقصون؟ فقلتم بل يزيدون، وكذلك الإيمان حتى يتم.

وسألتكم هل يرتد أحد منهم عن دينه سخطة له بعد أن يدخل

فيه؟ فقلتم: لا، وكذلك الإيمان، إذا خالطت بشاشته القلوب لا يسخطه أحد.

وهذا من أعظم علامات الصدق والحق، فإن الكذب والباطل لابد أن ينكشف فى آخر الأمر، فيرجع عنه أصحابه، ويمتنع عنه من لم يدخل فيه، والكذب لا يروج إلا قليلاً ثم ينكشف.

وسألتكم كيف الحرب بينكم وبينه؟ فقلتم: إنها دول، وكذلك الرسل تبتلى وتكون العاقبة لها.

قال: وسألتكم هل يغدر: فقلتم: لا. وكذلك الرسل لا تغدر.

وهو لما كان عنده من علمه بعادة الرسل وسنة الله فيهم أنه تارة ينصرهم وتارة يبتليهم وأنهم لا يغدرون علم أن هذه علامات الرسل، وأن سنة الله فى الأنبياء والمؤمنين أن يبتليهم بالسراء والضراء؛ لينالوا درجة الشكر والصبر، كما فى «الصحيح» عن النبى ﷺ أنه قال: **«والذى نفسى بيده لا يقضى الله للمؤمن قضاء إلا كان خيراً له، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر، فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر، فكان خيراً له»** (١).

والله تعالى قد بين فى القرآن ما فى إدالة العدوعليهم يوم أحد من الحكمة فقال: ﴿**وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ**﴾ الآيات [آل عمران: ١٣٩]. وقال تعالى: ﴿**الم * أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن**

---

(١) رواه مسلم [٢٩٩٩]، وأحمد (٤/٣٣٢، ٣٣٣)، من حديث صهيب رضي الله عنه بلفظ: **«عجباً لأمر المؤمن»**.
وفى الباب من حديث سعد، وأنس رضي الله عنهما.

يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ﴾ الآيات [العنكبوت: ١-٢] إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث الدالة على سنته فى خلقه وحكمته التى بهرت العقول.

قال: وسألتكم عما يأمر به؟ فذكرتم أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف والصلة، وينهاكم عما كان يعبد آباؤكم، وهذه صفة نبى.

وقد كنت أعلم أن نبياً يبعث، ولم أكن أظنه منكم، ولوددت أنى أخلص إليه، ولولا ما أنا فيه من الملك لذهبت إليه، وإن يكن ما تقول حقاً فسيملك موضع قدمى هاتين.

وكان المخاطب بذلك أبوسفيان بن حرب، وهوحينئذ كافر من أشد الناس بغضاً وعداوة للنبى ﷺ.

قال أبوسفيان بن حرب: فقلت لأصحابى ونحن خروج، لقد أَمِرَ أَمْرُ ابن أبى كبشة [١]، إنه ليعظمه ملك بنى الأصفر، وما زلت موقنا بأن أمر النبى ﷺ سيظهر، حتى أدخل الله على الاسلام وأنا كاره [٢].

ومما ينبغى أن يعرف: أن ما يحصل فى القلب بمجموع أمور قد لا يستقل بعضها به، بل ما يحصل للإنسان من شبع ورى وشكر، وفرح وغم بأمور مجتمعة، لا يحصل ببعضها، لكن ببعضها قد يحصل بعض الأمر

---

(١) يعني به النبي ﷺ فإن أبا كبشة أحد أجداده.

(٢) رواه البخارى [٧، ٥١، ٢٦٨١، ٢٨٠٤، ٢٩٤١، ٢٩٧٨، ٣١٧٤، ٤٥٥٣، ٥٩٨٠، ٦٢٦٠، ٧١٩٦، ٧٥٤١]، ومسلم [١٧٧٣]، والنسائى فى «الكبرى» [١١٠٦٤]، وأحمد (١/٢٦٢)، والبيهقى فى «الدلائل» (٤/٣٧٧)، من حديث ابن عباس، عن أبى سفيان رضي الله عنه.
واللفظ الذى ساقه الشارح إنما هو بالمعنى.

وكذلك العلم بخبر من الأخبار، فإن خبر الواحد يحصل للقلب نوع ظن، ثم الآخر يقويه، إلى أن ينتهي إلى العلم، حتى يتزايد ويقوى. وكذلك الأدلة على الصدق والكذب ونحوذلك.

وأيضاً: فإن الله سبحانه أبقى فى العالم الآثار الدالة على ما فعله بأنبيائه والمؤمنين من الكرامة، وما فعله بمكذبيهم من العقوبة، كتواتر الطوفان، وإغراق فرعون وجنوده، ولما ذكر سبحانه قصص الأنبياء نبياً بعد نبى فى سورة الشعراء، كقصة موسى وإبراهيم ونوح ومن بعده يقول فى آخر كل قصة: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ٦٧-٦٨].

وبالجملة: فالعلم بأنه كان فى الأرض من يقول إنه رسول الله، وأن أقواماً اتبعوهم، وأن أقواماً خالفوهم، وأن الله نصر الرسل والمؤمنين، وجعل العاقبة لهم، وعاقب أعداءهم، هو من أظهر العلوم المتواترة وأجلاها.

ونقل أخبار هذه الأمور أظهر وأوضح من نقل أخبار من مضى من الأمم من ملوك الفرس وعلماء الطب، كبقراط وجالينوس وبطليموس وسقراط وأفلاطون وأرسطو وأتباعه.

ونحن اليوم إذا علمنا بالتواتر من أحوال الأنبياء وأوليائهم وأعدائهم علمنا يقيناً أنهم كانوا صادقين على الحق من وجوه متعددة:

منها: أنهم أخبروا الأمم بما سيكون من انتصارهم وخذلان أولئك وبقاء العاقبة لهم.

ومنها: ما أحدثه الله لهم من نصرهم وإهلاك عدوهم إذا عرف

الوجه الذى حصل عليه كغرق فرعون وغرق قوم نوح وبقية أحوالهم - عرف صدق الرسل.

ومنها: أن من عرف ما جاء به الرسل من الشرائع وتفاصيل أحوالها. تبين له أنهم أعلم الخلق، وأنه لا يحصل مثل ذلك من كذاب جاهل، وأن فيما جاؤوا به من المصلحة والرحمة والهدى والخير ودلالة الخلق على ما ينفعهم ومنع ما يضرهم ما يبين أنه لا يصدر إلا عن راحم بر يقصد غاية الخير والمنفعة للخلق.

ولذكر دلائل نبوة محمد ﷺ من المعجزات وبسطها موضع آخر، وقد أفردها الناس بمصنفات، كالبيهقى وغيره.

بل إنكار رسالته ﷺ طعن فى الرب تبارك وتعالى، ونسبته إلى الظلم والسفه، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، بل جحد للرب بالكلية وإنكار.

وبيان ذلك: أنه إذا كان محمد عندهم ليس بنبى صادق، بل ملك ظالم فقد تهيأ له أن يفترى على الله، ويتقول عليه، ويستمر حتى يحلل ويحرم، ويفرض الفرائض، ويشرع الشرائع، وينسخ الملل، ويضرب الرقاب، ويقتل أتباع الرسل وهم أهل الحق، ويسبى نساءهم، ويغنم أموالهم وذراريهم وديارهم، ويتم له ذلك حتى يفتح الأرض، وينسب ذلك كله إلى أمر الله له به ومحبته له، والرب تعالى يشاهده وهويفعل بأهل الحق، وهومستمر فى الافتراء عليه ثلاثاً وعشرين سنة، وهومع ذلك كله يؤيده وينصره، ويعلى أمره، ويمكن له من أسباب النصر الخارجة عن عادة البشر، وأبلغ من ذلك أن يجيب دعواته،

ويهلك أعداءه، ويرفع له ذكره، هذا وهوعندهم فى غاية الكذب والافتراء والظلم، فإنه لا أظلم ممن كذب على الله وأبطل شرائع أنبيائه وبدلها وقتل أولياءه، واستمرت نصرته عليهم دائما، والله تعالى يقره على ذلك، ولا يأخذ منه باليمين، ولايقطع منه الوتين.

فيلزمهم أن يقولوا: لا صانع للعالم ولا مدبر، ولوكان له مدبر قدير حكيم، لأخذ على يديه ولقابله أعظم مقابلة، وجعله نكالا للصالحين. إذ لا يليق بالملوك غير ذلك، فكيف بملك الملوك وأحكم الحاكمين؟.

ولا ريب أن الله تعالى قد رفع له ذكره، وأظهر دعوته والشهادة له بالنبوة على رؤوس الأشهاد فى سائر البلاد. ونحن لا ننكر أن كثيراً من الكذابين قام فى الوجود، وظهرت له شوكة، ولكن لم يتم أمره، ولم تطل مدته، بل سلط الله عليه رسله وأتباعهم، فقطعوا دابره واستأصلوه. هذه سنة الله التى قد خلت من قبل، حتى إن الكفار يعلمون ذلك. قال تعالى: ﴿**أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ * قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُتَرَبِّصِينَ**﴾ [الطور: ٣٠-٣١] أفلا تراه يخبر أن كماله وحكمته وقدرته تأبى أن يقر من تقول عليه بعض الأقاويل، بل لابد أن يجعله عبرة لعباده كما جرت بذلك سنته فى المتقولين عليه، وقال تعالى: ﴿**أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ**﴾ [الشورى: ٢٤] وهنا انتهى جواب الشرط، ثم أخبر خبراً جازماً غير معلق: أنه يمحو الباطل ويحق الحق، وقال تعالى: ﴿**وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ**﴾ [الأنعام: ٩١] فأخبر سبحانه أن من نفى عنه الإرسال والكلام لم يقدره حق قدره.

وقد ذكروا فروقا بين النبى والرسول، وأحسنها: أن من نبأه الله بخبر السماء إن أمره أن يبلغ غيره، فهو نبى رسول، وإن لم يأمره أن يبلغ غيره، فهونبى وليس برسول. فالرسول أخص من النبى، فكل رسول نبى، وليس كل نبى رسولاً، ولكن الرسالة أعم من جهة نفسها، فالنبوة جزء من الرسالة، إذ الرسالة تتناول النبوة وغيرها بخلاف الرسل فإنهم لا يتناولون الأنبياء وغيرهم، بل الأمر بالعكس فالرسالة أعم من جهة نفسها وأخص من جهة أهلها.

وإرسال الرسل أعظم نعم الله على خلقه، وخصوصاً محمد ﷺ، كما قال تعالى: ﴿ **لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ** ﴾ [آل عمران: ١٦٤]. وقال تعالى: ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ** ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

قوله: «**وإنه خاتم الأنبياء**».

ش: قال تعالى: ﴿ **وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ** ﴾ [الأحزاب: ٤٠]. وقال ﷺ: «**مثلى ومثل الأنبياء كمثل قصر أُحسن بناؤه، وتُرك منه موضع لبنة، فطاف به النظار يتعجبون من حسن بنائه، إلا موضع تلك اللبنة، لا يعيبون سواها، فكنت أنا سددت موضع تلك اللبنة ختم بى البنيان وختم بى الرسل**»[1] أخرجاه فى «الصحيحين».

---

(١) رواه البخارى [٣٥٣٥]، ومسلم [٢٢٨٦]، والنسائى فى «الكبرى» [١١٤٢١]، وأحمد (٢/٢٥٦)، من حديث أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إن مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون هلا وضعت هذه اللبنة قال:** =

وقال ﷺ: «**إن لى أسماء: أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحى، يمحوالله بى الكفر، وأنا الحاشر، الذى يحشر الناس على قدمى، وأنا العاقب، والعاقب الذى ليس بعده نبى**»[1].

وفى صحيح مسلم عن ثوبان قال: قال رسول الله: «**وإنه سيكون فى أمتى ثلاثون كذابون كلهم يزعم أنه نبى وأنا خاتم النبيين، لا نبى بعدى**»[2] الحديث.

ولمسلم: أن رسول الله ﷺ قال: «**فضلت على الأنبياء بست: أعطيت جوامع الكلم، ونصرت بالرعب، وأحلت لى الغنائم، وجعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً، وأرسلت إلى الخلق كافة، وختم بى النبيون**»[3].

قوله: «**وإمام الأتقياء**».

ش: هو ﷺ؛ الإمام الذى يؤتم به، أى: يقتدون به. والنبى ﷺ إنما بعث للاقتداء به؛ لقوله تعالى: ﴿**قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ**﴾ [آل عمران: ٣١]. وكل من اتبعه واقتدى به فهومن الأتقياء.

= **فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين**».
واللفظ الذى ساقه المصنف - رحمه الله - عزاه السيوطى فى «الجامع الكبير» (١ / ٧٤٠) لابن عساكر.

(١) رواه البخارى [٣٥٣٢، ٤٨٩٦]، ومسلم [٢٣٥٤]، والترمذى [٢٨٤٠]، والنسائى فى «الكبرى» [١١٥٩٠]، وأحمد (٤ / ٨٠، ٨٤)، وعبد الرزاق [١٩٦٥٧]، وابن أبى شيبة (١١ / ٤٥٧)، والحميدى [٥٥٥]، وأبو يعلى [٧٣٩٥]، من حديث جبير ابن مطعم رضي الله عنه.

(٢) حديث ثوبان رضي الله عنه سبق تخريجه (١ / ١٠). وهذا اللفظ رواه الترمذى [٢٢٢٩]، وأبو داود [٤٢٥٢].

(٣) رواه مسلم [٥٢٣]، والترمذى [١٥٥٣]، وأحمد (٢ / ٤١١)، وأبو عوانة (١ / ٣٩٥)، وابن حبان [إحسان - ٢٣١٣]، من حديث أبى هريرة رضي الله عنه.

قوله: «**وسيد المرسلين**».

ش: قال ﷺ: «**أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وأول من ينشق عنه القبر وأول شافع، وأول مشفع**»[1] رواه مسلم، وفى أول حديث الشفاعة: «**أنا سيد الناس يوم القيامة**»[2]. وروى مسلم والترمذى عن واثلة بن الأسقع رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشاً من كنانة، واصطفى من قريش بنى هاشم واصطفانى من بنى هاشم**»[3].

فإن قيل: يشكل على هذا قوله ﷺ: «**لاتفضلونى على موسى، فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق، فأجد موسى باطشاً بساق العرش فلا أدرى هل أفاق قبلى، أوكان ممن استثنى الله؟**»[4] خرجاه فى «الصحيحين» فكيف يجمع بين هذا وبين قوله «**أنا سيد ولد آدم ولا فخر**»[5].

---

(١) رواه مسلم [٢٢٧٨]، وأبو داود [٤٦٧٣]، وأحمد (٢/٥٤٠)، من حديث أبى هريرة رضي الله عنه.

(٢) رواه البخارى [٣٣٤٠]، ومسلم [١٩٤]، والترمذى [٢٤٣٤]، والنسائى فى «الكبرى» [١١٢٨٦]، وأحمد (٢/٤٣٥)، وأبو عوانة (١/١٧٠)، وابن حبان [إحسان - ٦٤٦٥]، من حديث أبى هريرة رضي الله عنه.

(٣) رواه مسلم [٢٢٧٦]، والترمذى [٣٦٠٦]، وأحمد (٤/١٠٧)، وأبو يعلى [٧٤٨٥]، وابن حبان [إحسان - ٦٢٤٢]، والطبرانى فى «الكبير» (٢٢/٦٧). من حديث واثلة بن الأسقع رضي الله عنه.

(٤) رواه البخارى [٢٤١١]، ومسلم [٢٣٧٣]، وأبو داود [٤٦٧١]، والنسائى فى «الكبرى» [١١٤٥٧]، وأحمد (٢/٢٦٤)، من حديث أبى هريرة رضي الله عنه بلفظ: «**لا تخيرونى على موسى**».

(٥) **صحيح**. رواه الترمذى [٣١٤٨، ٣٦١٥]، وابن ماجه [٤٣٠٨]، وأحمد (٣/٢)، من طريق على بن زيد بن جدعان، عن أبى نضرة، عن أبى سعيد رضي الله عنه به.
قال الترمذى: حديث حسن صحيح. وله شواهد منها حديث واثلة الذى سبق تخريجه =

فالجواب: أن هذا كان له سبب، فإنه كان قد قال يهودى: لا والذى اصطفى موسى على البشر، فلطمه مسلم، وقال: أتقول هذا ورسول الله ﷺ بين أظهرنا؟ فجاء اليهودى فاشتكى من المسلم الذى لطمه، فقال النبى ﷺ هذا؛ لأن التفضيل إذا كان على وجه الحمية والعصبية وهوى النفس كان مذموما، بل نفس الجهاد إذا قاتل الرجل حمية وعصبية كان مذموماً، فإن الله حرم الفخر، وقد قال تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ** ﴾ [الإسراء: ٥٥]، وقال تعالى: ﴿ **تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ** ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

فعلم أن المذموم إنما هوالتفضيل على وجه الفخر، أوعلى وجه الانتقاص بالمفضول.

وعلى هذا يحمل أيضا قوله ﷺ: «**لا تفضلوا بين الأنبياء**»[1]، إن كان ثابتاً، فإن هذا قد روى فى نفس حديث موسى، وهوفى البخارى وغيره.

لكن بعض الناس يقول: إن فيه علة، بخلاف حديث موسى فإنه صحيح لا علة فيه باتفاقهم.

= قبل هذا بحديثين، ومنها ما رواه أحمد (٣/ ١٤٤)، والدارمى [٥٣]، من طريق الليث بن سعد، عن يزيد بن الهاد، عن عمرو بن أبى عمرو، عن أنس رضي الله عنه به. وإسناده صحيح، رجاله ثقات على شرط الشيخين.

(١) رواه البخارى [٣٤١٤]، ومسلم [٢٣٧٣]، والنسائى فى «الكبرى» [١١٤٦١]، من حديث أبى هريرة رضي الله عنه.
ورواه البخارى [٢٤١٢]، ومسلم [٢٣٧٤]، وأبو داود [٤٦٦٨]، وأحمد (٣/ ٣٣)، من حديث أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه بلفظ: «**لا تخيروا بين الأنبياء**».

وقد أجاب بعضهم بجواب آخر، وهو: أن قوله ﷺ: «لا تفضلونى على موسى» وقوله: «**لا تفضّلوا بين الأنبياء**» نهى عن التفضيل الخاص، أى: لا يفضل بعض الرسل على بعض بعينه، بخلاف قوله: «**أنا سيد ولد آدم ولا فخر**». فإنه تفضيل عام فلا يمنع منه. وهذا كما لوقيل: فلان أفضل أهل البلد، لا يصعب على أفرادهم، بخلاف ما لوقيل لأحدهم: فلان أفضل منك. ثم إنى رأيت الطحاوى -رحمه الله- قد أجاب بهذا الجواب فى «شرح معانى الآثار».

وأما ما يروى أن النبى ﷺ قال: «**لا تفضلونى على يونس بن متى**»(١)، وأن بعض الشيوخ قال: لا يفسر لهم هذا الحديث حتى يعطى مالا جزيلا، فلما أعطوه فسره بأن قرب يونس من الله وهوفى بطن الحوت كقربى من الله ليلة المعراج وعدوا هذا تفسيراً عظيماً. وهذا يدل على جهلهم بكلام الله وبكلام رسوله لفظاً ومعنى، فإن هذا الحديث بهذا اللفظ لم يروه أحد من أهل الكتب التى يُعتمد عليها، وإنما اللفظ الذى فى الصحيح: «**لا ينبغى لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متى**» وفى رواية: «**من قال إنى خير من يونس بن متى فقد كذب**»(٢)، وهذا اللفظ يدل

---

(١) لم أعثر عليه بهذا اللفظ، ولم يروه أحد من أهل الكتب التى يعتمد عليها، كما قال المصنف -رحمه الله-.

(٢) رواه البخارى [٣٤١٦]، ومسلم [٢٣٧٦]، وأحمد (٢/٤٠٥)، من حديث أبى هريرة رضي الله عنه.

واللفظ الآخر: رواه البخارى [٤٦٠٤].

وأخرج البخارى [٣٤١٣]، ومسلم [٢٣٧٧]، وأبو داود [٤٦٦٩]، وأحمد (١/٢٤٢)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً بلفظ: «**ما ينبغى لعبد أن يقول إنى خير من يونس بن متى**».

ورواه البخارى [٣٤١٢]، والنسائى فى «الكبرى» [١١٣٧]، وأحمد (١/٣٩٠)، =

على العموم، أى: لا ينبغى لأحد أن يفضل نفسه على يونس بن متى، ليس فيه نهى المسلمين أن يفضّلوا محمداً على يونس، وذلك لأن الله تعالى قد أخبر عنه أنه التقمه الحوت وهومليم، أى: فاعل ما يلام عليه. وقال تعالى: ﴿**وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ**﴾ [الأنبياء: ٨٧]، فقد يقع فى نفس بعض الناس أنه أكمل من يونس، فلا يحتاج إلى هذا المقام، إذ لا يفعل ما يلام عليه. ومن ظن هذا فقد كذب، بل كل عبد من عباد الله يقول ما قال يونس: ﴿**لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ**﴾ [الأنبياء: ٨٧]، كما قال أول الأنبياء وآخرهم.

فأولهم: آدم عليه السلام. قد قال: ﴿**رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ**﴾ [الأعراف: ٢٣].

وآخرهم وأفضلهم وخاتمهم وسيدهم: محمد ﷺ، قال فى الحديث الصحيح، حديث الاستفتاح، من رواية على بن أبى طالب رضي الله عنه وغيره، بعد قوله: «**وجهت وجهى**»، إلى آخره: «**اللهم أنت الملك لا إله إلا أنت، أنت ربى وأنا عبدك، ظلمت نفسى، واعترفت بذنبى، فاغفر لى ذنوبى جميعًا، لا يغفر الذنوب إلا أنت**»[1]، إلى آخر الحديث.

وكذا قال موسى عليه السلام: ﴿**رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ**

= من حديث ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً بلفظ: «**لا يقولن أحدكم إنى خير من يونس بن متى**».

(١) رواه مسلم [٧٧١]، وأبو داود [٧٦٠]، والترمذى [٣٤٢١، ٣٤٢٢، ٣٤٢٣]، والنسائى (٢/١٠٠)، وأحمد (١/٩٤، ١٠٢)، والطيالسى [١٥٢]، وأبو عوانة (١٠٢/١)، وابن خزيمة [٤٦٢]، وابن حبان [إحسان - ١٧٧١].

هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [القصص: ١٦]. وأيضا: فيونس ﷺ لما قيل فيه: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾ [القلم: ٤٨]، فنهى نبينا ﷺ عن التشبه به، وأمر بالتشبه بأولى العزم حيث قيل له: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، فقد يقول من يقول: أنا خير منه وليس للأفضل أن يفخر على من دونه، فكيف إذا لم يكن أفضل فإن الله لا يحب كل مختال فخور، وفي «صحيح مسلم» عن النبي ﷺ أنه قال: «**أوحي إلي أن تواضعوا، حتى لا يفخر أحد على أحد، ولا يبغي أحد على أحد**» [(١)]. فالله تعالى نهى أن يفخر على عموم المؤمنين، فكيف على نبي كريم؟ فلهذا قال: «**لا ينبغي لعبد أن يقول: أنا خير من يونس بن متى**» فهذا نهي عام لكل أحد أن يتفضل ويفتخر على يونس.

وقوله: «**من قال إني خير من يونس بن متى فقد كذب**» فإنه لو قدر أنه كان أفضل، فهذا الكلام يصير أنقص، فيكون كاذباً، وهذا لا يقوله نبي كريم، بل هو تقدير مطلق، أي: من قال هذا فهو كاذب، وإن كان لا يقوله نبي، كما قال تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥]. وإن كان ﷺ معصوماً من الشرك، لكن الوعد والوعيد لبيان مقادير الأعمال.

وإنما أخبر ﷺ أنه سيد ولد آدم؛ لأنا لا يمكننا أن نعلم ذلك إلا

---

(١) رواه مسلم [٢٨٦٥]، وأبو داود [٤٨٩٥]، وابن ماجه [٤١٧٩]، والبخاري في «الأدب» [٤٢٨]، والطبراني في «الكبير» (١٧/٣٦٤)، وأبو نعيم في «الحلية» (١٧/٢).
وهو إحدى طرق حديث عياض بن حمار ﷺ الذي سبق تخريجه (١/٢٦).

بخبره؛ إذ لا نبى بعده يخبرنا بعظيم قدره عند الله، كما أخبرنا هوبفضائل الأنبياء قبله، صلى الله عليهم وسلم أجمعين؛ ولهذا أتبعه بقوله «**ولا فخر**» كما جاء فى رواية. وهل يقول من يؤمن بالله واليوم الآخر: إن مقام الذى أسرى به الى ربه وهومقرب معظم مكرم ـ كمقام الذى ألقى فى بطن الحوت وهومليم؟ وأين المعظم المقرب من الممتحن المؤدب؟ فهذا فى غاية التقريب وهذا فى غاية التأديب، فانظر إلى هذا الاستدلال؛ بهذا المعنى المحرف للفظ لم يقله الرسول، وهل يقاوم هذا الدليل على نفى علوالله تعالى عن خلقه الأدلة الصحيحة الصريحة القطعية على علوالله تعالى على خلقه، التى تزيد على ألف دليل، كما يأتى الإشارة إليها عند قول الشيخ رحمه الله «محيط بكل شئ وفوقه»، إن شاء الله تعالى.

قوله: «**وحبيب رب العالمين**».

ش: ثبت له ﷺ أعلى مراتب المحبة وهى الخلة، كما صح عنه ﷺ أنه قال: «**إن الله اتخذنى خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً**» [(1)]. وقال: «**ولوكنت متخذاً من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكن صاحبكم خليل الرحمن**» [(2)] والحديثان فى الصحيح وهما يبطلان قول من قال: الخلة لإبراهيم والمحبة لمحمد، فإبراهيم خليل الله ومحمد حبيبه. وفى

---

(1) رواه مسلم [٥٣٢]، والنسائى فى «الكبرى» [١١١٢٣]، وأبو عوانة (١/ ٤٠١)، وابن حبان [إحسان ـ ٦٤٢٥]، والطبرانى فى «الكبير» [١٦٨٦]، من حديث جندب ابن عبد الله رضي الله عنه.

(2) رواه مسلم [٢٣٨٣]، والترمذى [٣٦٥٥]، والنسائى فى «الكبرى» [٨١٠٥]، وابن ماجه [٩٣]، وأحمد (١/ ٣٧٧)، وأبو يعلى [٥١٨٠]، والحميدى [١١٣]، وابن حبان [إحسان ـ ٦٨٥٥]، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

الصحيح أيضاً: «إني أبرأ إلى كل خليل من خلته»[1].

والمحبة قد ثبتت لغيره. قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤]. ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ٧٦]. ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

فبطل قول من خص الخلة بإبراهيم والمحبة بمحمد، بل الخلة خاصة بهما، والمحبة عامة. وحديث ابن عباس رضي الله عنهما الذي رواه الترمذي الذي فيه: «إن ابراهيم خليل الله، ألا وأنا حبيب الله ولا فخر»[2]: لم يثبت.

والمحبة مراتب:

أولها: العلاقة، وهي تعلق القلب بالمحبوب.

والثانية الإرادة: وهي: ميل القلب إلى محبوبه وطلبه له.

الثالثة: الصبابة، وهي: انصباب القلب إليه بحيث لا يملكه صاحبه، كانصباب الماء في الحدور.

الرابعة: الغرام، وهي: الحب اللازم للقلب، ومنه الغريم، لملازمته، ومنه: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ [الفرقان: ٦٥].

الخامسة: المودة والود، وهي: صفو المحبة وخالصها ولبها، قال

---

(١) هو طرف من حديث ابن مسعود رضي الله عنه السابق.

(٢) **ضعيف**. رواه الترمذي [٣٦١٦]، والدارمي [٤٨]، من طريق زمعة بن أبي صالح، عن سلمة بن وهرام، عن عكرمة، عن ابن عباس رضي الله عنهما به.
وإسناده ضعيف، فيه زمعة بن أبي صالح، وهو ضعيف، وروايته عن سلمة بن وهرام ضعيفة. قال أحمد بن حنبل: روى عنه زمعة أحاديث مناكير أخشى أن يكون حديثه ضعيفاً. اهـ. (الجرح والتعديل - ٤ / ١٧٥)، وانظر «تهذيب الكمال» (١١ / ٣٢٩).
قال الترمذي: حديث غريب.

تعالى: ﴿ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ﴾ [مريم: ٩٦].

السادسة: الشغف، وهى: وصول المحبة إلى شغاف القلب.

السابعة: العشق: وهوالحب المفرط الذى يخاف على صاحبه منه، ولكن لا يوصف به الرب تعالى ولا العبد فى محبة ربه، وإن كان قد أطلقه بعضهم. واختلف فى سبب المنع، فقيل: عدم التوقيف، وقيل غير ذلك. ولعل امتناع إطلاقه : أن العشق محبة مع شهوة.

الثامنة: التتيم، وهوبمعنى التعبد.

التاسعة: التعبد.

العاشرة: الخلة، وهى المحبة التى تخللت روح المحب وقلبه.

وقيل فى ترتيبها غير ذلك. وهذا الترتيب تقريب حسن، يعرف حسنه بالتأمل فى معانيه.

واعلم أن وصف الله تعالى بالمحبة والخلة هوكما يليق بجلال الله تعالى وعظمته، كسائر صفاته تعالى، وإنما يوصف الله تعالى من هذه الأنواع بالإرادة والود والمحبة والخلة، حسبما ورد النص.

وقد اختلف فى تحديد المحبة على أقوال نحوثلاثين قولاً. ولا تحد المحبة بحد أوضح منها، فالحدود لا تزيدها إلا خفاء. وهذه الأشياء الواضحة لا تحتاج إلى تحديد كالماء والهواء والتراب والجوع ونحوذلك.

قوله: «**وكل دعوى النبوة بعده فغى وهوى**».

ش: لما ثبت أنه خاتم النبيين، علم أن من ادعى بعده النبوة فهوكاذب، ولا يقال: فلوجاء المدعى للنبوة بالمعجزات الخارقة

والبراهين الصادقة كيف يقال بتكذيبه؟ لأنا نقول: هذا لا يتصور أن يوجد، وهو من باب فرض المحال؛ لأن الله تعالى لما أخبر أنه خاتم النبيين، فمن المحال أن يأتي مدع يدعى النبوة ولا تظهر أمارة كذبه في دعواه. والغي: ضد الرشاد. والهوى: عبارة عن شهوة النفس، أي: أن تلك الدعوى بسبب هوى النفس لا عن دليل، فتكون باطلة.

قوله: «**وهو المبعوث إلى عامة الجن وكافة الورى، بالحق والهدى، وبالنور والضياء**».

ش: أما كونه مبعوثاً إلى عامة الجن، فقال تعالى حكاية عن قول الجن: ﴿**يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ**﴾ [الأحقاف: ٣١] الآية. وكذا سورة الجن تدل على أنه أُرسل إليهم أيضاً. قال مقاتل: لم يبعث الله رسولاً إلى الإنس والجن قبله. وهذا قول بعيد. فقد قال تعالى: ﴿**يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ**﴾ [الأنعام: ١٣٠] الآية، والرسل من الإنس فقط، وليس من الجن رسول، كذا قال مجاهد وغيره من السلف والخلف. وقال ابن عباس ﷺ: الرسل من بني آدم، ومن الجن نذر، وظاهر قوله تعالى حكاية عن الجن: ﴿**إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَى**﴾ [الأحقاف: ٣٠] الآية: تدل على أن موسى مرسل إليهم أيضا. والله أعلم.

وحكى ابن جرير عن الضحاك بن مزاحم: أنه زعم أن في الجن رسلا، واحتج بهذه الآية الكريمة. وفي الاستدلال بها على ذلك نظر؛ لأنها محتملة وليست بصريحة، وهي - والله أعلم - كقوله: ﴿**يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ**﴾ [الرحمن: ٢٢] والمراد: من أحدهما.

وأما كونه مبعوثاً إلى كافة الورى، فقد قال: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً**

لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً﴾ [سبأ: ٢٨]، وقد قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً﴾ [الأعراف: ١٥٨]. وقال تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]. أى: وأنذر من بلغه، وقال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيداً﴾ [النساء: ٧٩]. وقال تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ الآية [يونس: ٢]. وقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً﴾ [الفرقان: ١]. وقد قال تعالى: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ﴾ [آل عمران: ٢٠]. وقال ﷺ: «**أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلى: نُصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً، فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لى الغنائم، ولم تحل لأحد من قبلى، وأُعطيت الشفاعة، وكان النبى يبعث الى قومه خاصة وبُعثت إلى الناس عامة**» (١) أخرجاه فى «الصحيحين».

وقال ﷺ: «**لا يسمع بى رجل من هذه الأمة يهودى ولا نصرانى ثم لا يؤمن بى إلا دخل النار**» (٢) رواه مسلم.

وكونه ﷺ مبعوثاً إلى الناس كافة معلوم من دين الإسلام بالضرورة.

---

(١) رواه البخارى [٣٣٥]، ومسلم [٥٢١]، والنسائى (١/١٧٢)، وأحمد (٣/٣٠٤)، وعبد بن حميد [١١٥٤]، والدارمى [١٣٩٦]، وابن أبى شيبة (١١/٤٣٢)، وابن حبان [إحسان - ٦٣٩٨]، والبيهقى (١/٢١٢)، من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

(٢) رواه مسلم [١٥٣]، وأحمد (٢/٣٥٠)، وأبو عوانة (١/١٠٤)، وابن منده فى «الإيمان» [٤٠١]، وفى «التوحيد» [١٥١، ١٥٢]، من حديث أبى هريرة رضي الله عنه.

وأما قـول بعض النصـارى إنه رسـول إلى العـرب خـاصـة؛ فظاهر البطلان فإنهم لما صدقوا بالرسالة لزمهم تصديقه فى كل ما يخبر به. وقد قال إنه رسول الله إلى الناس عامة، والرسول لا يكذب، فلزم تصديقه حتماً فقد أرسل رسله وبثَّ كتبه فى أقطار الأرض إلى كسرى وقيصر والنجاشى والمقوقس وسائر ملوك الأطراف، يدعو إلى الإسلام.

وقوله: «وكافة الورى». فى جر كافة نظر، فإنهم قالوا: لم تستعمل «كافة» فى كلام العرب إلا حالاً، واختلفوا فى إعرابها فى قوله تعالى: ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ** ﴾ [سبأ: ٢٨]، على ثلاثة أقوال:

أحدها: أنها حال من الكاف فى «أرسلناك» وهى اسم فاعل والتاء فيها للمبالغة، أى: إلا كافًّا للناس عن الباطل، وقيل: هى مصدر كفَّ، فهى بمعنى كفا أى: إلا أن تكف الناس كفاً، ووقوع المصدر حالاً كثير.

الثانى: أنها حال من «الناس». واعترض بأن حال المجرور لا يتقدم عليه عند الجمهور، وأجيب بأنه قد جاء عن العرب كثيراً فوجب قبوله، وهواختيار ابن مالك [١] رحمه الله، أى: وما أرسلناك إلا للناس كافة.

الثالث: أنها صفة لمصدر محذوف، أى: إرسالة كافة. واعترض بما تقدم أنها لم تستعمل إلا حالاً.

---

(١) هو جمال الدين، محمد بن عبد الله بن عبد الله بن مالك، الإمام العلامة، أبو عبد الله الشافعى النحوىّ، أتقن لسان العرب حتى بلغ فيه الغاية، وكان إماماً فى القراءات وعللها، وإليه المنتهى فى اللغة. توفى سنة (٦٧٢ هـ) بدمشق. (الوافى - ٣/٣٥٩).

وقوله: «بالحق والهدى وبالنور والضياء». هذه أوصاف ما جاء به رســـول الله ﷺ من الدين والشرع المؤيد بالبراهين الباهرة من القرآن وسائر الأدلة. والضياء: أكمل من النور قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس: ٥].

قـــوله : «**وإن القرآن كلام الله منه بدا بلاكيفية قولاً، وأنزله على رسوله وحياً، وصدقه المؤمنون على ذلك حقاً، وأيقنوا أنه كلام الله تعالى بالحقيقة، ليس بمخلوق ككلام البرية. فمن سمعه فزعم أنه كلام البشر فقد كفر، وقد ذمه الله وعابه وأوعده بسقر حيث قال تعالى: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾[المدثر: ٢٦]، فلما أوعد الله بسقر لمن قال: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ [المدثر: ٢٥]، علمنا وأيقنا أنه قول خالق البشر ولا يشبه قول البشر**».

ش: هذه قاعدة شريفة، وأصل كبير من أصول الدين ضل فيه طوائف كثيرة من الناس. وهذا الذى حكاه الطحاوى - رحمه الله - هوالحق الذى دلت عليه الأدلة من الكتاب والسنة لمن تدبرهما، وشهدت به الفطرة السليمة التى لم تغيَّر بالشبهات والشكوك والآراء الباطلة.

وقد افترق الناس فى مسألة الكلام على تسعة أقوال:

أحدها: أن كلام الله هوما يفيض على النفوس من المعانى، إما من العقل الفعال عند بعضهم، أومن غيره وهذا قول الصابئة والمتفلسفة.

وثانيها: أنه مخلوق خلقه الله منفصلاً عنه؛ وهذا قول المعتزلة.

وثالثها: أنه معنى واحد قائم بذات الله هو: الأمر والنهى والخبر

والاستخبار، وإن عبر عنه بالعربية كان قرآناً، وإن عبر عنه بالعبرانية كان توراة، وهذا قول ابن كلاب ومن وافقه، كالأشعرى وغيره.

ورابعها: أنه حروف وأصوات أزلية مجتمعة فى الأزل، وهذا قول طائفة من أهل الكلام، ومن أهل الحديث.

وخامسها: أنه حروف وأصوات، لكن تكلم الله بها بعد أن لم يكن متكلماً، وهذا قول الكرامية وغيرهم.

وسادسها: أن كلامه يرجع إلى ما يحدثه من علمه وإرادته القائم بذاته، وهذا يقول صاحب: «المعتبر» ويميل إليه الرازى فى «المطالب العالية».

وسابعها: أن كلامه يتضمن معنى قائماً بذاته هوما خلقه فى غيره، وهذا قول أبى منصور الماتريدى.

وثامنها: أنه مشترك بين المعنى القديم القائم بالذات، وبين ما يخلقه فى غيره من الأصوات، وهذا قول أبى المعالى ومن تبعه.

تاسعها: أنه تعالى لم يزل متكلماً إذا شاء ومتى شاء وكيف شاء، وهويتكلم به بصوت يسمع، وأن نوع الكلام قديم، وإن لم يكن الصوت المعين قديماً، وهذا المأثور عن أئمة الحديث والسنة.

وقول الشيخ - رحمه الله - «وإن القرآن كلام الله» إن بكسر الهمزة عطف على قوله: «إن الله واحد لا شريك له» ثم قال: «وإن محمداً عبده المصطفى» وكسر همزة إن فى المواضع الثلاثة. لأنها معمول القول، أعنى قوله فى أول كلامه: «نقول فى توحيده الله».

قوله: « كلام الله منه بدا بلا كيفية قولاً » رد على المعتزلة وغيرهم، فإن المعتزلة تزعم أن القرآن لم يَبْدُ منه، كما تقدم حكاية قولهم، قالوا: « وإضافته إليه إضافة تشريف، كبيت الله، وناقة الله » . يحرفون الكلام عن مواضعه. وقولهم باطل.

فإن المضاف إلى الله تعالى معان وأعيان، فإضافة الأعيان إلى الله للتشريف، وهى مخلوقة له، كبيت الله، وناقة الله، بخلاف إضافة المعانى، كعلم الله، وقدرته، وعزته، وجلاله، وكبريائه، وكلامه وحياته، وعلوه وقهره؛ فإن هذا كله من صفاته، لا يمكن أن يكون شئ من ذلك مخلوقا.

والوصف بالتكلم من أوصاف الكمال، وضده من أوصاف النقص. قال تعالى: ﴿ **وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لا يُكَلِّمُهُمْ وَلا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً** ﴾ [الأعراف: ١٤٨]، فكان عباد العجل - مع كفرهم - أعرف بالله من المعتزلة، فإنهم لم يقولوا لموسى: وربك لا يتكلم أيضاً. وقال تعالى عن العجل أيضاً: ﴿ **أَفَلا يَرَوْنَ أَلاَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً وَلا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا** ﴾ [طه: ٨٩]. فعلم أن نفى رجوع القول، ونفى التكلم نقص يُستدل به على عدم ألوهية العجل.

وغاية شبهتهم أنهم يقولون: يلزم منه التشبيه والتجسيم؟ فيقال لهم: إذا قلنا: إنه تعالى يتكلم كما يليق بجلاله انتفت شبهتهم. ألا ترى أنه تعالى قال: ﴿ **الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم** ﴾ [يس: ٦٥]. فنحن نؤمن أنها تكلم، ولا نعلم كيف تتكلم، وكذا قوله تعالى: ﴿ **وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي**

أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [فصلت: ٢١]. وكذلك تسبيح الحصا [1] والطعام [2]، وسلام الحجر [3]، كل ذلك بلا فم يخرج منه الصوت الصاعد من الرئة المعتمد على مقاطع الحروف.

وإلى هذا أشار الشيخ - رحمه الله - بقوله: «منه بدا بلا كيفية قولاً»، أي: ظهر منه ولا يدرى كيفية تكلمه به، وأكد هذا المعنى بقوله «قولاً»، أتى بالمصدر المعرف للحقيقة، كما أكد الله تعالى التكليم بالمصدر المثبت للحقيقة النافي للمجاز في قوله: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ

---

(١) **صحيح**. رواه البزار [كشف الاستار - ٢٤١٣]، والبيهقي في «الدلائل» (٦/ ٦٤)، من طريق قريش بن أنس، عن صالح بن أبي الأخضر، عن الزهري، عن سويد بن يزيد، عن أبي ذر رضي الله عنه وفيه: فتناول النبي ﷺ سبع حصيات - أو سبع حُصيات - فسبحن في يده حتى سمعت لهن حَنيناً كحنين النحل - الحديث.

وإسناده صحيح، كما قال الهيثمي في «المجمع» (٥/ ١٧٩). قريش بن أنس صدوق، تغير بأخرة، وصالح بن أبي الأخضر ضعيف يعتبر به، وقد توبع، رواه الطبراني في «الأوسط» [٤٠٩٧]، من طريق عبد الله بن وهب عن محمد بن أبي حميد عن الزهري، عن ابن المسيب، عن أبي ذر رضي الله عنه به. ومحمد بن أبي حميد ضعيف كما في «التقريب».

ورواه الطبراني في «الأوسط» [١٢٤٤]، من طريق حميد بن مهران، عن داود بن أبي هند، عن رجل من أهل الشام - يعني: الوليد بن عبد الرحمن الجرشي -، عن جبير بن نفير، عن أبي ذر رضي الله عنه قال: إني لشاهد عند النبي ﷺ في حلقة، وفي يده حصى، فسبحن في يده - الحديث، وإسناده صحيح، رجاله ثقات.

(٢) رواه البخاري [٣٥٧٩]، والترمذي [٣٦٣٣]، وأحمد (١/ ٤٦٠)، وابن أبي شيبة (١١/ ٤٧٤)، والدارمي [٢٩]، والبيهقي في «الدلائل» (٤/ ١٢٩)، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: كنا نعد الآيات بركة، وأنتم تعدونها تخويفاً - الحديث، وفيه: ولقد كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل.

ورواه ابن حبان [إحسان - ٦٤٩٣]، مقتصراً على وجه الشاهد.

(٣) رواه مسلم [٢٢٧٧]، والترمذي [٣٦٢٤]، وأحمد (٥/ ٨٩، ١٠٥)، والدارمي [٢٠]، وابن أبي شيبة (١١/ ٤٦٤)، والطيالسي [١٩٠٧]، وابن حبان [إحسان - ٦٤٨٢]، من حديث جابر بن سمرة رضي الله عنه. قال: قال رسول الله ﷺ: «**إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلم عليّ قبل أن أبعث إني لأعرفه الآن**».

مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ [النساء: ١٦٤]. فماذا بعد الحق إلا الضلال؟!.

ولقد قال بعضهم لأبى عمرو بن العلاء [١] ـ أحد القراء السبعة ـ: أريد أن تقرأ: وكلَّم اللهَ موسى، بنصب اسم الله؛ ليكون موسى هوالمتكلم لا الله. فقال له أبوعمرو: هب أنى قرأت هذه الآية كذا، فكيف تصنع بقوله تعالى: ﴿ **وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ** ﴾ [الأعراف: ١٤٣]؟! فبهت المعتزلى!.

وكم فى الكتاب والسنة من دليل على تكليم الله تعالى لأهل الجنة وغيرهم. قال تعالى: ﴿ **سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ** ﴾ [يس: ٥٨]، فعن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**بينا أهل الجنة فى نعيمهم إذ سطع لهم نور، فرفعوا أبصارهم، فإذا الرب جل جلاله قد أشرف عليهم من فوقهم، فقال: السلام عليكم يا أهل الجنة، وهو قول الله تعالى:** ﴿ **سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ** ﴾ [يس: ٥٨]، **قال: فينظر إليهم وينظرون إليه فلا يلتفتون الى شئ مما هم فيه من النعيم، ما داموا ينظرون اليه، حتى يحتجب عنهم، وتبقى بركته ونوره عليهم فى ديارهم**» [٢]. رواه ابن ماجة وغيره.

---

(١) هو ابن عمار بن العريان التميمي، ثم المازنى البصرىّ، شيخ القراء والعربية، ولد فى نحو سنة (٧٠ هـ)، وتوفى سنة (١٥٤ هـ).

(٢) **ضعيف**. رواه ابن ماجه [١٨٤]، والبزار [كشف الأستار ـ ٢٢٥٣]، والعقيلى فى «الضعفاء» (٢ / ٢٧٤)، وابن عدى فى «الكامل» (٦ / ٢٠٣٩)، والبيهقى فى «البعث» [٤٤٨]، من طريق أبى عاصم العبادانى، عن الفضل الرقاشى، عن محمد بن المنكدر، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه به.
وإسناده ضعيف، فيه أبو عاصم عبد الله بن عبيد الله وهو لين الحديث. وشيخه الفضل ابن عيسى الرقاشى منكر الحديث كما فى «التقريب».
والحديث ضعفه الذهبى فى «العلو» (ص: ٢٣)، والبوصيرى فى «الزوائد» [٦٩]، وقال ابن كثير فى «التفسير» (٣ / ٥٧٦): فى إسناده نظر. اهـ.

ففى هذا الحديث: إثبات صفة الكلام، وإثبات الرؤية، واثبات العلو، وكيف يصح مع هذا أن يكون كلام الرب كله معنى واحداً! قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلاً أُوْلَئِكَ لا خَلاقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ﴾ [آل عمران: ٧٧]، فأهانهم بترك تكليمهم. والمراد: أنه لا يكلمهم تكليم تكريم، وهوالصحيح، إذ قد أخبر فى الآية الأخرى أنه يقول لهم فى النار: ﴿قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨]، فلوكان لا يكلم عباده المؤمنين، لكانوا فى ذلك هم وأعداؤه سواء، ولم يكن فى تخصيص أعدائه بأنه لا يكلمهم فائدة أصلاً.

وقال البخارى فى «صحيحه»: باب كلام الرب تبارك وتعالى مع أهل الجنة، وساق فيه عدة أحاديث. فأفضل نعيم أهل الجنة رؤية وجهه تبارك وتعالى، وتكليمه لهم، فإنكار ذلك إنكار لروح الجنة، وأعلى نعيمها وأفضله الذى ما طابت لأهلها إلا به.

وأما استدلالهم بقوله تعالى: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الزمر: ٦٢]، والقرآن شيء، فيكون داخلاً فى عموم «كل» فيكون مخلوقا!! فمن أعجب العجب، وذلك: أن أفعال العباد كلها عندهم غير مخلوقة لله تعالى وإنما يخلقها العباد جميعها، لا يخلقها الله فأخرجوها من عموم «كل»، وأدخلوا كلام الله فى عمومها مع أنه صفة من صفاته، به تكون الأشياء المخلوقة؛ إذ بأمره تكون المخلوقات، قال تعالى: ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ﴾ [الأعراف: ٥٤]. ففرق بين الخلق والأمر، فلوكان الأمر مخلوقاً، للزم أن يكون مخلوقاً بأمر آخر، والآخر بآخر، إلى مالا نهاية له، فيلزم التسلسل، وهوباطل. وطرد باطلهم: أن تكون

جميع صفاته « تعالى » مخلوقة، كالعلم والقدرة وغيرهما وذلك صريح الكفر، فإن علمه شيء، وقدرته شيء، وحياته شيء، فيدخل ذلك فى عموم « كل »، فيكون مخلوقاً بعد أن لم يكن، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

وكيف يصح أن يكون متكلماً بكلام يقوم بغيره؟! ولوصح ذلك للزم أن يكون ما أحدثه من الكلام فى الجمادات كلامه. وكذلك أيضاً ما خلقه فى الحيوانات، ولا يُفرَّق حينئذ بين نطق وأنطق. وإنما قالت الجلود: ﴿ أَنطَقَنَا اللَّهُ ﴾ [فصلت: ٢١]، ولم تقل: نطق الله، بل يلزم أن يكون متكلماً بكل كلام خلقه فى غيره، زوراً كان أوكذباً أوكفراً أوهذياناً... تعالى الله عن ذلك. وقد طرد ذلك الاتحادية، فقال ابن عربى:

وَكُلُّ كَلَامٍ فِى الْوُجُودِ كَلَامُهُ   سَوَاءٌ عَلَيْنَـــــا نَثْرُهُ وَ نِظَامُهُ!!

ولوصح أن يوصف أحد بصفة قامت بغيره، لصح أن يقال للبصير: أعمى، وللأعمى: بصير؛ لأن البصير قد قام وصف العمى بغيره، والأعمى قد قام وصف البصر بغيره! ولصح أن يوصف الله تعالى بالصفات التى خلقها فى غيره، من الألوان والروائح والطعوم والطول والقصر ونحوذلك.

وبمثل ذلك ألزم الامام عبد العزيز المكى [(١)] بشراً المريسى بين يدى المأمون بعد أن تكلم معه ملتزماً أن لا يخرج عن نص التنزيل، وألزمه الحجة، فقال بشر: يا أمير المؤمنين، ليدع مطالبتى بنص التنزيل،

---

(١) سبق ترجمته (١٠١/١).

ويناظرني بغيره، فإن لم يدع قوله ويرجع عنه، ويقر بخلق القرآن الساعة وإلا فدمي حلال. قال عبد العزيز: تسألني أم أسألك؟ فقال بشر: اسأل أنت، وطمع في فقلت له: يلزمك واحدة من ثلاث لابد منها: إما أن تقول: إن الله خلق القرآن - وهوعندي أنا كلامه في نفسه - أوخلقه قائماً بذاته ونفسه، أوخلقه في غيره؟ قال: أقول: خلقه كما خلق الأشياء كلها. وحاد عن الجواب. فقال المأمون: اشرح أنت هذه المسألة ودع بشراً فقد انقطع، فقال عبد العزيز: إن قال خلق كلامه في نفسه، فهذا محال؛ لأن الله لا يكون محلاً للحوادث المخلوقة، ولا يكون منه شئ مخلوقاً، وإن قال خلقه في غيره فيلزم في النظر والقياس أن كل كلام خلقه الله في غيره؛ فهوكلامه، وإن قال خلقه قائماً بنفسه وذاته، فهذا محال: ولا يكون الكلام إلا من متكلم، كما لا تكون الإرادة الا من مريد، ولا العلم إلا من عالم، ولا يعقل كلام قائم بنفسه يتكلم بذاته. فلما استحال من هذه الجهات أن يكون مخلوقاً، علم أنه صفة لله. هذا مختصر من كلام الإمام عبد العزيز في «الحيدة».

وعموم «كل» في كل موضع بحسبه، ويعرف ذلك بالقرائن. ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿**تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لا يُرَىٰ إِلاَّ مَسَاكِنُهُمْ**﴾ [الأحقاف: ٢٥]، ومساكنهم شيء، ولم تدخل في عموم كل شئ دمرته الريح؟ وذلك لأن المراد تدمر كل شئ يقبل التدمير بالريح عادة وما يستحق التدمير، وكذا قوله تعالى حكاية عن بلقيس: ﴿**وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ**﴾ [النمل: ٢٣]، المراد من كل شئ يحتاج إليه الملوك، وهذا القيد يفهم من قرائن الكلام، إذ مراد الهدهد أنها ملكة كاملة في أمر الملك، غير محتاجة إلى ما يكمل به أمر ملكها؛ ولهذا

نظائر كثيرة.

والمراد من قوله تعالى، ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الزمر: ٦٢] أي: كل شئ مخلوق، وكل موجود سوى الله تعالى فهومخلوق، فدخل في هذا العموم أفعال العباد حتماً، ولم يدخل في العموم الخالق تعالى، وصفاته ليست غيره؛ لأنه سبحانه وتعالى هوالموصوف بصفات الكمال، وصفاته ملازمة لذاته المقدسة، لا يتصور انفصال صفاته عنه، كما تقدم الإشارة إلى هذا المعنى عند قوله: «ما زال قديما بصفاته قبل خلقه». بل نفس ما استدلوا به يدل عليهم. فإذاكان قوله تعالى: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ مخلوقاً، لا يصح أن يكون دليلاً.

وأما استدلالهم بقوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ [الزخرف: ٣]، فما أفسده من استدلال! فإن «جعل» إذا كان بمعنى «خلق» يتعدى إلى مفعول واحد، كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ [الأنعام: ١]. وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ * وَجَعَلْنَا فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾ [الأنبياء: ٣٠-٣١]. وإذا تعدى إلى مفعولين لم يكن بمعنى خلق، قال تعالى: ﴿وَلا تَنقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً﴾ [النحل: ٩١]. وقال تعالى: ﴿وَلا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لأَيْمَانِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٤]. وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ [الحجر: ٩١]. وقال تعالى: ﴿وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ [الإسراء: ٢٩]. وقال تعالى: ﴿وَلا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ [الإسراء: ٣٩]. وقال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا﴾ [الزخرف: ١٩]. ونظائره كثيرة، فكذا قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ [الزخرف: ٣].

وما أفسد استدلالهم بقوله تعالى: ﴿نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ﴾ [القصص: ٣٠]. على أن الكلام خلقه الله تعالى فى الشجرة، فسمعه موسى منها! وعموا عما قبل هذه الكلمة وما بعدها، فإن الله تعالى قال: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الأَيْمَنِ﴾ والنداء: هو الكلام من بُعد، فسمع موسى عليه السلام النداء من حافة الوادى، ثم قال: ﴿فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ﴾ أى: أن النداء كان فى البقعة المباركة من عند الشجرة كما تقول سمعت كلام زيد من البيت، يكون من البيت لابتداء الغاية، لا أن البيت هو المتكلم، ولو كان الكلام مخلوقاً فى الشجرة، لكانت الشجرة هى القائلة: ﴿يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [القصص: ٣٠]. وهل قال: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾. غير رب العالمين! ولو كان هذا الكلام بدا من غير الله، لكان قول فرعون: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤]. صدقاً إذ كل من الكلامين عندهم مخلوق قد قاله غير الله. وقد فرقوا بين الكلامين على أصولهم الفاسدة: أن ذاك كلام خلقه الله فى الشجرة، وهذا كلام خلقه فرعون!! فحرفوا وبدلوا واعتقدوا خالقاً غير الله وسيأتى الكلام على مسألة أفعال العباد إن شاء الله تعالى.

فإن قيل: فقد قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [الحاقة: ٤٠]. ، وهذا يدل على أن الرسول أحدثه، إما جبرائيل أو محمد ﷺ.

قيل: ذكر الرسول معرف أنه مبلغ عن مرسله؛ لأنه لم يقل: إنه قول ملك أو نبى، فعلم أنه بلغه عمن أرسله به، لا أنه أنشأه من جهة نفسه.

وأيضاً: فالرسول فى إحدى الآيتين جبريل، وفى الأخرى: محمد،

فإضافته إلى كل منهما تبين أن الاضافة للتبليغ. إذ لو أحدثه أحدهما امتنع أن يحدثه الآخر

وأيضاً: فقوله: رسول أمين، دليل على أنه لا يَزيد فى الكلام الذى أرسل بتبليغه ولا ينقص منه. بل هو أمين على ما أرسل به يبلغه عن مرسله.

وأيضاً. فإن الله قد كفر من جعله قول البشر، ومحمد ﷺ بشر، فمن جعله قول محمد، بمعنى أنه أنشأه ـ فقد كفر. لا فرق بين أن يقول: إنه قول بشر، أو جنى أو ملك، والكلام كلام من قاله مبتدئاً، لا من قاله مبلغاً. ومن سمع قائلاً يقول:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل

قال: هذا شعر امرئ القيس، ومن سمعه يقول: «**إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى**» [1] قال: هذا كلام الرسول، وإن سمعه يقول: ﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ * إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾ [الفاتحة: ٢ ـ ٥] ـ: قال: هذا كلام الله، إن كان عنده خبر ذلك، وإلا قال: لا أدرى كلام من هذا؟ ولو أنكر عليه أحد ذلك لكذبه؛ ولهذا من سمع من غيره نظما أو نثرا، يقول له: هذا كلام من؟ هذا كلامك أو كلام غيرك؟

و بالجملة، فأهل السنة كلهم، من أهل المذاهب الأربعة وغيرهم

---

(١) رواه البخارى [١]، ومسلم [١٩٠٧]، وأبو داود [٢٢٠١]، والترمذى [١٦٤٧]، والنسائى (١/٥١)، وابن ماجه [٤٢٢٧]، وأحمد (١/٢٥، ٤٣)، من حديث عمر ابن الخطاب ﷺ.

من السلف والخلف، متفقون على أن القرآن كلام الله غير مخلوق. ولكن بعد ذلك تنازع المتأخرون فى أن كلام الله هل هو معنى واحد قائم بالذات، أو أنه حروف وأصوات تكلم الله بها بعد أن لم يكن متكلماً، أو أنه لم يزل متكلماً إذا شاء ومتى شاء وكيف شاء وأن نوع الكلام قديم؟.

وقد يطلق بعض المعتزلة على القرآن أنه غير مخلوق، ومرادهم أنه غير مختلق مفترى مكذوب، بل هو حق وصدق ولا ريب أن هذا المعنى منتف باتفاق المسلمين.

والنزاع بين أهل القبلة إنما هو فى كونه مخلوقاً خلقه الله، أو هو كلامه الذى تكلم به وقام بذاته؟ وأهل السنة إنما سئلوا عن هذا، وإلا فكونه مكذوباً مفترى مما لا ينازع مسلم فى بطلانه. ولا شك أن مشايخ المعتزلة وغيرهم من أهل البدع معترفون بأن اعتقادهم فى التوحيد والصفات والقدر لم يتلقوه لا عن كتاب، ولا سنة، ولا عن أئمة الصحابة والتابعين لهم بإحسان، وإنما يزعمون أن عقلهم دلهم عليه، وإنما يزعمون أنهم تلقوا من الأئمة الشرائع.

ولو ترك الناس على فطرهم السليمة وعقولهم المستقيمة، لم يكن بينهم نزاع، ولكن ألقى الشيطان إلى بعض الناس أغلوطة من أغاليطه فرق بها بينهم. ﴿ **وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ** ﴾ [البقرة: ١٧٦].

والذى يدل عليه كلام الطحاوى رحمه الله: أنه تعالى لم يزل متكلماً إذا شاء كيف شاء، وأن نوع كلامه قديم. وكذلك ظاهر كلام الإمام أبى حنيفة ﷺ فى «الفقه الأكبر»، فإنه قال: والقرآن كلام الله

فى المصاحف مكتوب، وفى القلوب محفوظ، وعلى الألسن مقروء، وعلى النبى ﷺ منزل، ولفظنا بالقرآن مخلوق وكتابتنا له مخلوقة، وقراءتنا له مخلوقة، والقرآن غير مخلوق، وما ذكره الله فى القرآن عن موسى عليه السلام وغيره من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وعن فرعون، وإبليس - فإن ذلك كله كلام الله إخباراً عنهم، وكلام الله غير مخلوق، وكلام موسى وغيره من المخلوقين مخلوق، والقرآن كلام الله لا كلامهم، وسمع موسى عليه السلام كلام الله تعالى، فلما كلم موسى كلمه بكلامه الذى هو من صفاته لم يزل، وصفاته كلها خلاف صفات المخلوقين، يعلم لا كعلمنا، ويقدر لا كقدرتنا، ويرى لا كرؤيتنا، ويتكلم لا ككلامنا. انتهى.

فقوله: ولما كلم موسى كلمه بكلامه الذى هو من صفاته - يعلم منه أنه حين جاء كلمه، لا أنه لم يزل ولا يزال أزلاً وأبداً يقول: يا موسى، كما يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿ **وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ** ﴾ [الأعراف: ١٤٣]. ففهم منه الرد على من يقول من أصحابه: أنه معنى واحد قائم بالنفس لا يتصور أن يسمع، وإنما يخلق الله الصوت فى الهواء، كما قال أبو منصور الماتريدى وغيره.

وقوله: الذى هو من صفاته لم يزل رد على من يقول إنه حدث له وصف الكلام بعد أن لم يكن متكلماً.

وبالجملة: فكل ما تحتج به المعتزلة مما يدل على أنه كلام متعلق بمشيئته وقدرته وأنه يتكلم إذا شاء، وأنه يتكلم شيئا بعد شىء، فهو حق يجب قبوله. وما يقول به من يقول: إن كلام الله قائم بذاته، وإنه صفة له. والصفة لا تقوم إلا بالموصوف فهو حق يجب قبوله والقول به.

فيجب الأخذ بما فى قول كل من الطائفتين من الصواب، والعدول عما يرده الشرع والعقل من قول كل منهما.

فإذا قالوا لنا: فهذا يلزم أن تكون الحوادث قامت به. قلنا: هذا القول مجمل، ومن أنكر قبلكم قيام الحوادث بهذا المعنى به تعالى من الأئمة؟ ونصوص القرآن والسنة تتضمن ذلك ونصوص الأئمة أيضاً مع صريح العقل.

ولاشك أن الرسل الذين خاطبوا الناس وأخبروهم أن الله قال، ونادى وناجى، ويقول، لم يفهموهم أن هذه مخلوقات منفصلة عنه، بل الذى أفهموهم إياه: أن الله نفسه هو الذى تكلم، والكلام قائم به لا بغيره، وأنه هو الذى تكلم به وقاله، كما قالت عائشة رضي الله عنها فى حديث الإفك: «ولشأنى فى نفسى كان أحقر من أن يتكلم الله فىَّ بوحى يتلى» [1]. ولو كان المراد من ذلك كله خلاف مفهومه لوجب بيانه، إذ تأخير البيان عن وقت الحاجة لا يجوز.

ولا يعرف فى لغة ولا عقل، قائل متكلم لا يقوم به القول والكلام وإنما قام الكلام بغيره وإن زعموا أنهم فروا من ذلك حذرا من التشبيه، فلا يثبتوا صفة غيره، فإنهم إذا قالوا: يعلم لا كعلمنا. قلنا: ويتكلم لا كتكلمنا، وكذلك سائر الصفات.

وهل يعقل قادر لا تقوم به القدرة، أوحى لا تقوم به الحياة؟! وقد

---

(١) رواه البخارى [٢٦٦١]، ومسلم [٢٧٧٠]، وأبو داود [٤٧٣٥]، وأحمد (٦/١٩٤).
ورواه الترمذى [٣١٨٠]، والنسائى فى «الكبرى» [١١٣٦٠]، مطولاً بدون وجه الشاهد.

قال ﷺ : «**أعوذ بكلمات الله التامات التى لايجاوزهن بر ولا فاجر**» [1] فهل يقول عاقل: إنه ﷺ عاذ بمخلوق؟! بل هذا كقوله: «**أعوذ برضاك من سخطك وأعوذ بمعافاتك من عقوبتك**» [2] وكقوله: «**أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر**» [3]، كقوله: «**وأعوذ بعظمتك أن نغتال من تحتنا**» [4] كل هذه من صفات الله تعالى. وهذه المعانى مبسوطة فى مواضعها، وإنما أشير إليها هنا إشارة.

وكثير من متأخرى الحنفية على أنه معنى واحد، والتعدد، والتكثر، والتجزئ، والتبعض فى الحاصل فى الدلالات، لا فى المدلول، هذه العبارات مخلوقة وسميت «كلام الله» لدلالتها عليه وتأديه بها، فإن عبر بالعربية فهو قرآن، وإن عبر بالعبرانية فهو توراة، فاختلفت العبارات لا الكلام، قالوا: وتسمى هذه العبارات كلام الله مجازاً.

وهذا الكلام فاسد، فإن لازمه أن معنى قوله: ﴿**وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ**﴾ [الإسراء: ٣٢]، هو معنى قوله: ﴿**وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ**﴾ [البقرة: ٤٣]، ومعنى آية الكرسى هو معنى آية الدين. ومعنى سورة الإخلاص هو معنى: ﴿**تَبَّتْ**

---

(١) **صحيح**.رواه أحمد (٤ / ٤١٩)، وأبو يعلى [٦٨٤٤]، وابن السنى فى «عمل اليوم والليلة» [٦٤٢]، وأبو نعيم فى «دلائل النبوة» (١ / ٦٠)، والبيهقى فى«دلائل النبوة» (٧ / ٩٥)، من طريق جعفر بن سليمان عن أبى التياح، عن عبد الرحمن بن حنبش رضي الله عنه.

وإسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الصحيح، غير جعفر بن سليمان فإنه صدوق روى له مسلم كما فى «التقريب».

قال العراقى فى «تخريج الإحياء» (الإتحاف ـ ٥ / ٣٨٤): إسناده جيد. اهـ.

(٢) سبق تخريجه (١ / ٨٢).

(٣) سبق تخريجه (١ / ٨٢).

(٤) سبق تخريجه (١ / ٨٢).

يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾ [المسد: ١] وكلما تأمل الإنسان هذا القول تبين له فساده، وعلم أنه مخالف لكلام السلف.

والحق: أن التوارة والإنجيل والزبور والقرآن من كلام الله حقيقة، وكلام الله تعالى لا يتناهى، فإنه لم يزل يتكلم بما شاء إذا شاء كيف شاء، ولا يزال كذلك. قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ [الكهف: ١٠٩]. وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [لقمان: ٢٧]. ولو كان ما فى المصحف عبارة عن كلام الله وليس هو كلام الله لما حرم على الجنب والمحدث مسه، ولو كان ما يقرأه القارئ ليس كلام الله لما حرم على الجنب قراءة القرآن، وإذا قيل المكتوب فى المصحف كلام، فهم منه معنى صحيح حقيقى.

بل كلام الله محفوظ فى الصدور، مقروء بالألسنة، مكتوب فى المصاحف، كما قال أبو حنيفة فى «الفقة الأكبر» وهو فى هذه المواضع كلها حقيقة، وإذا قيل: فيه خط فلان وكتابته فهم منه معنى صحيح حقيقى وإذا قيل: فيه مداد قد كتب به، فهم منه معنى صحيح حقيقى، وإذا قيل: المداد فى المصحف: كانت الظرفية فيه غير الظرفية المفهومة من قول القائل: فيه السماوات والأرض، وفيه محمد وعيسى ونحو ذلك. وهذان المعنيان مغايران لمعنى قول القائل فيه خط فلان الكاتب وهذه المعانى الثلاثة مغايرة لمعنى قول القائل: فيه كلام الله. ومن لم يتنبه للفروق بين هذه المعانى ضل ولم يهتد للصواب.

وكذلك الفرق بين القراءة التى هى فعل القارىء، والمقروء الذى هو قول البارى، من لم يهتد له فهو ضال أيضاً، ولو أن إنساناً وجد فى

ورقة مكتوباً:

ألا كل شئ ما خلا الله باطل [١]

من خط كاتب معروف لقال: هذا من كلام لبيد حقيقة، وهذا خط فلان حقيقة، وهذا كل شئ حقيقة، وهذا حبر حقيقة، ولا تشتبه هذه الحقيقة بالأخرى.

والقرآن في الأصل: مصدر، فتارة يذكر ويراد به القراءة، قال تعالى: ﴿**وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا**﴾ [الإسراء: ٧٨]. وقال ﷺ: «**زينوا القرآن بأصواتكم**» [٢] وتارة يذكر ويراد به المقروء، قال تعالى: ﴿**فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ**﴾ [النحل: ٩٨]. وقال تعالى: ﴿**وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ**﴾ [الأعراف: ٢٠٤]. وقال ﷺ: «**إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف**» [٣] إلى

---

(١) رواه البخاري [٣٨٤١]، ومسلم [٢٢٥٦]، والترمذي [٢٨٤٩]، وابن ماجه [٣٧٥٧]، وأحمد (٢/٤٤٤)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «**أصدق كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد**:

ألا كل شئ ما خلا الله باطلٌ

وتمام البيت:

وكل نعيم لا محالة زائلٌ

وصاحبه هو لبيد بن ربيعة. وانظر «شرح شذور الذهب» (١٢٢).

(٢) **صحيح**. رواه أبو داود [١٤٦٨]، والنسائي (٢/١٣٩)، وابن ماجه [١٣٤٢]، وأحمد (٤/٢٨٣)، وابن حبان [٧٤٩]، والحاكم (١/٥٧١)، من طريق طلحة بن مصرف، عن عبد الرحمن بن عوسجة، عن البراء رضي الله عنه به.

وإسناده صحيح، رجاله ثقات. قال ابن كثير في «التفسير» (٤/٦١٢): إسناده جيد. وصححه الزبيدي في «اتحاف السادة المتقين» (٥/٧٢).

وفي الباب من حديث عائشة، وأبي هريرة، وابن عباس، وابن مسعود رضي الله عنهم.

(٣) رواه البخاري [٢٤١٩]، ومسلم [٨١٨]، وأبو داود [١٤٧٥]، والترمذي [٢٩٤٣]، والنسائي (٢/١١٦)، وأحمد (١/٢٤، ٤٠)، ومالك (ص: ١٤٢)، =

غير ذلك من الآيات والأحاديث الدالة على كل من المعنيين المذكورين.
فالحقائق لها وجود عيني وذهني ولفظي ورسمي، ولكن الأعيان تعلم، ثم تذكر، ثم تكتب، فكتابتها في المصحف هي المرتبة الرابعة.

وأما الكلام فإنه ليس بينه وبين المصحف واسطة، بل هو الذي يكتب بلا واسطة ذهن ولا لسان. والفرق بين كونه في زبر الأولين، وبين كونه في رق منشور، أو في كتاب مكنون واضح.

فقوله عن القرآن: ﴿**وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ**﴾ [الشعراء: ١٩٦] أي: ذكره ووصفه والإخبار عنه، كما أن محمداً مكتوب عندهم؛ إذ القرآن أنزله الله على محمد، لم ينزله على غيره أصلاً؛ ولهذا قال لهم في الزبر، ولم يقل في الصحف؛ ولا في الرق، لأن «الزُّبُر» جمع «زبور» و«الزَّبْر» هو: الكتابة والجمع، فقوله: ﴿**وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ**﴾ أي: مزبور الأولين، ففي نفس اللفظ واشتقاقه ما يبين المعنى المراد، ويبين كمال بيان القرآن وخلوصه من اللبس. وهذا مثل قوله: ﴿**الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ**﴾ [الأعراف: ١٥٧]، أي: ذكره بخلاف قوله: ﴿**فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ**﴾ [الطور: ٣]. أو ﴿**فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ**﴾ [البروج: ٢٢]. أو ﴿**فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ**﴾ [الواقعة: ٧٨] لأن العامل في الظرف إما أن يكون من الأفعال العامة، مثل الكون والاستقرار والحصول ونحو ذلك، أو يقدر: مكتوب في كتاب، أو في رق.

والكتاب: تارة يذكر ويراد به محل الكتابة، وتارة يذكر ويراد به الكلام المكتوب، ويجب التفريق بين كتابة الكلام في الكتاب، وكتابة

= والشافعي في (بدائع المنن - ٢/٤٥٣)، من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

الأعيان الموجودة فى الخارج فيه فإن تلك إنما يكتب ذكرها، وكلما تدبر الإنسان هذا المعنى وضح له الفرق.

وحقيقة كلام الله تعالى الخارجية: هى ما يسمع منه أو من المبلغ عنه، فإذا سمعه السامع علمه وحفظه. فكلام الله مسموع له معلوم محفوظ فإذا قاله السامع فهو مقروء له متلو، فإن كتبه فهو مكتوب له مرسوم. وهو حقيقة فى هذه الوجوه كلها لا يصح نفيه. والمجاز يصح نفيه، فلا يجوز أن يقال: ليس فى المصحف كلام الله، ولا: ما قرأ القارئ كلام الله، وقد قال تعالى: ﴿**وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ**﴾ [التوبة: ٦] وهو لا يسمع كلام الله من الله، وإنما يسمعه من مبلغه عن الله. والآية تدل على فساد قول من قال: إن المسموع عبارة عن كلام الله وليس هو كلام الله، فإنه تعالى قال: ﴿**حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ**﴾، ولم يقل حتى يسمع ما هو عبارة عن كلام الله. والأصل الحقيقة. ومن قال: إن المكتوب فى المصاحف عبارة عن كلام الله، أو حكاية كلام الله، وليس فيها كلام الله فقد خالف الكتاب والسنة وسلف الأمة، وكفى بذلك ضلالاً.

وكلام الطحاوى - رحمه الله - يرد قول من قال: إنه معنى واحد لا يتصور سماعه منه، وإن المسموع المنزل المقروء والمكتوب ليس كلام الله، وإنما هو عبارة عنه. فإن الطحاوى - رحمه الله - يقول: «كلام الله منه بدا»، وكذلك قال غيره من السلف، ويقولون: منه بدا وإليه يعود، وإنما قالوا: منه بدا؛ لأن الجهمية من المعتزلة وغيرهم كانوا يقولون إنه خلق الكلام فى محل، فبدا الكلام من ذلك المحل. فقال السلف: «منه بدا» أى: هو المتكلم به، فمنه بدا، لا من بعض المخلوقات، كما قال

تعالى: ﴿**تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ**﴾ [الزمر: ١]. ﴿**وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي**﴾ [السجدة: ١٣]. ﴿**قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ**﴾ [النحل: ١٠٢]. ومعنى قولهم: وإليه يعود: أنه يرفع من الصدور والمصاحف، فلا يبقى فى الصدور منه آية ولا فى المصاحف كما جاء ذلك فى عدة آثار [١].

قوله: «بلا كيفية» أى: لا تعرف كيفية تكلمه به قولاً ليس بالمجاز، «وأنزله على رسوله وحياً»، أى: أنزله إليه على لسان الملك، فسمعه الملك جبريل من الله، وسمعه الرسول محمد ﷺ من الملك، وقرأه على الناس، قال تعالى: ﴿**وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً**﴾ [الإسراء: ١٠٦]. وقال تعالى: ﴿**نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ**﴾ [الشعراء: ١٩٣-١٩٥]. وفى ذلك إثبات صفة العلو لله تعالى.

وقد أورد على ذلك أن إنزال القرآن نظير إنزال المطر، و إنزاله الحديد، وإنزال ثمانية أزواج من الأنعام.

والجواب: أن إنزال القرآن فيه مذكور أنه إنزال من الله، قال تعالى: ﴿**حمٓ * تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ**﴾ [غافر: ١-٢]. وقال تعالى:

---

(١) **صحيح**. رواه ابن ماجه [٤٠٤٩]، والحاكم (٤ / ٤٧٣)، من طريق أبى معاوية، عن أبى مالك الأشجعى، عن ربعى بن حراش، عن حذيفة رضي الله عنه مرفوعاً بلفظ: «**يدرس الإسلام كما يدرس وشى الثوب، حتى لا يدرى ما صيام، ولا صلاة، ولا نسك، ولا صدقة، وليسرى على كتاب الله عز وجل فى ليلة، فلا يبقى فى الأرض منه آية**» - الحديث.
وإسناده صحيح، رحاله ثقات، وصححه الحاكم على شرط مسلم، ووافقه الذهبى.
وصحح إسناده البوصيرى فى «الزوائد» [١٤٢٩].

﴿ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ [الزمر: ١]. وقال تعالى: ﴿ تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾ [فصلت: ٢]. وقال تعالى: ﴿ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت: ٤٢]. وقال تعالى: ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ * فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ * أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾ [الدخان: ٣-٥]. وقال تعالى: ﴿ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [القصص: ٤٩]. وقال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ ﴾ [الأنعام: ١١٤]. وقال تعالى: ﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ ﴾ [النحل: ١٠٢].

وإنزال المطر مقيد بأنه منزل من السماء، قال تعالى: ﴿ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾ [الرعد: ١٧]. والسماء: العلو. وقد جاء فى مكان آخر أنه منزل من المزن، والمزن: السحاب، وفى مكان آخر أنه منزل من المعصرات. وإنزال الحديد والأنعام مطلق، فكيف يشتبه هذا الإنزال بهذا الإنزال، وهذا الإنزال بهذا الإنزال! فالحديد إنما يكون من المعادن التى فى الجبال، وهى عالية على الأرض، وقد قيل: إنه كلما كان معدنه أعلى كان حديده أجود. والأنعام تخلق بالتوالد المستلزم إنزال الذكور الماء من أصلابها إلى أرحام الإناث؛ ولهذا يقال: أنزل ولم ينزل، ثم الأجنة تنزل من بطون الأمهات إلى وجه الأرض، ومن المعلوم أن الأنعام تعلو فحولها إناثها عند الوطء، وينزل ماء الفحل من علو إلى رحم الأنثى وتلقى ولدها عند الولادة من علو إلى سفل، وعلى هذا فيحتمل قوله: ﴿ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ﴾ [الزمر: ٦] وجهين: أحدهما: أن تكون «من» لبيان الجنس، الثانى: أن تكون «من» لابتداء الغاية. وهذان الوجهان يحتملان فى قوله: ﴿ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ

الأَنْعَامِ أَزْوَاجًا﴾ [الشورى: ١١].

وقوله: «وصدقه المؤمنون على ذلك حقا» الإشارة إلى ما ذكره من التكلم به على الوجه المذكور وإنزاله، أى: هذا قول الصحابة والتابعين لهم بإحسان، وهم: السلف الصالح، وأن هذا حق وصدق.

وقوله: «وأيقنوا أنه كلام الله تعالى بالحقيقة ليس بمخلوق ككلام البرية» رده على المعتزلة وغيرهم بهذا القول ظاهر، وفى قوله: بالحقيقة، رد على من قال: إنه معنى واحد قام بذات الله لم يسمع منه وإنما هو الكلام النفسانى؛ لأنه لا يقال لمن قام به الكلام النفسانى ولم يتكلم به إن هذا كلام حقيقة وإلا للزم أن يكون الأخرس متكلماً، ولزم أن لا يكون الذى فى المصحف عند الإطلاق هو القرآن ولا كلام الله، ولكن عبارة عنه ليست هى كلام الله، كما لو أشار أخرس إلى شخص بإشارة فهم بها مقصوده، فكتب ذلك الشخص عبارته عن المعنى الذى أوحاه إليه ذلك الأخرس فالمكتوب هو عبارة ذلك الشخص عن ذلك المعنى. وهذا المثل مطابق غاية المطابقة لما يقولونه، وإن كان الله تعالى لا يسميه أحد «أخرس» لكن عندهم أن الملك فهم منه معنى قائماً بنفسه، لم يسمع منه حرفاً ولاصوتاً، بل فهم معنى مجرداً، ثم عبر عنه، فهو الذى أحدث نظم القرآن وتأليفه العربى، أو أن الله خلق فى بعض الأجسام كالهواء الذى هو دون الملك هذه العبارة.

ويقال لمن قال: إنه معنى واحد: هل سمع موسى عليه السلام جميع المعنى أو بعضه؟ فإن قال: سمعه كله، فقد زعم أنه سمع جميع كلام الله. وفساد هذا ظاهر، وإن قال: بعضه، فقد قال: يتبعض، وكذلك كل من

كلمه الله أو أنزل إليه شيئاً من كلامه.

ولما قال تعالى للملائكة: ﴿**إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً**﴾ [البقرة: ٣٠]. ولما قال لهم: ﴿**اسْجُدُوا لآدَمَ**﴾ [البقرة: ٣٤]. وأمثال ذلك هل هذا جميع كلامه أو بعضه؟ فإن قال: إنه جميعه، فهذا مكابرة، وإن قال: بعضه، فقد اعترف بتعدده.

وللناس فى مسمى الكلام والقول عند الإطلاق: أربعة أقوال:

أحدها: أنه يتناول اللفظ والمعنى جميعاً، كما يتناول لفظ الإنسان الروح والبدن معاً، وهذا قول السلف.

الثانى: اسم اللفظ فقط، والمعنى ليس جزء مسماه، بل هو مدلول مسماه، وهذا قول جماعة من المعتزلة وغيرهم.

الثالث: أنه اسم «للمعنى» فقط وإطلاقه على اللفظ مجاز؛ لأنه دال عليه، وهذا قول ابن كلاب ومن اتبعه.

الرابع: أنه مشترك بين اللفظ والمعنى، وهذا قول بعض المتأخرين من الكلابية.

ولهم قول ثالث يروى عن أبى الحسن أنه: مجاز فى كلام الله، حقيقة فى كلام الآدميين لأن حروف الآدميين؛ تقوم بهم، فلا يكون الكلام قائماً بغير المتكلم، بخلاف كلام الله، فإنه لا يقوم عنده بالله، فيمتنع أن يكون كلامه. وهذا مبسوط فى موضعه. وأما من قال: إنه معنى واحد، واستدل عليه بقول الأخطل:

إن الكلام لفى الفؤاد وإنما جعل اللسان على الفؤاد دليلاً

فاستدلال فاسد. ولو استدل مستدل بحديث فى «الصحيحين» لقالوا هذا خبر واحد. ويكون مما اتفق العلماء على تصديقه وتلقيه بالقبول والعمل به. فكيف وهذا البيت قد قيل: إنه مصنوعٌ منسوب إلى الأخطل، وليس هو فى ديوانه؟ وقيل إنما قال: «إن البيان لفى الفؤاد» وهذا أقرب الى الصحة، وعلى تقدير صحته عنه فلا يجوز الاستدلال به، فإن النصارى قد ضلوا فى معنى الكلام، وزعموا أن عيسى عليه السلام نفس كلمة الله واتحد اللاهوت بالناسوت، أى: شئ من الإله بشئ من الناس. أفيستدل بقول نصرانى قد ضل فى معنى الكلام على معنى الكلام، ويترك ما يعلم من معنى الكلام فى لغة العرب؟.

وأيضا: فمعناه غير صحيح؛ إذ لازمه أن الأخرس يسمى متكلماً؛ لقيام الكلام بقلبه، وإن لم ينطق به ولم يسمع منه، والكلام على ذلك مبسوط فى موضعه، وإنما أشير إليه إشارة.

هذا معنى عجيب، وهو: أن هذا القول له شبه قوى بقول النصارى القائلين باللاهوت والناسوت. فإنهم يقولون: كلام الله هو المعنى القائم بذات الله الذى لا يمكن سماعه، وإنما النظم المسموع مخلوق، فإفهام المعنى القديم بالنظم المخلوق يشبه امتزاج اللاهوت بالناسوت الذى قالته النصارى فى عيسى عليه السلام، فانظر إلى هذا الشبه ما أعجبه.

ويرد قول من قال: بأن الكلام هو المعنى القائم بالنفس: قوله ﷺ: **«إن صلاتنا هذه لا يصلح فيها شئ من كلام الناس»** [1]. وقال: **«إن الله يحدث**

---

(١) رواه مسلم [٥٣٧]، وأبو داود [٩٣٠]، والنسائى (٣/ ١٤)، وأحمد (٥/ ٤٤٧)، والطيالسى [١١٠٥]، والطحاوى فى «شرح المعانى» (١/ ٤٤٦)، وابن حبان [٢٢٤٨]، والبيهقى (٢/ ٢٤٩)، من حديث معاوية بن الحكم السلمى رضي الله عنه.

من أمره ما يشاء، وإن مما أحدث أن لا تكلموا فى الصلاة» [1]. واتفق العلماء على أن المصلى إذا تكلم فى الصلاة عامداً لغير مصلحتها بطلت صلاته. واتفقوا كلهم على أن ما يقوم بالقلب، من تصديق بأمور دنيوية وطلب لا يبطل الصلاة، وإنما يبطلها التكلم بذلك. فعلم اتفاق المسلمين على أن هذا ليس بكلام.

وأيضا: ففى «الصحيحين» عن النبى ﷺ أنه قال: **«إن الله تجاوز لأمتى عما حدثت به أنفسها ما لم تتكلم به أو تعمل به»** [2] فقد أخبر أن الله عفا عن حديث النفس إلا أن تتكلم، ففرق بين حديث النفس وبين الكلام، وأخبر أنه لا يؤاخذ به حتى يتكلم به، والمراد: حتى ينطق به اللسان، باتفاق العلماء، فعلم أن هذا هو الكلام فى اللغة؛ لأن الشارع إنما خاطبنا بلغة العرب.

وأيضاً: ففى «السنن» أن معاذاً رضي الله عنه قال: يا رسول الله، وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ فقال: **«وهل يكب الناس فى النار على مناخرهم إلا**

---

(١) **صحيح**. رواه أبو داود [٩٢٤]، والنسائى (٣/ ١٦)، وأحمد (١/ ٣٧٧)، وابن حبان [٢٢٤٣]، والبيهقى (٢/ ٢٤٨)، من طريق عاصم بن أبى النجود، عن أبى وائل، عن ابن مسعود رضي الله عنه به.

ورجاله ثقات، غير عاصم بن أبى النجود فإنه صدوق له أوهام، روى له البخارى، ومسلم مقروناً بغيره، وتابعه الزبير بن عدى، عن كلثوم بن المصطلق، عن ابن مسعود رضي الله عنه به. أخرجه النسائى (٣/ ١٦)، وإسناده صحيح، رجاله ثقات. والحديث رواه البخارى [١١٩٩]، ومسلم [٥٣٨]، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: كنا نسلم على النبى ﷺ وهو فى الصلاة فيرد علينا فلما رجعنا من عند النجاشى سلمنا عليه فلم يرد علينا وقال: **«إن فى الصلاة شغلا»**.

(٢) رواه البخارى [٢٥٢٨]، ومسلم [١٢٧]، وأبو داود [٢٢٠٩]، والترمذى [١١٨٣]، والنسائى (٦/ ١٢٧، ١٢٨)، وابن ماجه [٢٠٤٠]، وأحمد (٢/ ٢٥٥، ٣٩٣)، من حديث أبى هريرة رضي الله عنه.

حصائد ألسنتهم» [1] فبين أن الكلام إنما هو باللسان. فلفظ «القول» و«الكلام» وما تصرف منهما، من فعل ماض ومضارع وأمر واسم فاعل إنما يعرف فى القرآن والسنة وسائر كلام العرب إذا كان لفظاً ومعنى. ولم يكن فى مسمى «الكلام» نزاع بين الصحابة والتابعين لهم بإحسان، وإنما حصل النزاع بين المتأخرين من علماء أهل البدع، ثم انتشر.

ولا ريب أن مسمى الكلام والقول ونحوهما ليس هو مما يحتاج فيه إلى قول شاعر، فإن هذا مما تكلم به الأولون والآخرون من أهل اللغة وعرفوا معناه، كما عرفوا مسمى الرأس واليد والرجل ونحو ذلك.

ولاشك أن من قال: إن كلام الله معنى واحد قائم بنفسه تعالى، وأن المتلو المحفوظ المكتوب المسموع من القارئ حكاية كلام الله وهو مخلوق فقد قال بخلق القرآن فى المعنى وهو لا يشعر، فإن الله يقول: ﴿قُل لَّئِنِ

---

(١) **صحيح**. رواه الترمذى [٢٦١٦]، والنسائى فى «الكبرى» [١١٣٩٤]، وابن ماجه [٣٩٧٣]، وأحمد (٥/٢٣١)، من طريق معمر، عن عاصم بن بهدلة، عن أبى وائل، عن معاذ بن جبل ﷺ به.
قال الترمذى: حديث حسن صحيح.
ورواه أحمد (٥/٢٣٧)، والطيالسى [٥٦٠]، وابن أبى شيبة (١١/٧)، من طريق شعبة عن الحكم، عن عروة بن النزال، عن معاذ ﷺ به.
وعروة بن النزال وثقه ابن حبان وهو لم يسمع معاذ، وإن كان أدركه كما فى «تهذيب الكمال».
والحديث له طريق ثالث، رواه أحمد (٥/٢٣٧)، وابن أبى شيبة (١١/٨)، والحاكم (٢/٧٦)، من طريق حبيب بن أبى ثابت، والحكم بن عنيبة، عن ميمون بن أبى شبيب، عن معاذ به. وميمون بن أبى شبيب صدوق كثير الإرسال كما فى «التقريب».
والحديث صححه الدارقطنى فى «العلل» (٦/٧٥)، من حديث الحكم وحبيب، عن ميمون، وصححه الحاكم على شرط الشيخين، ووافقه الذهبى.

اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ﴾ [الإسراء: ٨٨] أفتراه سبحانه وتعالى يشير إلى ما في نفسه أو إلى المتلو المسموع؟ ولا شك أن الإشارة إنما هي إلى هذا المتلو المسموع؛ إذ ما في ذات الله غير مشار إليه، ولا منزل ولا متلو ولا مسموع.

وقوله: ﴿لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ﴾ أفتراه سبحانه يقول: لا يأتون بمثل ما في نفسي مما لم يسمعوه ولم يعرفوه، وما في نفس الله عز وجل لا حيلة إلى الوصول إليه، ولا إلى الوقوف عليه.

فإن قالوا: إنما أشار إلى حكاية ما في نفسه وعبارته وهو المتلو المكتوب المسموع، فأما أن يشير إلى ذاته فلا فهذا صريح القول بأن القرآن مخلوق، بل هم في ذلك أكفر من المعتزلة، فإن حكاية الشئ مثله وشبهه. وهذا تصريح بأن صفات الله تعالى محكية، ولو كانت هذه التلاوة حكاية لكان الناس قد أتوا بمثل كلام الله، فأين عجزهم؟! ويكون التالي - في زعمهم - قد حكى بصوت وحرف ما ليس بصوت وحرف. وليس القرآن إلا سوراً مسورة، وآيات مسطرة، في صحف مطهرة. قال تعالى: ﴿فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾ [هود: ١٣]. ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الظَّالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٩]. ﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ * مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ﴾ [عبس: ١٣ - ١٤]. ويكتب لمن قرأه بكل حرف عشر حسنات. قال ﷺ: «**أما إني لا أقول (ألم) حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف**»[١] وهو المحفوظ

---

(١) **صحيح**. رواه الترمذي [٢٩١٠]، والبيهقي في «شعب الإيمان» [١٨٣١]، من طريق الضحاك بن عثمان، عن أيوب بن موسى، عن محمد بن كعب القرظي سمعت عبد الله بن مسعود رضي الله عنه بنحوه.

=

فى صدور الحافظين المسموع من ألسن التالين. قال الشيخ حافظ الدين النسفى - رحمه الله - فى «المنار»: إن القرآن اسم للنظم والمعنى. وكذا قال غيره من أهل الأصول. وما ينسب إلى أبى حنيفة - رحمه الله -: أن من قرأ فى الصلاة بالفارسية أجزأه؛ فقد رجع عنه، وقال: لا يجوز القراءة مع القدرة بغير العربية. وقالوا: لو قرأ بغير العربية فإما أن يكون مجنوناً فيداوى، أو زنديقاً فيقتل؛ لأن الله تكلم به بهذه اللغة، والإعجاز حصل بنظمه ومعناه.

وقوله: «ومن سمعه، وقال: إنه كلام البشر، فقد كفر». لاشك فى تكفير من أنكر أن القرآن كلام الله، بل قال: إنه كلام محمد أو غيره من الخلق، ملكاً كان أو بشراً، وأما إذا أقر أنه كلام الله، ثم أول وحرف - فقد وافق قول من قال: ﴿**إِنْ هَذَا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ**﴾ [المدثر: ٢٥] فى بعض ما به كفر، وأولئك الذين استزلهم الشيطان وسيأتى الكلام عليه عند قول

= قال الترمذى: حديث حسن صحيح غريب. اهـ. قال المزىّ فى «تهذيب الكمال» (٢٦ / ٣٤١): محمد بن كعب، عن ابن مسعود يقال مرسل. اهـ.
ورواه الخطيب فى «تاريخ بغداد» (١ / ٢٨٥)، من طريق محمد بن أحمد بن الجنيد، عن أبى عاصم، عن سفيان، عن عطاء بن السائب، عن أبى الأحوص، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه به. ورجاله ثقات، غير ابن الجنيد فإنه صدوق كما قال ابن أبى حاتم فى «الجرح والتعديل» (٧ / ١٨٣)، ووثقه ابن حبان، وروى له فى «صحيحه»، وعطاء بن السائب صدوق اختلط، ورواية سفيان عنه قديمة قبل الاختلاط، وحديثه عنه صحيح، وقد تابعه عاصم ابن أبى النجود، أخرجه الحاكم (١ / ٥٦٦) ومن طريقه البيهقى فى «الشعب» [١٨٣٣]، وصحح الحاكم إسناده، ووافقه الذهبى. ويشهد له ما رواه الطبرانى فى «الأوسط» [٣١٦]، وفى «الكبير» (١٨ / ٧٦)، من طريق سليمان بن بلال، عن موسى بن عبيدة، عن محمد بن كعب القرظى، عن عوف بن مالك الأشجعى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من قرأ حرفاً من القرآن كتبت له حسنة**» - الحديث بنحوه. قال الطبرانى: تفرد به سليمان بن بلال. اهـ.
والحديث صحيح بمجموع طرقه، وشاهده.

الشيخ «ولا نكفر أحداً من أهل القبلة بذنب مالم يستحله» إن شاء الله تعالى.

وقوله: «ولا يشبه قول البشر». يعني: أنه أشرف وأفصح وأصدق. قال تعالى: ﴿ **وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا** ﴾ [النساء: ٨٧]، وقال تعالى: ﴿ **قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ** ﴾ [الإسراء: ٨٨]. الآية، وقال تعالى: ﴿ **قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ** ﴾ [هود: ١٣]. وقال تعالى: ﴿ **قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ** ﴾ [يونس: ٣٨]. فلما عجزوا وهم فصحاء العرب، مع شدة العداوة - عن الإتيان بسورة مثله، تبين صدق الرسول ﷺ أنه من عند الله، وإعجازه من جهة نظمه ومعناه، لا من جهة أحدهما فقط. هذا مع أنه قرآن عربى غير ذى عوج بلسان عربى مبين، أى: باللغة العربية. فنفى المشابهة من حيث التكلم، ومن حيث النظم والمعنى، لا من حيث الكلمات والحروف، وإلى هذا وقعت الإشارة بالحروف المقطعة فى أوائل السور، أى: أنه فى أسلوب كلامهم وبلغتهم التى يخاطبون بها. ألا ترى أنه يأتى بعد الحروف المقطعة بذكر القرآن؟ كما فى قوله تعالى: ﴿ **الم * ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ** ﴾ [البقرة: ١ - ٢]. ﴿ **الم * اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ * نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ** ﴾ [آل عمران: ١ - ٣]، الآية. ﴿ **المص * كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ** ﴾ [الأعراف: ١ - ٢]، الآية. ﴿ **الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ** ﴾ [يونس: ١]. وكذلك الباقى ينبههم أن هذا الرسول الكريم لم يأتكم بما لا تعرفونه، بل خاطبكم بلسانكم.

ولكن أهل المقالات الفاسدة يتذرعون بمثل هذا إلى نفى تكلم الله به، وسماع جبريل منه، كما يتذرعون بقوله: ﴿ **لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ** ﴾

[الشورى: ١١]، إلى نفى الصفات. وفى الآية ما يرد عليهم قولهم، وهو قوله تعالى: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]. كما فى قوله تعالى: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ﴾ [يونس: ٣٨] ما يرد على من ينفى الحرف، فإنه قال: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ﴾، ولم يقل فأتوا بحرف، أو بكلمة. وأقصر سورة فى القرآن ثلاث آيات؛ ولهذا قال أبو يوسف ومحمد: إن أدنى ما يجزئ فى الصلاة ثلاث آيات قصار أو آية طويلة؛ لأنه لا يقع الإعجاز بدون ذلك. والله أعلم.

قوله: «**ومن وصف الله بمعني من معاني البشر، فقد كفر، فمن أبصر هذا اعتبر. وعن مثل قول الكفار انزجر. وعلم أن الله بصفاته ليس كالبشر**».

ش: لما ذكر فيما تقدم أن القرآن كلام الله حقيقة منه بدا، نبه بعد ذلك على أنه تعالى بصفاته ليس كالبشر، نفياً للتشبيه عقيب الإثبات، يعنى: أن الله تعالى وإن وصف بأنه متكلم، لكن لا يوصف بمعنى من معانى البشر التى يكون الإنسان بها متكلماً، فإن الله ليس كمثله شئ وهو السميع البصير. وما أحسن المثل المضروب للمثبت للصفات من غير تشبيه ولا تعطيل باللبن الخالص السائغ للشاربين، يخرج من بين فرث التعطيل ودم التشبيه. والمعطل يعبد عدماً، والمشبه يعبد صنماً، وسيأتى فى كلام الشيخ: ومن لم يتوق النفى والتشبيه، زل ولم يصب التنزيه. وكذا قوله: وهو بين التشبيه والتعطيل. أى دين الإسلام، ولا شك أن التعطيل شر من التشبيه، بما سأذكره إن شاء الله تعالى. وليس ما وصف الله به نفسه ولا ما وصفه به رسوله تشبيهاً، بل صفات الخالق كما يليق به، وصفات المخلوق كما يليق به.

وقوله: «فمن أبصر هذا اعتبر». أى: من نظر بعين بصيرته فيما قاله من إثبات الوصف، ونفى التشبيه، ووعيد المشبه اعتبر وانزجر عن مثل قول الكفار.

قوله: **«والرؤية حق لأهل الجنة، بغير إحاطة ولا كيفية، كما نطق به كتاب ربنا: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾** [القيامة: ٢٢ - ٢٣]. **وتفسيره على ما أراد الله تعالى وعلمه، وكل ما جاء فى ذلك من الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ فهو كما قال، ومعناه على ما أراد، لا ندخل فى ذلك متأولين بآرائنا ولا متوهمين بأهوائنا، فإنه ما سلم فى دينه إلا من سلم لله عز وجل ولرسوله ﷺ. ورد علم ما اشتبه عليه إلى عالمه».**

ش: المخالف فى الرؤية: الجهمية والمعتزلة ومن تبعهم من الخوارج والإمامية. وقولهم باطل مردود بالكتاب والسنة. وقد قال بثبوت الرؤية الصحابة والتابعون، وأئمة الإسلام المعروفون بالإمامة فى الدين، وأهل الحديث، وسائر طوائف أهل الكلام المنسوبون إلى السنة والجماعة.

وهذه المسألة من أشرف مسائل أصول الدين وأجلها، وهى الغاية التى شمر إليها المشمرون، وتنافس المتنافسون، وحرمها الذين هم عن ربهم محجوبون، وعن بابه مطرودون.

وقد ذكر الشيخ - رحمه الله - من الأدلة قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢ - ٢٣]. وهى من أظهر الأدلة. وأما من أبى إلا تحريفها بما يسميه تأويلاً؛ فتأويل نصوص المعاد والجنة والنار والحساب أسهل من تأويلها على أرباب التأويل. ولا يشاء مبطل أن يتأول النصوص ويحرفها عن مواضعها إلا وجد إلى ذلك من السبيل ما

وجده متأول هذه النصوص. وهذا الذى أفسد الدنيا والدين، وهكذا فعلت اليهود والنصارى فى نصوص التوراة والإنجيل، وحذرنا الله أن نفعل مثلهم، وأبى المبطلون إلا سلوك سبيلهم، وكم جنى التأويل الفاسد على الدين وأهله من جناية. فهل قتل عثمان رضي الله عنه إلا بالتأويل الفاسد؟ وكذا ما جرى فى يوم الجمل، وصفين، ومقتل الحسين، والحرة؟ وهل خرجت الخوارج، واعتزلت المعتزلة، ورفضت الروافض، وافترقت الأمة على ثلاث وسبعين فرقة إلا بالتأويل الفاسد؟!.

وإضافة النظر إلى الوجه، الذى هو محله، فى هذه الآية، وتعديته بأداة «إلى» الصريحة فى نظر العين، وإخلاء الكلام من قرينة تدل على خلاف حقيقته وموضوعه صريح فى أن الله أراد بذلك نظر العين التى فى الوجه إلى الرب جل جلاله.

فإن النظر له عدة استعمالات، بحسب صلاته وتعديه بنفسه: فإن عدى بنفسه فمعناه: التوقف والانتظار كقوله: ﴿**انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ**﴾ [الحديد: ١٣]. وإن عدى بـ «فى» فمعناه: التفكر والاعتبار، كقوله: ﴿**أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ**﴾ [الأعراف: ١٨٥]. وإن عدى بـ «إلى» فمعناه: المعاينة بالأبصار، كقوله تعالى: ﴿**انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ**﴾ [الأنعام: ٩٩]. فكيف إذا أضيف إلى الوجه الذى هو محل البصر؟! وروى ابن مردويه بسنده إلى ابن عمر، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ فى قوله تعالى: ﴿**وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ**﴾ ـ قال: «**من البهاء والحسن** ﴿**إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ**﴾، **قال: فى وجه الله عز وجل**»[1]. عن الحسن قال:

---

(١) **ضعيف**. رواه الطبرى فى «التفسير» (٢٩/١٩٣)، من طريق مصعب بن المقدام ثنا إسرائيل بن يونس، عن ثوير بن أبى فاختة، عن ابن عمر رضي الله عنهما بنحوه.

نظرت إلى ربها فنضرت بنوره.

وقال أبو صالح عن ابن عباس ﷺ، ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ قال: تنظر الى وجه ربها عز وجل.

وقال عكرمة: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾، قال: من النعيم، ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾، قال: تنظر إلى ربها نظراً، ثم حكى عن ابن عباس ﷺ مثله.

وهذا قول مفسر من أهل السنة والحديث. وقال تعالى: ﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق: ٣٥]. قال الطبرى: قال على بن أبى طالب وأنس بن مالك ﷺ: هو النظر الى وجه الله عز وجل. وقال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]. فالحسنى: الجنة، والزيادة: هى النظر إلى وجهه الكريم، فسرها بذلك رسول الله ﷺ والصحابة من بعده، كما روى مسلم فى صحيحه عن صهيب، قال: قرأ رسول الله ﷺ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾، قال: «**إذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، نادى مناد: يا أهل الجنة، إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه، فيقولون: ما هو؟ ألم يثقل موازيننا ويبيض وجوهنا ويدخلنا الجنة ويجرنا من النار؟ فيكشف الحجاب، فينظرون إليه، فما أعطاهم شيئاً أحب إليهم من النظر إليه، وهى الزيادة**»[1].

= وإسناده ضعيف، ثوير كذبه الثورى، وقال الدارقطنى: متروك، وضعفه غير واحد، كما فى «تهذيب الكمال» (٤ / ٤٣٠)، وقال ابن حبان فى «المجروحين» (١ / ٢٠٥): كان يقلب الأسانيد حتى تجئ فى رواياته أشياء كأنها موضوعة. اهـ. وقال الذهبى فى «الكاشف» (١ / ١٧٥): واهٍ.

(١) رواه مسلم [١٨١]، والترمذى [٢٥٥٢، ٣١٠٥]، والنسائى فى «الكبرى» [١١٢٣٤]، وابن ماجه [١٨٧]، وأحمد (٤ / ٣٣٢، ٣٣٣)، والطيالسى [١٣١٥]، وأبو عوانة (١ / ١٥٦)، وابن حبان [إحسان ـ ٧٤٤١].

ورواه غيره بأسانيد متعددة وألفاظ أخر، معناها أن الزيادة النظر إلى وجه الله عز وجل.

وكذلك فسرها الصحابة ﷺ. روى ابن جرير ذلك عن جماعة، منهم: أبو بكر الصديق ﷺ (١)، وحذيفة (٢)، وأبو موسى الأشعرى (٣)، وابن عباس (٤) ﷺ.

---

(١) **صحيح**. رواه عبد الله بن أحمد فى «السنة» [٤٧٠]، والطبرى فى «التفسير» (١١/١٠٤)، والآجرى فى «الشريعة» [٦٣٠]، والبيهقى فى «الاعتقاد» (ص: ٤٨)، من طريق أبى إسحق السبيعى، عن عامر بن سعد، عن أبى بكر ﷺ: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ قال: النظر إلى وجه ربهم.
وإسناده صحيح، رجاله ثقات إلا أنه مرسل عامر بن سعد البجلى الكوفى، عن أبى بكر مرسل كما فى «تهذيب الكمال» (١٤/٢٣)، ووصله الطبرى فى «التفسير» (١١/١٠٤) من طريق قيس بن الربيع، عن أبى إسحق، عن عامر بن سعد، عن سعيد ابن نمران، عن أبى بكر ﷺ به. وإسناده حسن، قيس بن الربيع صدوق، وسعيد بن نمران سكت عنه البخارى فى «التاريخ»، ووثقه ابن حبان. ويشهد له أحاديث حذيفة، وابن عباس ﷺ الآتية.
والحديث صحيح بمجموع طرقه وشواهده.

(٢) **حسن**. رواه عبد الله بن أحمد فى «السنة» [٤٧٣]، والطبرى فى «التفسير» (١١/١٠٥)، وابن خزيمة فى «التوحيد» [٢٦٤]، والآجرى فى «الشريعة» [٦٣٢]، من طرق عن أبى إسحق السبيعى، عن مسلم بن نذير، عن حذيفة ﷺ: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ قال: النظر إلى وجه ربهم.
وإسناده حسن، مسلم بن نذير لا بأس بحديثه، كما قال أبو حاتم فى «الجرح والتعديل» (٨/١٩٧)، ووثقه ابن حبان، وقال الذهبى فى «الكاشف» (٣/١٤٣): صالح.

(٣) **إسناده ضعيف**. رواه الطبرى فى «التفسير» (١١/١٠٥)، وابن أبى حاتم فى «التفسير» [١٠٣٤٠]، وابن خزيمة فى «التوحيد» [٢٦٧]، والبيهقى فى «البعث» [٤٤٧]، من طريق أبى بكر الهذلى، عن أبى تميمة الهجيمى، عن أبى موسى الأشعرى ﷺ، وفيه: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ النظر إلى وجه الرحمن عز وجل.
وإسناده ضعيف، فيه أبو بكر الهذلى، وهو سلمى بن عبد الله بن سلمى، قال فى «التقريب»: إخبارى متروك الحديث.

(٤) **حسن**. رواه اللالكائى فى «السنة» [٧٨٧]، من طريق أسباط بن نصر عن إسماعيل =

وقال تعالى: ﴿كَلاَّ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥]. احتج الشافعي ـ رحمه الله ـ وغيره من الأئمة بهذه الآية على الرؤية لأهل الجنة، ذكر ذلك الطبرى وغيره عن المزنى عن الشافعى، وقال الحاكم: حدثنا الأصم حدثنا الربيع بن سليمان قال: حضرت محمد ابن إدريس الشافعى، وقد جاءته رقعة من الصعيد فيها: ما تقول فى قول الله عز وجل: ﴿كَلاَّ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥]؟ فقال الشافعى: لما أن حجب هؤلاء فى السخط كان فى هذا دليل على أن أولياءه يرونه فى الرضا.

وأما استدلال المعتزلة بقوله تعالى: ﴿قَالَ لَن تَرَانِي﴾ [الأعراف: ١٤٣]، وبقوله تعالى: ﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] فالآيتان دليل عليهم.

أما الآية الأولى: فالاستدلال منها على ثبوت رؤيته من وجوه:

أحدها: أنه لا يظن بكليم الله ورسوله الكريم وأعلم الناس بربه فى وقته أن يسأل ما لا يجوز عليه، بل هو عندهم من أعظم المحال.

الثانى: أن الله لم ينكر عليه سؤاله، ولما سأل نوح عليه السلام ربه نجاة ابنه أنكر عليه سؤاله. وقال: ﴿إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [هود: ٤٦].

الثالث: أنه تعالى قال: ﴿لَن تَرَانِي﴾ [الأعراف: ١٤٣] ولم يقل: إنى لا

= السدى، عن أبى مالك، وأبى صالح، عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلا ذِلَّةٌ﴾ قال: أما الحسنى: فالجنة، وأما الزيادة: فالنظر إلى وجه الله، وأما القتر: فالسواد.

وإسناده حسن، أسباط بن نصر صدوق كثير الخطأ، من رجال مسلم، والسدى صدوق يهم، روى له مسلم، وأبو صالح باذام ضعيف، وتابعه أبو مالك غزوان، وهو ثقة كما فى «التقريب»، ويشهد له الأحاديث السابقة.

أُرى، أو لا تجوز رؤيتى، أو لست بمرئى، والفرق بين الجوابين ظاهر، ألا ترى أن من كان فى كمه حجر فظنه رجل طعاماً فقال: أطعمنيه، فالجواب الصحيح: إنه لا يؤكل. أما إذا كان طعاماً صح أن يقال: إنك لن تأكله، وهذا يدل على أنه سبحانه مرئى، ولكن موسى لا تحتمل قواه رؤيته فى هذه الدار؛ لضعف قوى البشر فيها عن رؤيته تعالى. يوضحه:

الوجه الرابع: وهو قوله: ﴿**وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي**﴾ [الأعراف: ١٤٣]. فأعلمه أن الجبل مع قوته وصلابته لا يثبت للتجلى فى هذه الدار، فكيف بالبشر الذى خلق من ضعف؟

الخامس: أن الله سبحانه قادر على أن يجعل الجبل مستقراً، وذلك ممكن، وقد علق به الرؤية، ولو كانت محالاً لكان نظير أن يقول: إن استقر الجبل فسوف آكل وأشرب وأنام، والكل عندهم سواء.

السادس: قوله تعالى: ﴿**فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا**﴾ [الأعراف: ١٤٣]، فإذا جاز أن يتجلى للجبل، الذى هو جماد لا ثواب له ولا عقاب، فكيف يمتنع أن يتجلى لرسله وأوليائه فى دار كرامته؟! ولكن الله أعلم موسى أن الجبل إذا لم يثبت لرؤيته فى هذه الدار، فالبشر أضعف.

السابع: أن الله كلم موسى وناداه وناجاه، ومن جاز عليه التكلم والتكليم وأن يسمع مخاطبه كلامه بغير واسطة؛ فرؤيته أولى بالجواز؛ ولهذا لا يتم إنكار رؤيته إلا بإنكار كلامه، وقد جمعوا بينهما. وأما دعواهم تأبيد النفى بـ «لن» وأن ذلك يدل على نفى الرؤية فى الآخرة: ففاسد، فإنها لو قيدت بالتأبيد لا يدل على دوام النفى فى الآخرة،

فكيف إذا أطلقت؟ قال تعالى: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾ [البقرة: ٩٥]، مع قوله: ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [الزخرف: ٧٧]. ولأنها لو كانت للتأبيد المطلق لما جاز تحديد الفعل بعدها، وقد جاء ذلك، قال تعالى: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي﴾ [يوسف: ٨٠]. فثبت أن «لن» لا تقتضى النفى المؤبد.

قال الشيخ جمال الدين بن مالك ـ رحمه الله ـ:

ومن رأى النفى بـ «لن» مؤبداً فقوله اردد وسواه فاعضدا

وأما الآية الثانية: فالاستدلال بها على الرؤية من وجه حسن لطيف، وهو: أن الله تعالى إنما ذكرها فى سياق التمدح، ومعلوم أن المدح إنما يكون بالصفات الثبوتية، وأما العدم المحض فليس بكمال فلا يمدح به، وإنما يمدح الرب تعالى بالنفى إذا تضمن أمراً وجودياً، كمدحه بنفى السنة والنوم، المتضمن كمال القيومية، ونفى الموت المتضمن كمال الحياة، ونفى اللغوب والإعياء، المتضمن كمال القدرة، ونفى الشريك والصاحبة والولد والظهير، المتضمن كمال الربوبية والألوهية وقهره، ونفى الأكل والشرب المتضمن كمال صمديته، وغناه ونفى الشفاعة عنده إلا بإذنه المتضمن كمال توحده، وغناه عن خلقه، ونفى الظلم، المتضمن كمال عدله وعلمه وغناه، ونفى النسيان وعزوب شئ عن علمه، المتضمن كمال علمه وإحاطته ونفى المثل، المتضمن لكمال ذاته وصفاته.

ولهذا لم يتمدح بعدم محض لا يتضمن أمراً ثبوتياً، فإن المعدوم يشارك الموصوف فى ذلك العدم، ولا يوصف الكامل بأمر يشترك هو

والمعدوم فيه، فإذاً المعنى: أنه يرى ولا يدرك ولا يحاط به، فقوله: ﴿ **لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ** ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، يدل على كمال عظمته، وأنه أكبر من كل شيء، وأنه لكمال عظمته لا يدرك بحيث يحاط به، فإن «الإدراك» هو الإحاطة بالشيء، وهو قدر زائد على الرؤية، كما قال تعالى: ﴿ **فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ * قَالَ كَلاَّ** ﴾ [الشعراء: ٦١-٦٢]، فلم ينف موسى الرؤية، وإنما نفى الإدراك، فالرؤية والإدراك كل منهما يوجد مع الآخر وبدونه، فالرب تعالى يُرى ولا يُدرك، كما يُعلم ولا يُحاط به علما، وهذا هو الذى فهمه الصحابة والأئمة من الآية، كما ذكرت أقوالهم فى تفسير الآية، بل هذه الشمس المخلوقة لا يتمكن رائيها من إدراكها على ما هى عليه.

وأما الأحاديث عن النبى ﷺ وأصحابه ﵃، الدالة على الرؤية فمتواترة، رواها أصحاب الصحاح والمسانيد والسنن.

فمنها: حديث أبى هريرة ﵁: أن ناساً قالوا: يا رسول الله، هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال رسول الله ﷺ: «**هل تضارون فى رؤية القمر ليلة البدر؟**» قالوا: لا يارسول الله، قال: «**هل تضارون فى الشمس ليس دونها سحاب؟**» قالوا: لا، قال: «**فإنكم ترونه كذلك**»[١] الحديث، أخرجاه فى «الصحيحين» بطوله.

وحديث أبى سعيد الخدرى ﵁ أيضاً فى «الصحيحين» نظيره[٢].

---

(١) رواه البخارى [٨٠٦]، ومسلم [١٨٢]، والنسائى فى «الكبرى» [١١٤٨٨]، وأحمد (٢/٢٧٥، ٢٩٣)، والدارمى [٢٨٠٤].
ورواه أبو داود [٤٧٣٠]، والترمذى [٢٥٥٤]، وابن ماجه [١٧٨] بنحوه.

(٢) رواه البخارى [٧٤٣٩]، ومسلم [١٨٣]، وابن ماجه [١٧٩]، وأحمد =

وحديث جرير بن عبد الله البجلى رضي الله عنه، قال: كنا جلوساً مع النبى صلى الله عليه وسلم، فنظر إلى القمر ليلة أربع عشرة، فقال: «**إنكم سترون ربكم عياناً، كما ترون هذا، لا تضامون فى رؤيته**» [1] ـ الحديث أخرجاه فى «الصحيحين».

وحديث صهيب [2] رضي الله عنه المتقدم، رواه مسلم وغيره.

وحديث أبى موسى رضي الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم، قال: «**جنتان من فضة، آنيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب، آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن يروا ربهم تبارك وتعالى إلا رداء الكبرياء على وجهه فى جنة عدن**» [3] أخرجاه فى «الصحيحين».

ومن حديث عدى بن حاتم رضي الله عنه: «**و ليلقين الله أحدكم يوم يلقاه، وليس بينه وبينه حجاب ولا ترجمان يترجم له، فليقولن: ألم أبعث إليك رسولا فيبلغك؟ فيقول: بلى يا رب، فيقول: ألم أعطك مالاً وأفضل عليك؟ فيقول، بلى يا رب**» [4] أخرجه البخارى فى «صحيحه».

= (٣/ ١٦، ٩٤)، وابن منده فى «الإيمان» [٨١٠، ٨١٦]، وأبو يعلى [١٠٠٦]، وابن حبان [إحسان ـ ٧٣٧٧]، وابن خزيمة في «التوحيد» [٢٤٧، ٢٤٨]، من حديث أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه قال: قلنا يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال: «**هل تضارون فى رؤية الشمس والقمر إذا كانت صحواً**» ـ الحديث.

(١) رواه البخارى [٥٥٤]، ومسلم [٦٣٣]، وأبو داود [٤٧٢٩]، والترمذى [٢٥٥١]، والنسائى فى «الكبرى» [١١٣٣٠]، وابن ماجه [١٧٧]، وأحمد (٤/ ٣٦٠، ٣٦٢).

(٢) سبق تخريجه (١/ ١٧٠).

(٣) رواه البخارى [٤٨٧٨]، ومسلم [١٨٠]، والترمذى [٢٥٢٨]، والنسائى فى «الكبرى» [١١٤٤١]، وابن ماجه [١٨٦]، وأحمد (٤/ ٤١)، وابن حبان [إحسان ـ ٧٣٨٦].

(٤) رواه البخارى [٣٥٩٥] بهذا اللفظ. ورواه مسلم [١٠١٦]، والترمذى [٢٤١٥]، =

وقد روى أحاديث الرؤية نحو ثلاثين صحابياً. ومن أحاط بها معرفة يقطع بأن الرسول قالها، ولولا أنى التزمت الاختصار لسقت ما فى الباب من الأحاديث.

ومن أراد الوقوف عليها فليواظب سماع الأحاديث النبوية، فإن فيها مع إثبات الرؤية وأنه يكلم من شاء إذا شاء، وأنه يأتى الخلق لفصل القضاء يوم القيامة، وأنه فوق العالم، وأنه يناديهم بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب، وأنه يتجلى لعباده، وأنه يضحك، إلى غير ذلك من الصفات التى سماعها على الجهمية بمنزلة الصواعق.

وكيف تعلم أصول دين الإسلام من غير كتاب الله وسنة رسوله وكيف يفسر كتاب الله بغير ما فسره به رسوله ﷺ وأصحابه رضوان الله عليهم، الذين نزل القرآن بلغتهم؟! وقد قال ﷺ: «**من قال فى القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار**» [1] وفى رواية: «**من قال فى القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار**» [2] وسئل أبو بكر الصديق رضي الله عنه عن قوله تعالى:

= وابن ماجه [١٨٥، ١٨٤٣]، وأحمد (٤/٢٥٦، ٣٧٧)، وابن حبان [إحسان - ٧٣٧٤]، من حديث عدى بن حاتم رضي الله عنه قال: بينا أنا عند النبى ﷺ إذ أتاه رجل فشكا إليه الفاقة، ثم أتاه آخر فشكا إليه قطع السبيل، فقال: «**يا عدى هل رأيت الحيرة**» - الحديث، وفيه اللفظ الذى ساقه المصنف.

(١) **إسناده ضعيف**. رواه الترمذى [٢٩٥٠]، والنسائى فى «الكبرى» [٨٠٨٥]، والبيهقى فى «الشعب» [٢٠٧٩]، من طريق عبد الأعلى بن عامر الثعلبى، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضي الله عنهما به.
وإسناده ضعيف فيه عبد الأعلى بن عامر، وهو ضعيف الحديث، ربما رفع الحديث، وربما وقفه كما قال أبو زرعة (الجرح والتعديل - ٦/٢٦)، وقال أحمد: منكر الحديث عن سعيد بن جبير («الكامل» لابن عدى - ٥/١٩٥٣).

(٢) هو أحد ألفاظ الحديث السابق، وهذا اللفظ رواه أحمد (١/٢٣٣، ٢٦٩)، وأبو يعلى [٢٣٣٨]، والطبرانى فى «الكبير» [١٢٣٩٢]، والبيهقى فى «الشعب» [٢٠٨٠].

﴿وَفَاكِهَةً وَأَبًّا﴾ [عبس: ٣١]. ما الأب؟ فقال: أى سماء تظلنى، وأى أرض تقلنى، إذا قلت فى كتاب الله مالا أعلم؟ (١).

وليس تشبيه رؤية الله تعالى برؤية الشمس والقمر تشبيها لله، بل هو تشبيه الرؤية بالرؤية، لا تشبيه المرئى بالمرئى، ولكن فيه دليل على علو الله على خلقه. وإلا فهل تعقل رؤية بلا مقابلة؟! ومن قال: يرى لا فى جهة فليراجع عقله!! فإما أن يكون مكابرا لعقله أو فى عقله شىء، وإلا فإذا قال: يرى لا أمام الرائى ولا خلفه ولا عن يمينه ولا عن يساره ولا فوقه ولا تحته، رد عليه كل من سمعه بفطرته السليمة.

ولهذا ألزم المعتزلة من نفى العلو بالذات بنفى الرؤية، وقالوا: كيف تعقل رؤية بغير جهة.

وإنما لم نره فى الدنيا لعجز أبصارنا، لا لامتناع الرؤية؛ فهذه الشمس إذا حدق الرائى البصر فى شعاعها ضعف عن رؤيتها، لا لامتناع فى ذات المرئى، بل لعجز الرائى، فإذا كان فى الدار الآخرة أكمل الله قوى الآدميين حتى أطاقوا رؤيته؛ ولهذا لما تجلى الله للجبل: ﴿خَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، بأنه لا يراك حى إلا مات، ولا يابس إلا تدهده؛ ولهذا

---

(١) **إسناده ضعيف**. رواه البيهقى [٢٠٨٢]، من طريق حماد بن سلمة، عن على بن جدعان، عن القاسم بن محمد، عن أبى بكر رضي الله عنه به.
وإسناده ضعيف منقطع فيه على بن زيد بن جدعان، وهو ضعيف كما فى «التقريب»، والقاسم لم يسمع من أبى بكر رضي الله عنه.
ورواه ابن أبى شيبة (١٠ / ٥١٣)، من طريق العوام بن حوشب، عن إبراهيم التيمى، عن أبى بكر رضي الله عنه به. وإسناده منقطع، إبراهيم بن يزيد التيمى لم يدرك أبا بكر رضي الله عنه كما فى «تهذيب التهذيب»، وقال ابن كثير فى «التفسير» (٤ / ٤٧٤): هذا منقطع بين إبراهيم التيمى والصديق رضي الله عنه. اهـ.

كان البشر يعجزون عن رؤية الملك فى صورته، إلا من أيده الله كما أيد نبينا، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الأَمْرُ﴾ [الأنعام: ٨]، قال غير واحد من السلف: لا يطيقون أن يروا الملك فى صورته، فلو أنزلنا إليه ملكاً لجعلناه فى صورة بشر، وحينئذ يشتبه عليهم: هل هو بشر أو ملك؟ ومن تمام نعمة الله علينا أن بعث فينا رسولاً منا.

وما ألزمهم المعتزلة هذا الإلزام إلا لما وافقوهم على أنه لا داخل العالم ولا خارجه، لكن قول من أثبت موجودا يرى لا فى جهة أقرب إلى العقل من قول من أثبت موجوداً قائماً بنفسه لا يُرى ولا فى جهة.

ويقال لمن قال بنفى الرؤية لانتفاء لازمها وهو الجهة: أتريد بالجهة أمرا وجودياً؟ أو أمراً عدمياً؟ فإن أردت بها أمراً وجودياً كان التقدير: كل ما ليس فى شئ موجود لا يرى، وهذه المقدمة ممنوعة، ولا دليل على إثباتها، بل هى باطلة، فإن سطح العالم يمكن أن يرى، وليس العالم فى عالم آخر، وإن أردت بالجهة أمراً عدمياً، كانت المقدمة الثانية ممنوعة، فلا نسلم أنه ليس فى جهة بهذا الاعتبار.

وكيف يتكلم فى أصول الدين من لا يتلقاه من الكتاب والسنة، وإنما يتلقاه من قول فلان؟!، وإذا زعم أنه يأخذه من كتاب الله لا يتلقى تفسير كتاب الله من أحاديث الرسول، ولا ينظر فيها، ولا فيما قاله الصحابة والتابعون لهم بإحسان، المنقول إلينا عن الثقات النقلة، الذين تخيرهم النقاد، فإنهم لم ينقلوا نظم القرآن وحده، بل نقلوا نظمه ومعناه، ولا كانوا يتعلمون القرآن كما يتعلم الصبيان، بل يتعلمونه

بمعانيه، ومن لا يسلك سبيلهم فإنما يتكلم برأيه، ومن يتكلم برأيه، وما يظنه دين الله ولم يتلق ذلك من الكتاب والسنة، فهو مأثوم وإن أصاب، ومن أخذ من الكتاب والسنة فهو مأجور وإن أخطأ، لكن إن أصاب يضاعف أجره.

وقوله: «والرؤية حق لأهل الجنة»، تخصيص أهل الجنة بالذكر، يفهم منه نفى الرؤية عن غيرهم. ولا شك فى رؤية أهل الجنة لربهم فى الجنة، وكذلك يرونه فى المحشر قبل دخولهم الجنة، كما ثبت ذلك فى «الصحيحين» عن رسول الله ﷺ، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلامٌ﴾ [الأحزاب: ٤٤]. واختلف فى رؤية أهل المحشر على ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه لا يراه إلا المؤمنون.

الثانى: يراه أهل الموقف، مؤمنهم وكافرهم، ثم يحتجب عن الكفار ولا يرونه بعد ذلك.

الثالث: يراه مع المؤمنين المنافقون دون بقية الكفار. وكذلك الخلاف فى تكليمه لأهل الموقف.

واتفقت الأمة على أنه لا يراه أحد فى الدنيا بعينيه، ولم يتنازعوا فى ذلك إلا فى نبينا ﷺ خاصة: منهم من نفى رؤيته بالعين، ومنهم من أثبتها له ﷺ، وحكى القاضى عياض فى كتابه «الشفا» اختلاف الصحابة ﷺ ومن بعدهم فى رؤيته ﷺ، وإنكار عائشة ﷺ أن يكون ﷺ رأى ربه بعين رأسه، وأنها قالت لمسروق حين سألها: هل رأى محمد ربه؟ فقالت: «لقد قف شعرى مما قلت، ثم قالت: من

حدثك أن محمدا رأى ربه فقد كذب »[1]. ثم قال: وقال جماعة بقول عائشة ﵂، وهو المشهور عن ابن مسعود وأبى هريرة واختلف عنه، وقال بإنكار هذا وامتناع رؤيته فى الدنيا: جماعة من المحدثين والفقهاء والمتكلمين.

وعن ابن عباس ﵄: « أنه ﷺ رآه بعينه »[2] وروى عطاء عنه: أنه رآه بقلبه[3]. ثم ذكر أقوالاً وفوائد، ثم قال:

وأما وجوبه لنبينا ﷺ والقول بأنه رآه بعينه، فليس فيه قاطع ولا نص، والمعول فيه على آية النجم، والتنازع فيهما مأثور، والاحتمال لهما ممكن.

وهذا القول الذى قاله القاضى عياض ـ رحمه الله ـ هو الحق، فإن الرؤية فى الدنيا ممكنة، إذ لو لم تكن ممكنة، لما سألها موسى ﵇، لكن لم يرد نص بأنه ﷺ رأى ربه بعين رأسه، بل ورد ما يدل على نفى الرؤية، وهو ما رواه مسلم فى « صحيحه » عن أبى ذر ﵁ قال:

---

(١) رواه البخارى [٤٨٥٥] بهذا اللفظ، ومسلم [١٧٧]، والترمذى [٣٠٦٨، ٣٢٧٨]، والنسائى فى « الكبرى » [١١١٤٧، ١١٤٠٨]، وأحمد (٦ / ٤٩)، وأبو عوانة (١ / ١٥٤)، وابن حبان [إحسان ـ ٦٠].

(٢) قال ابن تيمية فى « مجموع الفتاوى » (٦ / ٥٠٩): الألفاظ الثابتة عن ابن عباس ﵄ هى مطلقة، أو مقيدة بالفؤاد، تارة يقول: رأى محمد ربه، وتارة يقول: رآه محمد، ولم يثبت عن ابن عباس ﵄ لفظ صريح بأنه رآه بعينه. وقال: ولا ثبت ذلك عن أحد من الصحابة، ولا فى الكتاب والسنة ما يدل على ذلك، بل النصوص الصحيحة تدل على نفيه. اهـ.

(٣) رواه مسلم [١٧٦]، من طريق عطاء، عن ابن عباس ﵄ به.
ورواه مسلم [١٧٦]، والنسائى فى « الكبرى » [١١٥٣٥]، وأحمد (١ / ٢٢٣)، من طريق أبى العالية، عن ابن عباس ﵄ قال: ﴿ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى ﴾ ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى ﴾ قال: رآه بفؤاده مرتين.

سألت رسول الله ﷺ هل رأيت ربك؟ فقال: «**نور أنى أراه**». وفى رواية: «**رأيت نورا**»[1] وقد روى مسلم أيضا عن أبى موسى الأشعرى رضي الله عنه أنه قال: قام فينا رسول الله ﷺ بخمس كلمات، فقال: «**إن الله لا ينام ولا ينبغى له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار، وعمل النهار قبل عمل الليل، حجابه النور**» ـ وفى رواية: «**النار**» ـ «**لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه**»[2]. فيكون ـ والله أعلم ـ معنى قوله لأبى ذر: «**رأيت نورا**»: أنه رأى الحجاب، ومعنى قوله: «**نور أنى أراه**»: النور الذى هو الحجاب يمنع من رؤيته، فأنى أراه؟! أى فكيف أراه والنور حجاب بينى وبينه يمنعنى من رؤيته؟ فهذا صريح فى نفى الرؤية. والله أعلم. وحكى عثمان بن سعيد الدارمى اتفاق الصحابة على ذلك.

ونحن إلى تقرير رؤيته لجبريل أحوج منا إلى تقرير رؤيته لربه تعالى، وإن كانت رؤية الرب تعالى أعظم وأعلى، فإن النبوة لا يتوقف ثبوتها عليها البتة.

وقوله: «بغير إحاطة ولا كيفية» هذا لكمال عظمته وبهائه، سبحانه وتعالى، لا تدركه الأبصار ولا تحيط به، كما يعلم ولا يحاط به علماً. قال تعالى: ﴿**لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ**﴾ [الأنعام: ١٠٣]. وقال تعالى: ﴿**وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا**﴾ [طه: ١١٠].

---

(١) رواه مسلم [١٧٨]، والترمذى [٣٢٨٢]، وأحمد (٥/ ١٤٧، ١٥٧)، والطيالسى [٤٧٤]، وأبو عوانة (١/ ١٤٦، ١٤٧)، وابن خزيمة فى «التوحيد [٣٠٣]، وابن منده فى «الإيمان» [٧٧٠]، وابن حبان [إحسان ـ ٥٨]، والرواية الأخرى رواها مسلم.

(٢) سبق تخريجه (١/ ٧٣).

وقوله: «وتفسيره على ما أراد الله وعلمه»، إلى أن قال: «لا ندخل في ذلك متأولين بآرائنا ولا متوهمين بأهوائنا». أى: كما فعلت المعتزلة بنصوص الكتاب والسنة فى الرؤية، وذلك تحريف لكلام الله وكلام رسوله عن مواضعه. فالتأويل الصحيح هو الذى يوافق ما جاءت به السنة، والفاسد المخالف له. فكل تأويل بمعنى لم يدل عليه دليل من السياق، ولا معه قرينة تقتضيه، فإن هذا لا يقصده المبين الهادى بكلامه، إذ لو قصده لحف بالكلام قرائن تدل على المعنى المخالف لظاهره، حتى لا يوقع السامع فى اللبس والخطأ، فإن الله أنزل كلامه بياناً وهدى، فإذا أراد به خلاف ظاهره، ولم يحف به قرائن تدل على المعنى الذى يتبادر غيره إلى فهم كل أحد، لم يكن بيانا ولا هدى. فالتأويل إخبار بمراد المتكلم، لا إنشاء.

وفى هذا الموضع يغلط كثير من الناس، فإن المقصود فهم مراد المتكلم بكلامه، فإذا قيل: معنى اللفظ كذا وكذا، كان إخباراً بالذى عناه المتكلم، فإن لم يكن الخبر مطابقاً كان كذباً على المتكلم.

ويعرف مراد المتكلم بطرق متعددة:

منها: أن يصرح بإرادة ذلك المعنى.

ومنها: أن يستعمل اللفظ الذى له معنى ظاهر بالوضع، ولا يبين بقرينة تصحب الكلام أنه لم يرد ذلك المعنى، فكيف إذا حف بكلامه ما يدل على أنه إنما أراد حقيقته وما وضع له، كقوله: ﴿ **وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا** ﴾ [النساء: ١٦٤]. و«**إنكم ترون ربكم عيانا كما ترون الشمس فى**

الظهيرة ليس دونها سحاب»[1]. فهذا مما يقطع السامع فيه بمراد المتكلم، فإذا أخبر عن مراده بما دل عليه حقيقة لفظه الذى وضع له مع القرائن المؤكدة، كان صادقا فى إخباره. وأما إذا تأول الكلام بما لا يدل عليه ولا اقترن به ما يدل عليه، فإخباره بأن هذا مراده كذب عليه، وهو تأويل بالرأى، وتوهم بالهوى.

وحقيقة الأمر: أن قول القائل: نحمله على كذا، أو: نتأوله بكذا، إنما هو من باب دفع دلالة اللفظ عما وضع له، فإن منازعه لما احتج عليه به ولم يمكنه دفع وروده دفع معناه، وقال: أحمله على خلاف ظاهره.

فإن قيل: بل للحمل معنى آخر، لم تذكروه، وهو: أن اللفظ لما استحال أن يراد به حقيقته وظاهره، ولا يمكن تعطيله، استدللنا بوروده وعدم إرادة ظاهره على أن مجازه هو المراد، فحملناه عليه دلالة لا ابتداء.

قيل: فهذا المعنى هو الإخبار عن المتكلم أنه أراده، وهو إما صدق وإما كذب، كما تقدم، ومن الممتنع أن يريد خلاف حقيقته وظاهره ولا يبين للسامع المعنى الذى أراده، بل يقرن بكلامه ما يؤكد إرادة الحقيقة. ونحن لا نمنع أن المتكلم قد يريد بكلامه خلاف ظاهره، إذا قصد التعمية على السامع حيث يسوغ ذلك، ولكن المنكر أن يريد بكلامه خلاف حقيقته وظاهره إذا قصد البيان والإيضاح وإفهام مراده. كيف والمتكلم يؤكد كلامه بما ينفى المجاز، ويكرره غير مرة، ويضرب له الأمثال.

---

(١) سبق تخريجه (١/١٧٦).

وقوله: «فإنه ما سلم في دينه إلا من سلم لله عز وجل ولرسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، ورد علم ما اشتبه عليه إلى عالمه».

أي: سلم لنصوص الكتاب والسنة، ولم يعترض عليها بالشكوك والشبه والتأويلات الفاسدة، أو يقول: العقل يشهد بضد ما دل عليه النقل. والعقل أصل النقل!! فإذا عارضه قدمنا العقل!! وهذا لا يكون قط. لكن إذا جاء ما يوهم مثل ذلك: فإن كان النقل صحيحاً فذلك الذي يدعى أنه معقول إنما هو مجهول، ولو حقق النظر لظهر ذلك، وإن كان النقل غير صحيح فلا يصلح للمعارضة، فلا يتصور أن يتعارض عقل صريح ونقل صحيح أبداً، ويعارض كلام من يقول ذلك بنظره، فيقال: إذا تعارض العقل والنقل وجب تقديم النقل؛ لأن الجمع بين المدلولين جمع بين النقيضين، ورفعهما رفع النقيضين، وتقديم العقل ممتنع؛ لأن العقل قد دل على صحة السمع ووجوب قبول ما أخبر به الرسول ﷺ، فلو أبطلنا النقل لكنا قد أبطلنا دلالة العقل، ولو أبطلنا دلالة العقل لم يصلح أن يكون معارضاً للنقل؛ لأن ما ليس بدليل لا يصلح لمعارضة شئ من الأشياء، فكان تقديم العقل موجباً عدم تقديمه، فلا يجوز تقديمه، وهذا بين واضح، فإن العقل هو الذى دل على صدق السمع وصحته، وأن خبره مطابق لمخبره، فإن جاز أن تكون الدلالة باطلة لبطلان النقل لزم أن لا يكون النقل دليلاً صحيحاً، وإذا لم يكن دليلاً صحيحاً لم يجز أن يتبع بحال، فضلاً عن أن يقدم، فصار تقديم العقل على النقل قدحاً فى العقل.

فالواجب كمال التسليم للرسول ﷺ، والانقياد لأمره، وتلقى خبره بالقبول والتصديق، دون أن يعارضه بخيال باطل يسميه معقولاً،

أو يحمله شبهة أو شكاً، أو يقدم عليه آراء الرجال وزبالة أذهانهم، فيوحده بالتحكيم والتسليم والانقياد والإذعان، كما وحد المرسل بالعبادة والخضوع والذل والإنابة والتوكل.

فهما توحيدان، لا نجاة للعبد من عذاب الله إلا بهما: توحيد المرسل، وتوحيد متابعة الرسول، فلا يحاكم الى غيره، ولا يرضى بحكم غيره، ولا يقف تنفيذ أمره وتصديق خبره على عرضه على قول شيخه وإمامه وذوى مذهبه وطائفته ومن يعظمه، فإن أذنوا له نفذه وقبل خبره، وإلا فإن طلب السلامة فوضه إليهم وأعرض عن أمره وخبره، وإلا حرفه عن مواضعه، وسمى تحريفه تأويلاً وحملاً، فقال: نؤوله ونحمله، فلأن يلقى العبد ربه بكل ذنب ـ ما خلا الإشراك بالله ـ خير له من أن يلقاه بهذه الحال.

بل إذا بلغه الحديث الصحيح يعد نفسه كأنه سمعه من رسول الله ﷺ، فهل يسوغ له أن يؤخر قبوله والعمل به حتى يعرضه على رأى فلان وكلامه ومذهبه؟! بل كان الفرض المبادرة إلى امتثاله، من غير التفات إلى سواه، ولا يستشكل قوله لمخالفته رأى فلان، بل تستشكل الآراء لقوله، ولا يعارض نصه بقياس، بل تهدر الأقيسة، وتلقى لنصوصه، ولا يحرف كلامه عن حقيقته، لخيال يسميه أصحابه معقولاً، نعم هو مجهول، وعن الصواب معزول. ولا يوقف قبول قوله على موافقة فلان دون فلان كائناً من كان.

قال الإمام أحمد: حدثنا أنس بن عياض، حدثنا أبو حازم، عن عمرو بن شعيب عن أبيه، عن جده، قال: لقد جلست أنا وأخى مجلساً ما أحب أن لى به حمر النعم، أقبلت أنا وأخى، وإذا مشيخة

من أصحاب رسول الله ﷺ جلوس عند باب من أبوابه، فكرهنا أن نفرق بينهم، فجلسنا حجرة، إذ ذكروا آية من القرآن فتماروا فيها، حتى ارتفعت أصواتهم، فخرج رسول الله مغضباً، قد احمر وجهه، يرميهم بالتراب، ويقول: «**مهلاً يا قوم، بهذا أهلكت الأمم من قبلكم، باختلافهم على أنبيائهم، وضربهم الكتب بعضها ببعض، إن القرآن لم ينزل يكذب بعضه بعضاً، وإنما نزل يصدق بعضه بعضاً، فما عرفتم منه فاعملوا به، وما جهلتم منه فردوه إلى عالمه**»(١).

ولا شك أن الله قد حرم القول عليه بغير علم، قال تعالى: ﴿**قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ**﴾ [الأعراف: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿**وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ**﴾ [الإسراء: ٣٦]، فعلى العبد أن يجعل ما بعث الله به رسله، وأنزل به كتبه هو الحق الذى يجب اتباعه، فيصدق بأنه حق وصدق، وما سواه من كلام سائر الناس يعرض عليه، فإن وافقه فهو حق، وإن خالفه فهو باطل، وإن لم يعلم: هل خالفه أو وافقه لكون ذلك الكلام مجملاً لا يعرف مراد صاحبه، أو قد عرف مراده لكن لم يعرف هل جاء الرسول بتصديقه أو بتكذيبه فإنه يمسك

---

(١) **صحيح**. رواه أحمد (٢/ ١٨١)، عن أنس بن عياض، عن أبى حازم، عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده به.

وإسناده حسن، رجاله ثقات غير عمرو بن شعيب وأبوه فكلاهما صدوق كما فى «التقريب»، ويشهد له ما رواه مسلم [٢٦٦٦]، والنسائى فى «الكبرى» [٨٠٩٥]، وأحمد (٢/ ١٩٢)، من حديث عبد الله بن عمرو ﷺ قال: هجرت إلى رسول الله ﷺ يوماً قال: فسمع صوت رجلين اختلفا فى آية فخرج علينا رسول الله ﷺ يُعرف فى وجهه الغضب فقال: «**إنما هلك من كان قبلكم باختلافهم فى الكتاب**».

عنه، ولا يتكلم إلا بعلم، والعلم ما قام عليه الدليل، والنافع منه ما جاء به الرسول، وقد يكون علم عن غير الرسول، لكن فى الأمور الدنيوية، مثل الطب والحساب والفلاحة، وأما الأمور الإلهية والمعارف الدينية، فهذه، العلم فيها ما أخذ عن الرسول لا غير.

قوله: «**ولا تثبت قدم الإسلام إلا على ظهر التسليم والاستسلام**».

ش: هذا من باب الاستعارة، إذ القدم الحسى لا تثبت إلا على ظهر شيء، أى: لا يثبت إسلام من لم يسلم لنصوص الوحيين، وينقاد إليها، ولا يعترض عليها ولا يعارضها برأيه ومعقوله وقياسه. روى البخارى عن الإمام محمد بن شهاب الزهرى - رحمه الله - أنه قال: «من الله الرسالة، وعلى الرسول البلاغ، وعلينا التسليم». وهذا كلام جامع نافع.

وما أحسن المثل المضروب للنقل مع العقل، وهو: أن العقل مع النقل كالعامى المقلد مع العالم المجتهد، بل هو دون ذلك بكثير، فإن العامى يمكنه أن يصير عالماً، ولا يمكن العالم أن يصير نبياً رسولاً، فإذا عرف العامى المقلد عالماً، فدل عليه عامياً آخر، ثم اختلف المفتى والدال، فإن المستفتى يجب عليه قبول قول المفتى دون الدال، فلو قال الدال: الصواب معى دون المفتى، لأنى أنا الأصل فى علمك بأنه مفت، فإذا قدمت قوله على قولى قدحت فى الأصل الذى به عرفت أنه مفت، فلزم القدح فى فرعه فيقول له المستفتى: أنت لما شهدت له بأنه مفت، ودللت عليه، شهدت له بوجوب تقليده دونك، فموافقتى لك فى هذا العلم المعين، لا يستلزم موافقتك فى كل مسألة، وخطؤك فيما خالفت فيه المفتى الذى هو أعلم منك، لا يستلزم خطأك فى علمك

بأنه مفت، هذا مع علمه أن ذلك المفتى قد يخطىء.

والعقل يعلم أن الرسول معصوم فى خبره عن الله تعالى، لا يجوز عليه الخطأ، فيجب عليه التسليم له والانقياد لأمره، قد علمنا بالاضطرار من دين الإسلام أن الرجل لو قال للرسول: هذا القرآن الذى تلقيه علينا والحكمة التى جئتنا بها، وقد تضمن كل منهما أشياء كثيرة تناقض ما علمناه بعقولنا، ونحن إنما علمنا صدقك بعقولنا، فلو قبلنا جميع ما تقوله مع أن عقولنا تناقض ذلك لكان قدحا فى ما علمنا به صدقك؛ فنحن نعتقد موجب الأقوال الناقضة لما ظهر من كلامك، وكلامك نعرض عنه، لا نتلقى منه هدى ولا علماً، لم يكن مثل هذا الرجل مؤمنا بما جاء به الرسول، ولم يرض منه الرسول بهذا، بل يعلم أن هذا لو ساغ لأمكن كل أحد أن لا يؤمن بشئ مما جاء به الرسول؛ إذ العقول متفاوتة، والشبهات كثيرة، والشياطين لا تزال تلقى الوساوس فى النفوس، فيمكن كل أحد أن يقول مثل هذا فى كل ما أخبر به الرسول وما أمر به!! وقد قال تعالى: ﴿**وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ**﴾ [النور: ٥٤]، وقال: ﴿**فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ**﴾ [النحل: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ**﴾ [إبراهيم: ٤]. ﴿**قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ**﴾ [المائدة: ١٥]. ﴿**حم * وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ**﴾ [الدخان: ١-٢]. ﴿**تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ**﴾ [يوسف: ١]. ﴿**مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**﴾ [يوسف: ١١١]. ﴿**وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ**﴾ [النحل: ٨٩]. ونظائر ذلك كثيرة فى القرآن.

فأمر الإيمان بالله واليوم الآخر: إما أن يكون الرسول تكلم فيه بما يدل على الحق أم لا؟ الثانى باطل، وإن كان قد تكلم بما يدل على الحق بألفاظ مجملة محتملة، فما بلغ البلاغ المبين، وقد شهد له خير القرون بالبلاغ، وأشهد الله عليهم فى الموقف الأعظم، فمن يدعى أنه فى أصول الدين لم يبلغ البلاغ المبين، فقد افترى عليه ﷺ.

قوله: «**فمن رام علم ما حظر عنه علمه ولم يقنع بالتسليم فهمه، حجبه مرامه عن خالص التوحيد، وصافى المعرفة، وصحيح الإيمان**».

ش: هذا تقرير للكلام الأول، وزيادة تحذير أن يتكلم في أصول الدين - بل وفى غيرها - بغير علم. وقال تعالى: ﴿**وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً**﴾ [الإسراء: ٣٦]. وقال تعالى: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ * كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلاَّهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ**﴾ [الحج: ٣-٤]. وقال تعالى: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدًى وَلا كِتَابٍ مُّنِيرٍ * ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ**﴾ [الحج: ٨-٩]. وقال تعالى: ﴿**وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**﴾ [القصص: ٥٠]. وقال تعالى: ﴿**إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَى**﴾ [النجم: ٢٣]. إلى غير ذلك من الآيات الدالة على هذا المعنى.

وعن أبى أمامة الباهلى رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل**»، ثم تلا: ﴿**مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً**﴾[1]

---

(١) **حسن**. رواه الترمذى [٣٢٥٣]، وابن ماجه [٤٨]، وأحمد (٥/٢٥٢، ٢٥٦) =

[الزخرف: ٥٨]. رواه الترمذى، وقال: حديث حسن.

وعن عائشة ﵂، قالت: قال رسول الله ﷺ: «**إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم**»(١) خرجاه فى «الصحيحين».

ولا شك أن من لم يسلم للرسول نقص توحيده، فإنه يقول برأيه وهواه، أو يقلد ذا رأى وهوى بغير هدى من الله، فينقص من توحيده بقدر خروجه عما جاء به الرسول، فإنه قد اتخذه فى ذلك إلها غير الله. قال تعالى: ﴿**أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ**﴾ [الجاثية: ٢٣]. أى: عبد ما تهواه نفسه. وإنما دخل الفساد فى العالم من ثلاث فرق، كما قال عبد الله بن المبارك رحمة الله عليه.

رأيت الذنوب تميت القلوب ... وقد يورث الذل إدمانها

وترك الذنوب حياة القلوب ... وخير لنفسك عصيانها

وهل أفسد الدين إلا الملوك ... وأحبار سوء ورهبانها

فالملوك الجائرة يعترضون على الشريعة بالسياسات الجائرة، ويعارضونها بها ويقدمونها على حكم الله ورسوله.

= وابن جرير فى «التفسير» (٢٥/٨٨)، واللالكائى فى «السنة» [١٧٧]، والحاكم (٢/٤٤٧)، والطبرانى فى «الكبير» [٨٠٦٧]، من طريق حجاج بن دينار، عن أبى غالب، عن أبى أمامة ﵁ مرفوعاً به.
وإسناده حسن، حجاج بن دينار لا بأس به، وله ذكر فى مقدمة مسلم، وأبو غالب صاحب أبى أمامة صدوق يخطئ، كما فى «التقريب».
قال الترمذى: حديث حسن صحيح.

(١) رواه البخارى [٢٤٥٧]، ومسلم [٢٦٦٨]، والترمذى [٢٩٧٦]، والنسائى (٨/٢١٧)، وأحمد (٦/٥٥، ٦٢)، والحميدى [٢٧٣]، وابن حبان [إحسان - ٥٦٩٧]، والبيهقى (١٠/١٠٨).

وأحبار السوء - وهم العلماء الخارجون عن الشريعة - بآرائهم وأقيستهم الفاسدة، المتضمنة تحليل ما حرم الله ورسوله، وتحريم ما أباحه، واعتبار ما ألغاه، وإلغاء ما اعتبره، وإطلاق ما قيده وتقييد ما أطلقه، ونحو ذلك.

والرهبان وهم جهال المتصوفة، المعترضون على حقائق الإيمان والشرع بالأذواق والمواجيد والخيالات والكشوفات الباطلة الشيطانية المتضمنة شرع دين لم يأذن به الله، وإبطال دينه الذى شرعه على لسان نبيه ﷺ، والتعوض عن حقائق الإيمان بخدع الشيطان وحظوظ النفس.

فقال الأولون: إذا تعارضت السياسة والشرع قدمنا السياسة. وقال الآخرون: إذا تعارض العقل والنقل قدمنا العقل. وقال أصحاب الذوق إذا تعارض الذوق والكشف وظاهر الشرع قدمنا الذوق والكشف!.

ومن كلام أبى حامد الغزالى رحمه الله فى كتابه الذى سماه «إحياء علوم الدين» وهو من أجل كتبه، أو أجلها: «فإن قلت: فعلم الجدل والكلام مذموم كعلم النجوم أو هو مباح أو مندوب إليه؟ فاعلم أن للناس فى هذا غلواً وإسرافاً فى أطراف. فمن قائل: إنه بدعة وحرام، وإن العبد أن يلقى الله بكل ذنب سوى الشرك خير له من أن يلقاه بالكلام. ومن قائل: إنه فرض، إما على الكفاية وإما على الأعيان، وإنه أفضل الأعمال وأعلى القربات، فإنه تحقيق لعلم التوحيد ونضال عن دين الله، قال: وإلى التحريم ذهب الشافعى ومالك وأحمد بن حنبل وسفيان وجميع أئمة الحديث من السلف» وساق الألفاظ عن هؤلاء. قال: «وقد اتفق أهل الحديث من السلف على هذا. لا ينحصر ما نقل

عنهم من التشديدات فيه، قالوا: ما سكت عنه الصحابة - مع أنهم أعرف بالحقائق وأفصح بترتيب الألفاظ من غيرهم - إلا لما يتولد منه من الشر؛ ولذلك قال ﷺ: «**هلك المتنطعون**» [1] أى: المتعمقون فى البحث والاستقصاء.

واحتجوا أيضاً بأن ذلك لو كان من الدين لكان أهم ما يأمر به رسول الله ﷺ ويعلم طريقه ويثنى على أربابه، ثم ذكر بقية استدلالهم. ثم ذكر استدلال الفريق الآخر. إلى أن قال:

فإن قلت: فما المختار عندك؟ فأجاب بالتفصيل، فقال: فيه منفعة، وفيه مضرة: فهو باعتبار منفعته فى وقت الانتفاع حلال أو مندوب أو واجب، كما يقتضيه الحال. وهو باعتبار مضرته فى وقت الاستضرار ومحله حرام.

قال: فأما مضرته، فإثارة الشبهات، وتحريك العقائد وإزالتها عن الجزم والتصميم. وذلك مما يحصل بالابتداء، ورجوعها بالدليل مشكوك فيه، ويختلف فيه الأشخاص. فهذا ضرره فى اعتقاد الحق، وله ضرر فى تأكيد اعتقاد البدعة، وتثبيتها فى صدورهم، بحيث تنبعث دواعيهم ويشتد حرصهم على الإصرار عليه ولكن هذا الضرر بواسطة التعصب الذى يثور من الجدل.

قال: وأما منفعته، فقد يظن أن فائدته كشف الحقائق ومعرفتها على ما هى عليه وهيهات، فليس فى الكلام وفاء بهذا المطلب

---

(١) رواه مسلم [٢٦٧٠]، وأبو داود [٤٦٠٨]، وأحمد (١ / ٣٨٦)، والبزار [البحر الزخار - ١٨٧٧]، وأبو يعلى [٥٠٠٤]، والطبرانى فى «الكبير» [١٠٣٦٨]، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

الشريف، ولعل التخبيط والتضليل أكثر من الكشف والتعريف.

قال: وهذا إذا سمعته من محدث أو حشوى ربما خطر ببالك أن الناس أعداء ما جهلوا، فاسمع هذا ممن خبر الكلام، ثم قلاه بعد حقيقة الخبرة وبعد التغلغل فيه إلى منتهى درجة المتكلمين، وجاوز ذلك إلى التعمق فى علوم أخر تناسب علم الكلام، وتحقق أن الطريق إلى حقائق المعرفة من هذا الوجه مسدود. ولعمرى لا ينفك الكلام عن كشف وتعريف وإيضاح لبعض الأمور، ولكن على الندور». انتهى ما نقلته عن الغزالى رحمه الله.

وكلام مثله فى ذلك حجة بالغة، والسلف لم يكرهوه لمجرد كونه اصطلاحاً جديدا على معان صحيحة، كالاصطلاح على ألفاظ لعلوم الصحيحة، ولا كرهوا أيضا الدلالة على الحق والمحاجة لأهل الباطل، بل كرهوه لاشتماله على أمور كاذبة مخالفة للحق. ومن ذلك: مخالفتها للكتاب والسنة وما فيه من علوم صحيحة، فقد وعروا الطريق إلى تحصيلها، وأطالوا الكلام فى إثباتها مع قلة نفعها، فهى لحم جمل غث على رأس جبل وعر لا سهل فيرتقى، ولا سمين فينتقى. وأحسن ما عندهم فهو فى القرآن أصح تقريراً، وأحسن تفسيراً، فليس عندهم إلا التكلف والتطويل والتعقيد. كما قيل:

لولا التنافس فى الدنيا لما وُضِعت ... كتب التناظر لا المغنى ولا العَمَدُ

يحللون بزعم منهم عقداً ... وبالذى وضعوه زادت العقدُ

فهم يزعمون أنهم يدفعون بالذى وضعوه الشبه والشكوك، والفاضل الذكى يعلم أن الشبه والشكوك زادت بذلك.

ومن المحال أن لا يحصل الشفاء والهدى والعلم واليقين من كتاب الله وكلام رسوله، ويحصل من كلام هؤلاء المتحيرين. بل الواجب أن يجعل ما قاله الله ورسوله هو الأصل، ويتدبر معناه ويعقله، ويعرف برهانه ودليله إما العقلى و إما الخبرى السمعى، ويعرف دلالته على هذا وهذا، ويجعل أقوال الناس التى توافقه وتخالفه متشابهة مجملة، فيقال لأصحابها: هذه الألفاظ تحتمل كذا وكذا، فإن أرادوا بها ما يوافق خبر الرسول قبل، وإن أرادوا بها ما يخالفه رد.

وهذا مثل لفظ المركب والجسم والمتحيز والجوهر والجهة والحيز والعرض، ونحو ذلك. فإن هذه الألفاظ لم تأت فى الكتاب والسنة بالمعنى الذى يريده أهل هذا الاصطلاح، بل ولا فى اللغة، بل هم يختصون بالتعبير بها عن معان لم يعبر غيرهم عنها بها، فتفسر تلك المعانى بعبارات أخرى، وينظر ما دل عليه القرآن من الأدلة العقلية والسمعية، وإذا وقع الاستفسار والتفصيل تبين الحق من الباطل.

مثال ذلك، فى التركيب، فقد صار له معان:

أحدها: التركيب من متباينين فأكثر، ويسمى: تركيب مزج، كتركيب الحيوان من الطبائع الأربع والأعضاء ونحو ذلك، وهذا المعنى منفى عن الله سبحانه وتعالى، ولا يلزم من وصف الله تعالى بالعلو ونحوه من صفات الكمال، أن يكون مركبا بهذا المعنى المذكور.

الثانى: تركيب الجوار، كمصراعى الباب ونحو ذلك، ولا يلزم أيضاً من ثبوت صفاته تعالى إثبات هذا التركيب.

الثالث: التركيب من الأجزاء المتماثلة، وتسمى: الجواهر المفردة.

الرابع: التركيب من الهيولى والصورة، كالخاتم مثلاً، هيولاه: الفضة، وصورته معروفة.

وأهل الكلام قالوا: إن الجسم يكون مركباً من الجواهر المفردة ولهم كلام فى ذلك يطول ولا فائدة فيه وهو أنه: هل يمكن التركيب من جزئين، أو أربعة، أو ستة، أو ثمانية، أو ستة عشر؟ وليس هذا التركيب لازماً لثبوت صفاته تعالى وعلوه على خلقه.

والحق أن الجسم غير مركب من هذه الأشياء، وإنما قولهم مجرد دعوى، وهذا مبسوط فى موضعه.

الخامس: التركيب من الذات والصفات، هذا سموه تركيباً لينفوا به صفات الرب تعالى، وهذا اصطلاح منهم لا يعرف فى اللغة، ولا فى استعمال الشارع، فلسنا نوافقهم على هذه التسمية ولا كرامة. ولئن سموا إثبات الصفات تركيباً؛ فنقول لهم: العبرة للمعانى لا للألفاظ، سموه ما شئتم، فلا يترتب على التسمية بدون المعنى حكم. فلو اصطلح على تسمية اللبن خمراً، لم يحرم بهذه التسمية.

السادس: التركيب من الماهية ووجودها، وهذا يفرضه الذهن أنهما غيران، وأما فى الخارج، هل يمكن ذات مجردة عن وجودها، ووجودها مجرد عنها؟ هذا محال. فترى أهل الكلام يقولون: هل ذات الرب وجوده أم غير وجوده؟ ولهم فى ذلك خبط كثير، وأمثلهم طريقة رأى الوقف والشك فى ذلك. وكم زال بالاستفسار والتفصيل كثير من الأضاليل والأباطيل.

وسبب الإضلال الإعراض عن تدبر كلام الله وكلام رسوله، والاشتغال بكلام اليونان والآراء المختلفة.

وإنما سُمي هؤلاء أهل الكلام؛ لأنهم لم يفيدوا علماً لم يكن معروفاً، وإنما أتوا بزيادة كلام قد لا يفيد، وهو ما يضربونه من القياس لإيضاح ما علم بالحس، وإن كان هذا القياس وأمثاله ينتفع به في موضع آخر، ومع من ينكر الحس. وكل من قال برأيه أو ذوقه أو سياسته - مع وجود النص، أو عارض النص بالمعقول فقد ضاهى إبليس، حيث لم يسلم لأمر ربه، بل قال: ﴿**أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ**﴾ [الأعراف: ١٢]. وقال تعالى: ﴿**مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا**﴾ [النساء: ٨٠]. وقال تعالى: ﴿**قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ [آل عمران: ٣١]. وقال تعالى: ﴿**فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا**﴾ [النساء: ٦٥]. أقسم سبحانه بنفسه أنهم لا يؤمنون حتى يحكموا نبيه ويرضوا بحكمه ويسلموا تسليماً.

قوله: «**فيتذبذب بين الكفر والإيمان، والتصديق، والتكذيب، والإقرار والإنكار موسوسا تائهاً، شاكاً زائغاً، لامؤمناً مصدقاً، ولا جاحداً مكذباً**».

ش: يتذبذب: يضطرب ويتردد، وهذه الحالة التي وصفها الشيخ رحمه الله حال كل من عدل عن الكتاب والسنة إلى علم الكلام المذموم، أو أراد أن يجمع بينه وبين الكتاب والسنة، وعند التعارض يتأول النص، ويرده إلى الرأي والآراء المختلفة، فيؤول أمره إلى الحيرة

والضلال والشك، كما قال ابن رشد الحفيد [1]، وهو من أعلم الناس بمذاهب الفلاسفة ومقالاتهم، في كتابه « تهافت التهافت » ـ : « ومن الذي قال في الإلهيات شيئا يعتد به؟ » وكذلك الآمدى [2]، أفضل أهل زمانه، واقف في المسائل الكبار حائر. وكذلك الغزالي رحمه الله، انتهى آخر أمره إلى الوقف والحيرة في المسائل الكلامية، ثم أعرض عن تلك الطرق وأقبل على أحاديث الرسول ﷺ، فمات و « صحيح الإمام البخاري » على صدره. وكذلك أبو عبد الله محمد بن عمر الرازي، قال في كتابه الذي صنفه: في أقسام اللذات:

نهاية إقدام العقول عقال
وغاية سعي العالمين ضلال
وأرواحنا في وحشة من جسومنا
وحاصل دنيانا أذى ووبال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا
سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا

---

(١) هو العلامة الفليسوف، أبو الوليد محمد بن أبي القاسم أحمد ابن شيخ المالكية أبي الوليد محمد بن أحمد، ولد سنة (٥٢٠ هـ)، ومات سنة (٥٩٥ هـ).
ويلقب بالحفيد تمييزاً له عن جده أبي الوليد محمد بن أحمد المتوفى سنة (٥٢٠ هـ).
(السير ـ ٢١ / ٣٠٧)، (التكملة لوفيات النقلة ـ ١ / ٣٢١).

(٢) هو سيف الدين عليّ بن أبي عليّ بن محمد بن سالم التغلبي الآمديّ الحنبلي ثم الشافعي. ولد سنة نيف وخمسين. له « منتهى السول في الأصول »، وله نحو من عشرين تصنيفاً. مات سنة (٦٣١ هـ). (السير ـ ٢٢ / ٣٦٤).

فكم قد رأينا من رجال ودولة
فبادوا جميعا مسرعين وزالوا

وكم من جبال قد علت شرفاتها
رجال، فزالوا والجبال جبال

لقد تأملت الطرق الكلامية، والمناهج الفلسفية، فما رأيتها تشفى عليلاً، ولا تروى غليلاً، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن، أقرأ في الإثبات: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥]. ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠]. وأقرأ فى النفى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]. ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠]. ثم قال: «ومن جرب مثل تجربتى عرف مثل معرفتى».

وكذلك قال الشيخ أبو عبدالله محمد بن عبد الكريم الشهرستانى [1]، إنه لم يجد عند الفلاسفة والمتكلمين إلا الحيرة والندم، حيث قال:

لعمرى لقد طفت المعاهد كلها
وسيرت طرفى بين تلك المعالم

فلم أر إلا واضعاً كف حائر
على ذقن أو قارعاً سن نادم

وكذلك قال أبو المعالى الجوينى: يا أصحابنا لا تشتغلوا بالكلام، فلو عرفت أن الكلام يبلغ بى إلى ما بلغ ما اشتغلت به. وقال عند

---

(١) هو محمد بن عبد الكريم بن أحمد الشهرستانى، أبو الفتح: برع فى الفقه على الإمام أحمد الخَوَافى الشافعى، وقرأ الأصول على أبى نصر بن القشيرى، وعلى أبى القاسم الأنصارىّ، له كتاب «الملل والنحل». مات سنة (٥٤٨ هـ)، بشهرستانة، (سير أعلام النبلاء - ٢٠/ ٢٨٦).

موته: لقد خضت البحر الخضم، وخليت أهل الإسلام وعلومهم، ودخلت فى الذى نهونى عنه، والآن فإن لم يتداركنى ربى برحمته فالويل لابن الجوينى، وها أنا ذا أموت على عقيدة أمى، أو قال: على عقيدة عجائز نيسابور.

وكذلك قال شمس الدين الخسروشاهى [1]، وكان من أجل تلامذة فخر الدين الرازى، لبعض الفضلاء، وقد دخل عليه يوما، فقال: ما تعتقد؟ قال: ما يعتقده المسلمون، فقال: وأنت منشرح الصدر لذلك مستيقن به؟ أو كما قال، فقال: نعم، فقال: اشكر الله على هذه النعمة لكنى والله ما أدرى ما أعتقد، والله ما أدرى ما أعتقد، والله ما أدرى ما أعتقد، وبكى حتى أخضل لحيته.

ولابن أبى الحديد [2]. الفاضل المشهور بالعراق:

فيك يا أغلوطة الفكر ... حار أمرى وانقضى عمرى

سافرت فيك العقول فما ... ربحت إلا أذى السفر

فلحى الله الأُولى زعموا ... أنك المعروف بالنظر

كذبوا إن الذى ذكروا ... خارج عن قوة البشر

---

(١) هو عبد الحميد بن عيسى بن عَمُّويَه بن يونس، الشيخ الإمام العلامة، شمس الدين أبو محمد الخُسْرَوْشاهى، ولد سنة (٥٨٠ هـ) بخسروشاه، وتوفى بدمشق سنة (٦٥٢ هـ). (الوافى - ١٨ / ٧٣).

(٢) هو عبد الحميد بن هبة الله بن محمد بن محمد بن أبى الحديد، عز الدين أبو حامد المدائنى المعتزلى، الفقيه الشاعر، ولد سنة (٥٨٦ هـ)، وتوفى سنة (٦٥٥ هـ). (الوافى - ١٨/ ٧٦).

وقال الخونجي (١) عند موته: ما عرفت مما حصلته شيئاً سوى أن الممكن يفتقر إلى المرجح، ثم قال: الافتقار وصف سلبى، أموت وما عرفت شيئاً.

وقال آخر: أضطجع على فراشى وأضع الملحفة على وجهى، وأقابل بين حجج هؤلاء وهؤلاء حتى يطلع الفجر، ولم يترجح عندى منها شئ.

ومن يصل إلى مثل هذه الحال إن لم يتداركه الله برحمته وإلا تزندق، كما قال أبو يوسف: من طلب الدين بالكلام تزندق، ومن طلب المال بالكيمياء أفلس، ومن طلب غريب الحديث كذب.

وقال الشافعى رحمه الله: حكمى فى أهل الكلام أن يضربوا بالجريد والنعال، ويطاف بهم فى القبائل والعشائر، ويقال: هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأقبل على الكلام.

وقال: لقد اطلعت من أهل الكلام على شئ ما ظننت مسلما يقوله، ولأن يبتلى العبد بكل ما نهى الله عنه - ما خلا الشرك بالله - خير له من أن يبتلى بالكلام. انتهى.

وتجد أحد هؤلاء عند الموت يرجع إلى مذهب العجائز، فيقر بما أقروا به ويعرض عن تلك الدقائق المخالفة لذلك، التى كان يقطع بها، ثم تبين له فسادها، أو لم يتبين له صحتها، فيكونون فى نهاياتهم - إذا

---

(١) هو القاضى المتكلم الباهر، أبو عبد الله محمد بن ناماور بن عبد الملك، الخُونَجيّ، الشافعى، نزيل مصر. ولد سنة (٥٩٠ هـ). وله تصانيف فى الطب والمنطق. مات سنة (٦٤٦ هـ). (السير - ٢٣/٢٢٨).

سلموا من العذاب ـ بمنزلة أتباع أهل العلم من الصبيان والنساء والأعراب.

والدواء النافع لمثل هذا المرض، ما كان طبيب القلوب صلوات الله وسلامه عليه يقوله إذا قام من الليل يفتتح صلاته: «**اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السماوات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدى من تشاء إلى صراط مستقيم**» (١) أخرجه مسلم.

توسل ﷺ إلى ربه بربوبية جبريل وميكائيل وإسرافيل أن يهديه لما اختلف فيه من الحق بإذنه، إذ حياة القلوب بالهداية وقد وكل الله سبحانه هؤلاء الثلاثة بالحياة فجبريل موكل بالوحى الذى هو سبب حياة القلوب، وميكائيل بالقطر الذى هو سبب حياة الأبدان وسائر الحيوان، وإسرافيل بالنفخ فى الصور الذى هو سبب حياة العالم وعود الأرواح إلى أجسادها. فالتوسل إلى الله سبحانه بربوبية هذه الأرواح العظيمة الموكلة بالحياة، له تأثير عظيم فى حصول المطلوب. والله المستعان.

قوله: «**ولا يصح الإيمان بالرؤية لأهل دار السلام لمن اعتبرها منهم بوهم، أو تأولها بفهم، إذ كان تأويل الرؤية وتأويل كل معنى يضاف إلى الربوبية ترك التأويل، ولزوم التسليم، وعليه دين المسلمين، ومن لم يتوق النفى والتشبيه، زل ولم يصب التنزيه**».

(١) رواه مسلم [٧٧٠]، وأبو داود [٧٦٧]، والترمذى [٣٤٢٠]، والنسائى (٣/١٧٣)، وابن ماجه [١٣٥٧]، وأحمد (٦/١٥٦)، وأبو عوانة (٢/٣٠٤)، وابن خزيمة [١١٥٣]، وابن حبان [إحسان ـ ٢٦٠٠]، من حديث عائشة ﵂.

ش: يشير الشيخ رحمه الله إلى الرد على المعتزلة ومن يقول بقولهم فى نفى الرؤية، وعلى من يشبه الله بشئ من مخلوقاته. فإن النبى ﷺ قال: «**إنكم ترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر**» (١) الحديث: أدخل «كاف» التشبيه على «ما» المصدرية أو الموصولة بـ«ترون» التى تنحل إلى المصدر الذى هو الرؤية، فيكون التشبيه فى الرؤية لا فى المرئى. وهذا بين واضح فى أن المراد إثبات الرؤية وتحقيقها، ودفع الاحتمالات عنها وماذا بعد هذا البيان وهذا الإيضاح؟ فإذا سلط التأويل على مثل هذا النص، كيف يستدل بنص من النصوص؟ وهل يحتمل هذا النص أن يكون معناه: إنكم تعلمون ربكم كما تعلمون القمر ليلة البدر؟ ويستشهد لهذا التأويل الفاسد بقوله تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ**﴾ [الفيل: ١]. ونحو ذلك مما استعمل فيه «رأى» التى من أفعال القلوب!! ولا شك أن «ترى» تارة تكون بصرية، وتارة تكون قلبية، وتارة تكون من رؤيا الحلم، وغير ذلك، ولكن ما يخلو الكلام من قرينة تخلص أحد معانيه من الباقى، وإلا لو أخلى المتكلم كلامه من القرينة المخلصة لأحد المعانى لكان مجملاً ملغزاً، لا مبيناً موضحاً. وأى بيان وقرينة فوق قوله: «**ترون ربكم كما ترون الشمس فى الظهيرة ليس دونها حجاب**» (٢) فهل مثل هذا مما يتعلق برؤية البصر، أو برؤية القلب؟! وهل يخفى مثل هذا إلا على من أعمى الله قلبه؟!.

فإن قالوا: ألجأنا إلى هذا التأويل، حكم العقل بأن رؤيته تعالى

---

(١) سبق تخريجه (١/ ١٧٦).
(٢) سبق تخريجه (١/ ١٧٥).

محال لا يتصور إمكانها.

فالجواب: أن هذه دعوى منكم، خالفكم فيها أكثر العقلاء، وليس في العقل ما يحيلها، بل لو عرض على العقل موجود قائم بنفسه لا يمكن رؤيته لحكم بأن هذا محال.

وقوله: «لمن اعتبرها منهم بوهم»، أي توهم أن الله تعالى يرى على صفة كذا، فيتوهم تشبيها، ثم بعد هذا التوهم - إن أثبت ما توهمه من الوصف فهو مشبه، وإن نفى الرؤية من أصلها؛ لأجل ذلك التوهم فهو جاحد معطل، بل الواجب دفع ذلك الوهم وحده، ولا يعم بنفيه الحق والباطل، فينفيهما ردا على من أثبت الباطل، بل الواجب رد الباطل وإثبات الحق.

وإلى هذا المعنى أشار الشيخ - رحمه الله - بقوله: «ومن لم يتوق النفي والتشبيه زل ولم يصب التنزيه» فإن هؤلاء المعتزلة يزعمون أنهم ينزهون الله بهذا النفي وهل يكون التنزيه بنفي صفة الكمال؟! فإن نفي الرؤية ليس بصفة كمال، إذ المعدوم لا يرى، وإنما الكمال في إثبات الرؤية ونفي إدراك الرائي له إدراك إحاطة، كما في العلم، فإن نفي العلم به ليس بكمال، وإنما الكمال في إثبات العلم ونفي الإحاطة به علماً. فهو سبحانه لا يحاط به رؤية، كما لا يحاط به علماً.

وقوله: «أو تأولها بفهم» أي: ادعى أنه فهم لها تأويلاً يخالف ظاهرها، وما يفهمه كل عربي من معناها، فإنه قد صار اصطلاح المتأخرين في معنى التأويل: أنه صرف اللفظ عن ظاهره، وبهذا تسلط المحرفون على النصوص، وقالوا: نحن نأول ما يخالف قولنا، فسموا

التحريف: تأويلا، تزييناً له وزخرفة ليقبل، وقد ذم الله الذين زخرفوا الباطل، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢]. والعبرة للمعاني لا للألفاظ، فكم من باطل قد أقيم عليه دليل مزخرف عورض به دليل الحق.

وكلامه هنا نظير قوله فيما تقدم: «لا ندخل فى ذلك متأولين بآرائنا، ولا متوهمين بأهوائنا». ثم أكد هذا المعنى بقوله: «إذ كان تأويل الرؤية - وتأويل كل معنى يضاف إلى الربوبية -: ترك التأويل ولزوم التسليم، وعليه دين المسلمين». ومراده ترك التأويل الذى يسمونه تأويلا، وهو تحريف، ولكن الشيخ رحمه الله تأدب وجادل بالتى هى أحسن، كما أمر الله تعالى بقوله: ﴿وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]. وليس مراده ترك كل ما يسمى تأويلاً، ولا ترك شئ من الظواهر لبعض الناس لدليل راجح من الكتاب والسنة. وإنما مراده ترك التأويلات الفاسدة المبتدعة، المخالفة لمذهب السلف، التى يدل الكتاب والسنة على فسادها، وترك القول على الله بلا علم.

فمن التأويلات الفاسدة، تأويل أدلة الرؤية، وأدلة العلو، وأنه لم يكلم موسى تكليماً، ولم يتخذ إبراهيم خليلاً.

ثم قد صار لفظ «التأويل» مستعملاً فى غير معناه الأصلى.

فالتأويل فى كتاب الله وسنة رسوله: هو الحقيقة التى يؤول إليها الكلام، فتأويل الخبر: هو عين المخبر به، وتأويل الأمر: نفس الفعل المأمور به. كما قالت عائشة رضي الله عنها: كان رسول الله ﷺ يقول فى

ركوعه: «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفرلى» يتأول القرآن[1]. وقال تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٥٣]. ومنه تأويل الرؤيا، وتأويل العمل، كقوله: ﴿هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِن قَبْلُ﴾ [يوسف: ١٠٠]. وقوله: ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ﴾ [يوسف: ٦]. وقوله: ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ [النساء: ٥٩]. وقوله: ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٧٨]. إلى قوله: ﴿ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٨٢]. فمن ينكر وقوع مثل هذا التأويل، والعلم بما تعلق بالأمر والنهى منه؟!.

وأما ما كان خبرا، كالإخبار عن الله واليوم الآخر، فهذا قد لا يعلم تأويله، الذى هو حقيقته، إذ كانت لا تعلم بمجرد الإخبار، فإن المخبر إن لم يكن قد تصور المخبر به، أو ما يعرفه قبل ذلك لم يعرف حقيقته، التى هى تأويله، بمجرد الإخبار، وهذا هو التأويل الذى لا يعلمه إلا الله. لكن لا يلزم من نفى العلم بالتأويل نفى العلم بالمعنى الذى قصد المخاطب إفهام المخاطب إياه، فما فى القرآن آية إلاوقد أمر الله بتدبرها وما أنزل آية إلا وهو يحب أن يعلم ما عنى بها، وإن كان من تأويله ما لا يعلمه إلا الله. فهذا معنى التأويل فى الكتاب والسنة وكلام السلف، وسواء كان هذا التأويل موافقا للظاهر أو مخالفاً له.

والتأويل فى كلام كثير من المفسرين، كابن جرير ونحوه، يريدون

(١) رواه البخارى [٨١٧، ٤٩٦٨]، ومسلم [٤٨٤]، وأبو داود [٨٧٧]، والنسائى (٢/ ١٧٣، ١٧٤)، وابن ماجه [٨٨٩]، وأحمد (٦/ ٤٣، ٤٩)، وابن خزيمة [٦٠٥]، وابن حبان [١٩٢٩]، والبيهقى (٢/ ١٠٩).

به تفسير الكلام وبيان معناه، سواء وافق ظاهره أو خالف، وهذا اصطلاح معروف. وهذا التأويل كالتفسير، يحمد حقه، ويرد باطله.

وقوله تعالى: ﴿**وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ**﴾الآية [آل عمران: ٧] ـ فيها قراءتان: قراءة من يقف على قوله: ﴿**إِلاَّ اللَّهُ**﴾، وقراءة من لا يقف عندها، وكلتا القراءتين حق، ويراد بالأولى المتشابه فى نفسه الذى استأثر الله بعلم تأويله. ويراد بالثانية المتشابه الإضافى الذى يعرف الراسخون تفسيره وهو تأويله.

ولا يريد من وقف على قوله: ﴿**إِلاَّ اللَّهُ**﴾ أن يكون التأويل بمعنى التفسير للمعنى، فإن لازم هذا أن يكون الله أنزل على رسوله كلاماً لا يعلم معناه جميع الأمة ولا الرسول، ويكون الراسخون فى العلم لاحظ لهم فى معرفة معناها سوى قولهم: ﴿**آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا**﴾ [آل عمران: ٧]. وهذا القدر يقوله غير الراسخ فى العلم من المؤمنين، والراسخون فى العلم يجب امتيازهم عن عوام المؤمنين فى ذلك. وقد قال ابن عباس ﵄: «أنا من الراسخين فى العلم الذين يعلمون تأويله» [(١)]. ولقد صدق ﵁. فإن النبى ﷺ دعا له وقال: «**اللهم فقهه فى الدين، وعلمه التأويل**» [(٢)] رواه البخارى وغيره. ودعاؤه ﷺ لا يرد. قال مجاهد:

---

(١) **إسناده صحيح**. رواه ابن جرير فى «التفسير» (٣/ ١٨٣)، عن محمد بن عمرو، عن أبى عاصم، عن عيسى، عن ابن أبى نجيح، عن مجاهد، عن ابن عباس ﵄ قال: أنا ممن يعلم تأويله.

وإسناده صحيح، رجاله كلهم ثقات، سوى محمد بن عمرو بن عباد، فإنه صدوق وهو من شيوخ مسلم.

(٢) رواه البخارى [١٤٣] بلفظ: «**اللهم فقهه فى الدين**» ورواه مسلم [٢٤٧٧]، وأحمد (١/ ٣٢٧)، بلفظ: «**اللهم فقهه**»، ورواه البخارى [٣٧٥٦]، والترمذى =

عرضت المصحف على ابن عباس، من أوله إلى آخره، أقفه عند كل آية وأسأله عنها [1]. وقد تواترت النقول عنه أنه تكلم فى جميع معانى القرآن، ولم يقل عن آية إنها من المتشابه الذى لا يعلم أحد تأويله إلا الله.

وقول الأصحاب رحمهم الله فى الأصول: المتشابه: الحروف المقطعة فى أوائل السور، ويروى هذا عن ابن عباس. مع أن هذه الحروف قد تكلم فى معناها أكثر الناس، فإن كان معناها معروفاً، فقد عرف معنى المتشابه، وإن لم يكن معروفاً وهى المتشابه، كان ما سواها معلوم المعنى. وهذا المطلوب.

وأيضا فإن الله قال: ﴿**مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ**﴾ [آل عمران: ٧]. وهذه الحروف ليست آيات عند جمهور العادِّين.

= [٣٨٢٤]، وابن ماجه [١٦٦]، بلفظ: «**اللهم علمه الحكمة**»، وزاد ابن ماجه: «**وتأويل الكتاب**» ولفظ المصنف ـ رحمه الله ـ «**اللهم فقهه فى الدين، وعلمه التأويل**» رواه أحمد (١/٢٦٦، ٣١٤)، وابن حبان [٧٠٥٥]، والطبرانى فى «الكبير» [١٠٥٨٧]، كلهم من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

(١) **حسن**. رواه أبو نعيم فى «الحلية» (٣/٢٧٩)، ومن طريقه ابن عساكر فى «تاريخ دمشق» (١٦/٢٥٢)، والطبرى فى «التفسير» (١/٤٠)، من طريق محمد بن إسحق، عن أبان بن صالح، عن مجاهد بنحوه.
ورجاله ثقات، غير محمد بن إسحق، فإنه صدوق يدلس، وقد عنعنه، ويشهد له ما رواه ابن سعد فى «الطبقات» (٤/٢٣٢)، وأبو نعيم فى «الحلية» (٣/٢٨٠)، وابن عساكر فى «تاريخ دمشق» (١٦/٢٥٢)، من طريق محمد بن عبد الله الأنصارى، عن الفضل بن ميمون أبى الليث قال: سمعت مجاهد يقول: عرضت القرآن على ابن عباس ثلاثين عرضة. ورجاله ثقات غير أبى الليث سكت عنه ابن أبى حاتم فى «الجرح والتعديل»، وقال: روى عنه الأنصارى، وروى عن عكرمة، ومجاهد. اهـ. ومثله لا بأس به فى الشواهد.

والتأويل فى كلام المتأخرين من الفقهاء والمتكلمين: هو صرف اللفظ عن الاحتمال الراجح إلى الاحتمال المرجوح لدلالة توجب ذلك. وهذا هو التأويل الذى تنازع الناس فيه فى كثير من الأمور الخبرية والطلبية. فالتأويل الصحيح منه: الذى يوافق ما دلت عليه نصوص الكتاب والسنة، وما خالف ذلك فهو التأويل الفاسد، وهذا مبسوط فى موضعه. وذكر فى «التبصرة» أن نصير بن يحيى البلخى روى عن عمر ابن إسماعيل بن حماد بن أبى حنيفة عن محمد بن الحسن رحمهم الله: أنه سئل عن الآيات والأخبار التى فيها من صفات الله تعالى ما يؤدى ظاهره إلى التشبيه؟ فقال: نمرها كما جاءت، ونؤمن بها، ولا نقول: كيف وكيف.

ويجب أن يعلم أن المعنى الفاسد الكفرى ليس هو ظاهر النص ولا مقتضاه، وأن من فهم ذلك منه فهو لقصور فهمه ونقص علمه، وإذا كان قد قيل فى قول بعض الناس:

وكم من عائب قولاً صحيحاً ... وآفته من الفهم السقيم [1]

وقيل:

علىَّ نحت القوافى من أمكانها ... وما علىَّ إذا لم تفهم البقرُ [2]

فكيف يقال فى قول الله، الذى هو أصدق الكلام وأحسن الحديث، وهو الكتاب الذى: ﴿**أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ**﴾ [هود: ١]. إن حقيقة قولهم: إن ظاهر القرآن والحديث هو

---

(١) البيت للمتنبى كما فى ديوانه (٤/٢٤٦).
(٢) البيت للبحترى كما فى ديوانه (ص: ٩٥٥).

الضلال، وإنه ليس فيه بيان ما يصلح من الاعتقاد، ولا فيه بيان التوحيد والتنزيه؟! هذا حقيقة قول المتأولين.

والحق أن ما دل عليه القرآن فهو حق، وما كان باطلا لم يدل عليه. والمنازعون يدعون دلالته على الباطل الذى يتعين صرفه!.

فيقال لهم: هذا الباب الذى فتحتموه، وإن كنتم تزعمون أنكم تنتصرون به على إخوانكم المؤمنين فى مواضع قليلة حقيقة، فقد فتحتم عليكم باباً لأنواع المشركين والمبتدعين، لا تقدرون على سده، فإنكم إذا سوغتم صرف القرآن عن دلالته المفهومة بغير دليل شرعى، فما الضابط فيما يسوغ تأويله وما لا يسوغ؟!.

فإن قلتم: ما دل القاطع العقلى على استحالته تأولناه، وإلا أقررناه! قيل لكم: وبأى عقل نزن القاطع العقلى؟! فإن القرمطى الباطنى يزعم قيام القواطع على بطلان ظواهر الشرع! ويزعم الفيلسوف قيام القواطع على بطلان حشر الأجساد!و يزعم المعتزلى قيام القواطع على امتناع رؤية الله تعالى، وعلى امتناع قيام علم أو كلام أو رحمة به تعالى وباب التأويلات التى يدعى أصحابها وجوبها بالمعقولات أعظم من أن تنحصر فى هذا المقام.

ويلزم حينئذ محذوران عظيمان:

أحدهما: أن لا نقر بشئ من معانى الكتاب والسنة حتى نبحث قبل ذلك بحوثاً طويلة عريضة فى إمكان ذلك بالعقل. وكل طائفة من المختلفين فى الكتاب يدعون أن العقل يدل على ما ذهبوا إليه، فيؤول الأمر الى الحيرة.

المحذور الثاني: أن القلوب تنحل عن الجزم بشئ تعتقده مما أخبر به الرسول؛ إذ لا يوثق بأن الظاهر هو المراد، والتأويلات مضطربة، فيلزم عزل الكتاب والسنة عن الدلالة والإرشاد إلى ما أنبأ الله به العباد، وخاصَّةُ النبي هي الإنباء، والقرآن هو النبأ العظيم؛ ولهذا نجد أهل التأويل إنما يذكرون نصوص الكتاب والسنة للاعتضاد لا للاعتماد، إن وافقت ما ادعوا أن العقل دل عليه قبلوه، وإن خالفته أولوه. وهذا فتح باب الزندقة والانحلال، نسأل الله العافية.

قوله: «**ومن لم يتوق النفي والتشبيه، زل ولم يصب التنزيه**».

ش: النفي والتشبيه مرضان من أمراض القلوب، فإن أمراض القلوب نوعان: مرض شبهة، ومرض شهوة، وكلاهما مذكور في القرآن، قال تعالى: ﴿**فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ**﴾ [الأحزاب: ٣٢]. فهذا مرض الشهوة، وقال تعالى: ﴿**فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا**﴾ [البقرة: ١٠]. وقال تعالى: ﴿**وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ**﴾ [التوبة: ١٢٥]. فهذا مرض الشبهة، وهو أردأ من مرض الشهوة، إذ مرض الشهوة يرجى له الشفاء بقضاء الشهوة، ومرض الشبهة لا شفاء له إن لم يتداركه الله برحمته.

و الشبهة التي في مسألة الصفات نفيها وتشبيهها، وشبهة النفي أردأ من شبهة التشبيه، فإن شبهة النفي رد وتكذيب لما جاء به الرسول ﷺ، وشبهه التشبيه غلو ومجاوزة للحد فيما جاء به الرسول ﷺ. وتشبية الله بخلقه كفر فإن الله تعالى يقول: ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ**﴾ [الشورى: ١١]، ونفي الصفات كفر فإن الله تعالى يقول: ﴿**وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**﴾ [الشورى: ١١].

وهذا أحد نوعي التشبيه، فإن التشبيه نوعان: تشبيه الخالق بالمخلوق، وهذا الذي يتعب أهل الكلام في رده وإبطاله، وأهله في الناس أقل من النوع الثاني، الذين هم أهل تشبيه المخلوق بالخالق، كعباد المسيح، وعزير، والشمس، والقمر، والأصنام، والملائكة، والنار، والماء والعجل، والقبور، والجن، وغير ذلك. وهؤلاء هم الذين أرسلت لهم الرسل يدعونهم الى عبادة الله وحده لا شريك له.

قوله: «**فإن ربنا جل وعلا موصوف بصفات الوحدانية، منعوت بنعوت الفردانية ليس في معناه أحد من البرية**».

ش: يشير الشيخ - رحمه الله - إلى أن تنزيه الرب تعالى هو وصفه كما وصف نفسه نفياً وإثباتاً. وكلام الشيخ هنا مأخوذ من معنى سورة الإخلاص. فقوله: «موصوف بصفات الوحدانية»، مأخوذ من قوله تعالى: ﴿**قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ**﴾ [الإخلاص: ١]. وقوله: منعوت بنعوت الفردانية. من قوله تعالى: ﴿**اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ**﴾ [الإخلاص: ٢-٣]. وقوله: «ليس في معناه أحد من البرية» من قوله تعالى: ﴿**وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ**﴾ [الإخلاص: ٤]. وهو أيضاً مؤكد لما تقدم من إثبات الصفات ونفي التشبيه، والوصف والنعت مترادفان، وقيل: متقاربان. فالوصف للذات، والنعت للفعل، وكذلك الوحدانية والفردانية. وقيل في الفرق بينهما: إن الوحدانية للذات، والفردانية للصفات، فهو تعالى متوحد في ذاته، متفرد بصفاته. وهذا المعنى حق ولم ينازع فيه أحد، ولكن في اللفظ نوع تكرير، وللشيخ نظير هذا التكرير في مواضع من العقيدة، وهو بالخطب والأدعية أشبه منه بالعقائد، والتسجيع بالخطب أليق. و﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ**﴾ [الشورى: ١١]. أكمل في التنزيه من قوله:

«ليس في معناه أحد من البرية».

قوله: «**وتعالى عن الحدود والغايات، والأركان والأعضاء والأدوات، لا تحويه الجهات الست كسائر المبتدعات**».

ش: أذكر بين يدى الكلام على عبارة الشيخ - رحمه الله - مقدمة، وهى: أن للناس فى إطلاق مثل هذه الألفاظ ثلاثة أقوال:

فطائفة تنفيها، وطائفة تثبتها، وطائفة تفصل، وهم المتبعون للسلف، فلا يطلقون نفيها ولا إثباتها إلا إذا بُيِّن ما أثبت بها فهو ثابت، وما نفى بها فهو منفى. لأن المتأخرين قد صارت هذه الألفاظ فى اصطلاحهم فيها إجمال وإبهام، كغيرها من الألفاظ الاصطلاحية، فليس كلهم يستعملها فى نفس معناها اللغوى؛ ولهذا كان النفاة ينفون بها حقاً وباطلاً، ويذكرون عن مثبتها مالا يقولون به، وبعض المثبتين لها يدخل لها معنى باطلاً مخالفاً لقول السلف، ولما دل عليه الكتاب والميزان. ولم يرد نص من الكتاب ولا من السنة بنفيها ولا إثباتها، وليس لنا أن نصف الله تعالى بما لم يصف به نفسه ولا وصفه به رسوله نفياً ولا إثباتاً، وإنما نحن متبعون لا مبتدعون.

فالواجب أن ينظر فى هذا الباب، أعنى باب الصفات، فما أثبته الله ورسوله أثبتناه، وما نفاه الله ورسوله نفيناه. والألفاظ التى ورد بها النص يعتصم بها فى الإثبات والنفى، فنثبت ما أثبته الله ورسوله من الألفاظ والمعانى وننفى ما نفته نصوصهما من الألفاظ والمعانى.

وأما الألفاظ التى لم يرد نفيها ولا إثباتها لا تطلق حتى ينظر فى مقصود قائلها: فإن كان معنى صحيحاً قبل، لكن ينبغى التعبير عنه

بألفاظ النصوص، دون الألفاظ المجملة إلا عند الحاجة مع قرائن تبين المراد والحاجة مثل أن يكون الخطاب مع من لا يتم المقصود معه إن لم يخاطب بها، ونحو ذلك.

والشيخ - رحمه الله تعالى - أراد الرد بهذا الكلام على المشبهة، كداود الجواربى [1] وأمثاله القائلين: إن الله جسم، وإنه جثة وأعضاء وغير ذلك! تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

فالمعنى الذى أراده الشيخ - رحمه الله - من النفى الذى ذكره هنا حق، لكن حدث بعده من أدخل فى عموم نفيه حقاً وباطلاً، فيحتاج إلى بيان ذلك. وهو: أن السلف متفقون على أن البشر لا يعلمون لله حداً، وأنهم لا يحدون شيئاً من صفاته.

قال أبو داود الطيالسى: كان سفيان وشعبة و حماد بن زيد وحماد ابن سلمة و شريك وأبو عوانة لا يحدون ولا يشبهون ولا يمثلون، يروون الحديث ولا يقولون: كيف؟ وإذا سئلوا قالوا بالأثر. وسيأتى فى كلام الشيخ: «وقد أعجز عن الإحاطة خلقه». فعلم أن مراده: أن الله يتعالى عن أن يحيط أحد بحده؛ لا أن المعنى أنه غير متميز عن خلقه منفصل عنهم، مباين لهم. سئل عبد الله بن المبارك: بم نعرف ربنا؟ قال: بأنه على العرش، بائن من خلقه، قيل: بحد؟ قال: بحد. انتهى.

ومن المعلوم أن الحد يقال على ما ينفصل به الشئ ويتميز به عن غيره، والله تعالى غير حال فى خلقه، ولا قائم بهم، بل هو القيوم القائم

---

(١) رأس فى الرفض والتجسيم، من قرامى جهنم. قال يزيد بن هارون: الجواربى والمريسى كافران. (ميزان الاعتدال - ٢/٢٣).

بنفسه، المقيم لما سواه فالحد بهذا المعنى لا يجوز أن يكون فيه منازعة في نفس الأمر أصلا، فإنه ليس وراء نفيه إلا نفى وجود الرب ونفى حقيقته.

وأما الحد بمعنى العلم والقول، وهو أن يحده العباد، فهذا منتف بلا منازعة بين أهل السنة. قال أبو القاسم القشيرى [1] فى «رسالته»: سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى، سمعت منصور بن عبد الله، سمعت أبا الحسن العنبرى، سمعت سهل بن عبد الله التسترى [2] يقول، وقد سئل عن ذات الله؛ فقال: ذات الله موصوفة بالعلم غير مدركة بالإحاطة، ولا مرئية بالأبصار فى دار الدنيا، وهى موجودة بحقائق الإيمان، من غير حد ولا إحاطة ولا حلول، وتراه العيون فى العقبى ظاهراً فى ملكه وقدرته، وقد حجب الخلق عن معرفة كنه ذاته، ودلهم عليه بآياته، فالقلوب تعرفه، والعيون لا تدركه، ينظر إليه المؤمنون بالأبصار من غير إحاطة ولا إدراك نهاية.

وأما لفظ الأركان والأعضاء والأدوات؛ فيتسلط بها النفاة على نفى

---

(١) هو الإمام الزاهد القدوة، الأستاذ أبو القاسم عبد الكريم بن هوزان بن عبد الملك بن طلحة القشيرىّ، الخرسانى، النيسابورى، الشافعى، الصوفى، المفسر، صاحب «الرسالة».
ولد سنة (٣٧٥ هـ)، برع فى الفروسية والعمل بالسلاح، ثم تعلم الكتابة والعربية وجود، وسمع الحديث وتفقه وتقدم فى الأصول والفروع. توفى سنة (٤٦٥). (السير - ١٨/ ٢٢٧).

(٢) هو سهل بن عبد الله بن يونس، أبو محمد التسترى، شيخ العارفين، الصوفى الزاهد، له كلمات نافعة ومواعظ حسنة، وقدم راسخ فى الطريق.
رأى أصحاب الحديث فقال: اجهدوا أن لا تلقوا الله إلا ومعكم المحابر. توفى سنة (٢٨٣ هـ). (السير - ١٣/ ٣٣٠).

بعض الصفات الثابتة بالأدلة القطعية، كاليد والوجه.

قال أبو حنيفة رضي الله عنه في «الفقه الأكبر»: له يد ووجه ونفس، كما ذكر تعالى في القرآن من ذكر اليد والوجه والنفس، فهو له صفة بلا كيف، ولا يقال: إن يده قدرته ونعمته، لأن فيه إبطال الصفة، انتهى.

وهذا الذي قاله الإمام رضي الله عنه، ثابت بالأدلة القاطعة: قال تعالى: ﴿**مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ**﴾ [ص: ٧٥]. ﴿**وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ**﴾ [الزمر: ٦٧]. وقال تعالى: ﴿**كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ**﴾ [القصص: ٨٨]. ﴿**وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ**﴾ [الرحمن: ٢٧]. وقال تعالى: ﴿**تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ**﴾ [المائدة: ١١٦]. وقال تعالى: ﴿**كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ**﴾ [الأنعام: ٥٤]. وقال تعالى: ﴿**وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي**﴾ [طه: ٤١]. وقال تعالى: ﴿**وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ**﴾ [آل عمران: ٢٨]. وقال ﷺ في حديث الشفاعة لما يأتي الناس آدم عليه السلام فيقولون له: «**خلقك الله بيده وأسجد لك ملائكته وعلمك أسماء كل شيء**» [(١)] الحديث. ولا يصح تأويل من قال: إن المراد باليد: القدرة، فإن قوله: ﴿**لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ**﴾ [ص: ٧٥]. لا يصح أن يكون معناه بقدرتي مع تثنية اليد، ولو صح ذلك لقال إبليس: وأنا أيضا خلقتني بقدرتك، فلا فضل له علي بذلك فإبليس - مع كفره - كان أعرف بربه من الجهمية. ولا دليل لهم في قوله تعالى: ﴿**أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ**﴾ [يس: ٧١]؛ لأنه تعالى جمع الأيدي لما

---

(١) رواه البخاري [٤٤٧٦]، ومسلم [١٩٣]، والنسائي في «الكبرى» [١١٤٣٣]، وابن ماجه [٤٣١٢]، وأحمد (٣/١١٦، ٢٤٤)، من حديث أنس رضي الله عنه.
وسبق تخريجه (١/٧٩)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

أضافها إلى ضمير الجمع؛ ليتناسب الجمعان، اللفظيان للدلالة على الملك والعظمة، ولم يقل: «أيدى» مضافاً إلى ضمير المفرد، ولا «يدينا» بتثنية اليد مضافاً إلى ضمير الجمع. فلم يكن قوله: ﴿**مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا**﴾ [يس: ٧١] نظير قوله: ﴿**لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ**﴾ [ص: ٧٥] وقال النبى ﷺ عن ربه عز وجل: «**حجابه النور، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه**» (١).

ولكن لا يقال لهذه الصفات إنها أعضاء أو جوارح، أو أدوات، أو أركان؛ لأن الركن جزء الماهية، والله تعالى هو الأحد الصمد، لا يتجزأ، سبحانه وتعالى، والأعضاء فيها معنى التفريق والتعضية، تعالى الله عن ذلك، ومن هذا المعنى قوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ**﴾ [الحجر: ٩١]. والجوارح فيها معنى الاكتساب والانتفاع، وكذلك الأدوات هى الآلات التى ينتفع بها فى جلب المنفعة ودفع المضرة. وكل هذه المعانى منفية عن الله تعالى، ولهذا لم يرد ذكرها فى صفات الله تعالى. فالألفاظ الشرعية صحيحة المعانى وسالمة من الاحتمالات الفاسدة فكذلك يجب أن لا يعدل عن الألفاظ الشرعية نفياً ولا إثباتاً، لئلا يثبت معنى فاسد، أو ينفى معنى صحيح. وكل هذه الألفاظ المجملة عرضة للمُحق والمُبطِل.

وأما لفظ الجهة، فقد يراد به ما هو موجود وقد يراد به ما هو معدوم، ومن المعلوم أنه لا موجود إلا الخالق والمخلوق، فإذا أريد بالجهة أمر موجود غير الله تعالى كان مخلوقا، والله تعالى لا يحصره شئ ولا

---

(١) سبق تخريجه (١/ ٧٣).

يحيط به شئ من المخلوقات، تعالى الله عن ذلك، وإن أريد بالجهة أمر عدمى، وهو ما فوق العالم، فليس هناك إلا الله وحده. فإذا قيل: إنه فى جهة بهذا الاعتبار فهو صحيح، ومعناه أنه فوق العالم حيث انتهت المخلوقات فهو فوق الجميع، عال عليه.

ونفاة لفظ «الجهة» الذين يريدون بذلك نفى العلو، يذكرون من أدلتهم: أن الجهات كلها مخلوقة، وأنه كان قبل الجهات، وأن من قال: إنه فى جهة، يلزمه القول بقدم شىء من العالم أو أنه كان مستغنياً عن الجهة ثم صار فيها.

وهذه الألفاظ ونحوها إنما تدل على أنه ليس فى شئ من المخلوقات، سواء سمى جهة أو لم يسم، وهذا حق. ولكن الجهة ليست أمراً وجودياً، بل أمر اعتبارى، ولاشك أن الجهات لا نهاية لها، وما لا يوجد فيها لا نهاية له فليس بموجود.

وقول الشيخ رحمه الله: «لا تحويه الجهات الست كسائر المبتدعات» ـ هو حق باعتبار أنه لا يحيط به شئ من مخلوقاته بل هو محيط بكل شئ وفوقه. وهذا المعنى هو الذى أراده الشيخ رحمه الله، لما يأتى فى كلامه: أنه تعالى محيط بكل شئ وفوقه. فإذا جمع بين كلاميه، وهو قوله: «لا تحويه الجهات الست كسائر المبتدعات»، وبين قوله: «محيط بكل شئ وفوقه» علم أن مراده أن الله تعالى لا يحويه شىء، ولا يحيط به شىء، كما يكون لغيره من المخلوقات، وأنه تعالى هو المحيط بكل شىء، العالى على كل شىء.

لكن بقى فى كلامه شيئان:

أحـدهمـا أن إطلاق مـثل هذا اللفظ ـ مع مـا فـيـه من الإجـمـال والاحـتـمـال ـ كـان تركـه أولى، وإلا تسـلط عليـه، وألـزم بالتناقض فى إثبات الإحاطة والفوقية ونفى جهة العلو، وإن أجيب عنه بما تقدم، من أنه إنما نفى أن يحويه شئ من مخلوقاته، فالاعتصام بالألفاظ الشرعية أولى.

الثانى: أن قوله: كسائر المبتدعات ـ يفهم منه أنه ما من مبتدع إلا وهو مـحـوى!! وفى هذا نظر فـإنـه إن أراد أنه مـحـوى بأمـر وجـودى فـممنوع، فإن العالم ليس فى عالم آخر، وإلا لزم التسلسل. وإن أراد أمراً عدمياً، فليس كل مبتدع فى العدم، بل منها ما هو داخل فى غيره، كالسماوات والأرض فى الكرسى، ونحـو ذلك، ومنهـا ما هو منتـهى المخلوقات كالعرش، فسطح العالم ليس فى غيره من المخلوقات قطعاً للتسلسل، كما تقدم.

ويمكن أن يجاب عن هذا الإشكال بأن: «سائر» بمعنى البقية، لا بمعنى الجميع، هذا أصل معناها، ومنه «السؤر»، وهو ما يبقيه الشارب فى الإناء، فيكون مراده غالب المخلوقات لا جميعها، إذ «السائر» على الغالب أدل منه على الجميع، فيكون المعنى: أن الله تعالى غير محوى كما يكون أكثر المخلوقات محوياً، بل هو غير محوى بشىء، تعالى الله عن ذلك. ولا يظن بالشيخ رحمه الله أنه ممن يقول: إن الله تعالى ليس داخل العالم ولا خارجه بنفى النقيضين، كما ظنه بعض الشارحين، بل مراده: أن الله تعالى منزه عن أن يحيط به شئ من مخلوقاته، أو أن يكون مفتقرا إلى شئ منها، العرش أو غيره.

وفى ثبوت هذا الكلام عن الإمام أبى حنيفة ﷺ نظر، فـإن

أضداده قد شنعوا عليه بأشياء أهون منه، فلو سمعوا مثل هذا الكلام لشاع عنهم تشنيعهم عليه به، وقد نقل أبو مطيع البلخى عنه إثبات العلو، كما سيأتى ذكره إن شاء الله تعالى. وظاهر هذا الكلام يقتضى نفيه، ولم يرد بمثله كتاب ولا سنة، فلذلك قلت: إن فى ثبوته عن الإمام نظرا، وإن الأولى التوقف فى إطلاقه، فإن الكلام بمثله خطر بخلاف الكلام بما ورد عن الشارع، كالاستواء والنزول ونحو ذلك. ومن ظن من الجهال أنه إذا «نزل إلى سماء الدنيا» كما أخبر الصادق ﷺ [1] يكون العرش فوقه ويكون محصورا بين طبقتين من العالم، فقوله مخالف لإجماع السلف مخالف للكتاب والسنة.

وقال شيخ الإسلام أبو عثمان إسماعيل بن عبد الرحمن الصابونى[2]: سمعت الأستاذ أبا منصور بن حمشاذ [3] - بعد روايته حديث النزول - يقول: سئل أبو حنيفة ﵁؟ فقال: ينزل بلا كيف. انتهى.

---

(١) رواه البخارى [١١٤٥]، ومسلم [٧٥٨]، وأبو داود [١٣١٥]، والترمذى [٤٤٦]، والنسائى فى «الكبرى» [١٠٣١٠]، وابن ماجه [١٣٦٦]، وأحمد (٢/٢٦٧، ٢٨٢)، من حديث أبى هريرة ﵁ بلفظ: «**ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر**» - الحديث.

(٢) هو الإمام العلامة القدوة المفسِّر المذكِّر، المحدث، شيخ الإسلام، أبو عثمان، إسماعيل ابن عبد الرحمن بن أحمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن عابد، الصابونى، ولد سنة (٣٧٣ هـ)، وأول مجلس عقده للوعظ إثر قتل أبيه وهو ابن تسع سنين. توفى سنة (٤٤٩ هـ). (السير - ١٨/٤٠).

(٣) هو العلامة الزاهد، أبو منصور، محمد بن عبد الله بن محمد بن حمشاذ النيسابورى الشافعى تفقه وبرع، وأتقن علم الجدل والكلام والنظر، وأخذ النحو عن أبى عمر الزاهد. وكان عابداً متألهاً، واعظاً، مجاب الدعوة، كثير التصانيف، منقبضاً عن أبناء الدنيا. مات سنة (٣٨٨ هـ). (السير - ١٦/٤٩٨).

وإنما توقف من توقف فى نفى ذلك، لضعف علمه بمعانى الكتاب والسنة وأقوال السلف، ولذلك ينكر بعضهم أن يكون فوق العرش، بل يقول: لا مباين، ولا مُحايث، ولا داخل العالم ولا خارجه، فيصفونه بصفة العدم والممتنع، ولا يصفونه بما وصف به نفسه من العلو والاستواء على العرش، ويقول بعضهم: بحلوله فى كل موجود، أو يقول: هو وجود كل موجود ونحو ذلك تعالى الله عما يقول الظالمون والجاحدون علواً كبيراً. وسيأتى لإثبات صفة العلو لله تعالى زيادة بيان، عند الكلام على قول الشيخ ـ رحمه الله ـ: محيط بكل شئ وفوقه، إن شاء الله تعالى.

قوله: «**والمعراج حق، وقد أسرى بالنبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم وعرج بشخصه فى اليقظة إلى السماء ثم الى حيث شاء الله من العلا وأكرمه الله بما شاء، وأوحى إليه ما أوحى، ما كذب الفؤاد ما رأى. فصلى الله عليه وسلم فى الآخرة والأولى**».

ش: «المعراج» مفعال من العروج أى: الآلة التى يعرج فيها، أى: يصعد، وهو بمنزلة السلم لكن لا يعلم كيف هو، وحكمه كحكم غيره من المغيبات نؤمن به ولا نشتغل بكيفيته.

وقوله: «وقد أسرى بالنبى ﷺ وعرج بشخصه فى اليقظة».

اختلف الناس فى الإسراء.

فقيل: كان الإسراء بروحه ولم يفقد جسده، نقله ابن إسحق عن عائشة ومعاوية ﷺ، ونقل عن الحسن البصرى نحوه.

لكن ينبغى أن يعرف الفرق بين أن يقال: كان الإسراء مناماً، وبين

أن يقال: كان بروحه دون جسده، وبينهما فرق عظيم، فعائشة ومعاوية ﷺ لم يقولا: كان مناماً، وإنما قالا: أسرى بروحه ولم يفقد جسده وفرق ما بين الأمرين: إذ ما يراه النائم قد يكون أمثالا مضروبة للمعلوم فى الصور المحسوسة فيرى كأنه قد عرج إلى السماء أو ذهب به إلى مكة، وروحه لم تصعد ولم تذهب، وإنما ملك الرؤيا ضرب له المثال. فما أرادا أن الإسراء كان مناماً وإنما أرادا أن الروح ذاتها أسرى بها، ففارقت الجسد ثم عادت إليه، ويجعلان هذا من خصائصه، فإن غيره لا تنال ذات روحه الصعود الكامل إلى السماء إلا بعد الموت.

وقيل: كان الإسراء مرتين، مرة يقظة ومرة مناماً، وأصحاب هذا القول كأنهم أرادوا الجمع بين حديث شريك وقوله: «**ثم استيقظت**»[1] وبين سائر الروايات.

وكذلك منهم من قال: بل كان مرتين، مرة قبل الوحى، ومرة بعده، ومنهم من قال: بل ثلاث مرات، مرة قبل الوحى ومرتين بعده. وكلما اشتبه عليهم لفظ زادوا مرة للتوفيق!! وهذا يفعله ضعفاء أهل الحديث، وإلا فالذى عليه أئمة النقل: أن الإسراء كان مرة واحدة بمكة، بعد البعثة، قبل الهجرة بسنة. وقيل: بسنة وشهرين، ذكره ابن عبد البر.

قال شمس الدين ابن القيم: يا عجبا لهؤلاء الذين زعموا أنه كان مراراً!! وكيف ساغ لهم أن يظنوا أنه فى كل مرة تفرض عليهم

---

(١) رواه البخارى [٧٥١٧] بلفظ: «**واستيقظ وهو فى مسجد الحرام**»، ورواه مسلم [١٦٢] بدون موضع الشاهد.

الصلوات خمسين، ثم يتردد بين ربه وبين موسى حتى تصير خمساً، فيقول: «**أمضيت فريضتي وخففت عن عبادى**»، ثم يعيدها فى المرة الثانية إلى خمسين، ثم يحطها إلى خمس؟!.

وقد غلط الحفاظ شريكا فى ألفاظ من حديث الإسراء، ومسلم أورد المسند منه، ثم قال: «فقدم وأخر وزاد ونقص». ولم يسرد الحديث، فأجاد رحمه الله انتهى كلام الشيخ شمس الدين رحمه الله.

وكان من حديث الإسراء: أنه ﷺ أسرى بجسده فى اليقظة، على الصحيح، من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، راكباً على البراق، صحبة جبريل عليه السلام، فنزل هناك، وصلى بالأنبياء إماماً، وربط البراق بحلقة باب المسجد. وقد قيل: إنه نزل بيت لحم وصلى فيه، ولا يصح عنه ذلك البتة.

«**ثم عرج به من بيت المقدس تلك الليلة إلى السماء الدنيا، فاستفتح له جبريل، ففتح لهما، فرأى هناك آدم أبا البشر، فسلم عليه، فرحب به ورد عليه السلام، وأقر بنبوته، ثم عرج به إلى السماء الثانية، فاستفتح له، فرأى فيها يحيى بن زكريا وعيسى بن مريم، فلقيهما، فسلم عليهما، فردا عليه السلام ورحبا به، وأقرا بنبوته ثم عرج به إلى السماء الثالثة، فرأى فيها يوسف، فسلم عليه، ورحب به وأقر بنبوته، ثم عرج إلى السماء الرابعة، فرأى فيها إدريس، فسلم عليه ورحب به وأقر بنبوته، ثم عرج به إلى السماء الخامسة، فرأى فيها هارون بن عمران، فسلم عليه ورحب به وأقر بنبوته، ثم عرج به إلى السماء السادسة، فلقى فيها موسى فسلم عليه ورحب به وأقر بنبوته، فلما جاوزه بكى موسى، فقيل له: ما يبكيك؟ قال: أبكى لأن غلاماً بعث بعدى يدخل الجنة من أمته أكثر مما يدخلها**

من أمتى، ثم عرج به إلى السماء السابعة، فلقى فيها إبراهيم، فسلم عليه ورحب به وأقر بنبوته، ثم رفع إلى سدرة المنتهى، ثم رفع له البيت المعمور، ثم عرج به إلى الجبار، جل جلاله وتقدست أسماؤه، فدنا منه حتى كان قاب قوسين أو أدنى، فأوحى إلى عبده ما أوحى، وفرض عليه خمسين صلاة فرجع حتى مر على موسى، فقال: بم أمرت؟ قال بخمسين صلاة، فقال: إن أمتك لا تطيق ذلك، ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك، فالتفت إلى جبريل كأنه يستشيره فى ذلك، فأشار: أن نعم، إن شئت، فعلا به جبريل حتى أتى به إلى الجبار تبارك وتعالى وهو فى مكانه» - هذا لفظ البخارى فى صحيحه وفى بعض الطرق - **«فوضع عنه عشراً، ثم نزل حتى مر على موسى، فأخبره، فقال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فلم يزل يتردد بين موسى وبين الله تبارك وتعالى، حتى جعلها خمساً، فأمره موسى بالرجوع وسؤال التخفيف، فقال: قد استحييت من ربى، ولكن أرضى وأسلم، فلما نفذ، نادى مناد، قد أمضيت فريضتى وخففت عن عبادى»** (١).

وقد تقدم ذكر اختلاف الصحابة فى رؤيته ﷺ ربه عز وجل بعين رأسه، وأن الصحيح أنه رآه بقلبه، ولم يره بعين رأسه، وقوله: ﴿**مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ**﴾ [النجم: ١١]، ﴿**وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ**﴾ [النجم: ١٣]، صح عن النبى ﷺ أن هذا المرئى جبريل رآه مرتين على صورته التى خلق عليها.

---

(١) رواه البخارى [٣٨٨٧]، ومسلم [١٦٤]، والترمذى [٣٣٤٦]، والنسائى (١ / ١٧٨)، وأحمد (٤ / ٢٠٨)، وابن أبى شيبة (١٤ / ٣٠٥)، وابن خزيمة [٣٠١]، وأبو عوانة (١ / ١٢٠)، وابن حبان [إحسان - ٤٨]، من حديث أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة رضي الله عنهما. وهذا السياق ذكره المصنف بالمعنى، وفيه بعض ألفاظ من حديث شريك رضي الله عنه السابق.

وأما قوله تعالى فى سورة النجم: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾ [النجم: ٨]، فهو غير الدنو والتدلى المذكورين فى قصة الإسراء، فإن الذى فى سورة النجم هو دنو جبريل وتدليه، كما قالت عائشة وابن مسعود رضي الله عنهما، فإنه قال: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ * ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ * وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ * ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾ [النجم: ٥ - ٨] فالضمائر كلها راجعة إلى هذا المعلم الشديد القوى، وأما الدنو والتدلى الذى فى حديث الإسراء فذلك صريح فى أنه دنو الرب تعالى وتدليه. وأما الذى فى سورة النجم: أنه رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى، فهذا هو جبريل، رآه مرتين؛ مرة فى الأرض ومرة عند سدرة المنتهى.

ومما يدل على أن الإسراء بجسده فى اليقظة، قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١]، والعبد عبارة عن مجموع الجسد والروح، كما أن الإنسان اسم لمجموع الجسد والروح، هذا هو المعروف عند الإطلاق، وهو الصحيح، فيكون الإسراء بهذا المجموع، ولا يمتنع ذلك عقلاً، ولو جاز استبعاد صعود البشر لجاز استبعاد نزول الملائكة وذلك يؤدى إلى إنكار النبوة وهوكفر.

فإن قيل: فما الحكمة فى الإسراء إلى بيت المقدس أولاً؟ فالجواب - والله أعلم -: أن ذلك كان إظهاراً لصدق دعوى الرسول ﷺ المعراج حين سألته قريش عن نعت بيت المقدس فنعته لهم وأخبرهم عن عيرهم التى مر عليها فى طريقه، ولو كان عروجه إلى السماء من مكة لما حصل ذلك، إذ لا يمكن اطلاعهم على ما فى السماء لو أخبرهم عنه، وقد اطلعوا على بيت المقدس، فأخبرهم بنعته.

وفى حديث المعراج دليل على ثبوت صفة العلو لله تعالى من وجوه، لمن تدبره. وبالله التوفيق.

قوله: «**والحوض - الذى أكرمه الله تعالى به غياثا لأمته - حق**».

ش: الأحاديث الواردة فى ذكر الحوض تبلغ حد التواتر، رواها من الصحابة بضع وثلاثون صحابياً ولقد استقصى طرقها شيخنا الشيخ عماد الدين ابن كثير، تغمده الله برحمته، فى آخر تاريخه الكبير المسمى بـ«البداية والنهاية».

فمنها: ما رواه البخارى رحمه الله تعالى، عن أنس بن مالك ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال: «**إن قدر حوضى كما بين أيلة إلى صنعاء من اليمن، وإن فيه من الأباريق كعدد نجوم السماء**» [1].

وعنه ﷺ أيضاً عن النبى ﷺ قال: «**ليردن على ناس من أصحابى الحوض، حتى إذا عرفتهم اختلجوا دونى، فأقول أصحابى فيقول: لا تدرى ما أحدثوا بعدك**» [2] رواه مسلم.

وروى الإمام أحمد عن أنس بن مالك، قال: أغفى رسول الله ﷺ

---

(١) رواه البخارى [٦٥٨٠]، ومسلم [٢٣٠٣].
وروِاه مسلم [٢٣٠٣]، وابن ماجه [٤٣٠٤]، وأحمد (٣/١٣٣)، بلفظ: «**ما بين لابتى حوضى كما بين صنعاء والمدينة أو كما بين المدينة وعمان**»، وفى رواية أخرى عند مسلم، وابن ماجه [٤٣٠٥]، وأحمد (٣/٢٣٨) «**ترى فيه أباريق الذهب والفضة كعدد نجوم السماء**».
ورواه الترمذى [٢٤٤٢]، وأحمد (٣/٢٢٥) بلفظ: «**إن فى حوضى من الأباريق بعدد نجوم السماء**».

(٢) رواه البخارى [٦٥٨٢]، ومسلم [٢٣٠٤]، وأحمد (٣/٢٨١)، وعبد بن حميد [١٢١٣]، والأجرى فى«الشريعة» [٨٨١].
وفى الباب من حديث ابن مسعود، وحذيفة، وسهل، وعائشة، وأبى بكرة ﷺ.

إغفاءة، فرفع رأسه متبسماً، إما قال لهم، وإما قالوا له: لم ضحكت؟ فقال رسول الله ﷺ: «**إنه نزلت على آنفاً سورة، فقرأ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾** [الكوثر: ١]، **حتى ختمها، ثم قال لهم: هل تدرون ما الكوثر؟**» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «**هو نهر أعطانيه ربى عز وجل فى الجنة عليه خير كثير، ترد عليه أمتى يوم القيامة، آنيته عدد الكواكب، يختلج العبد منهم، فأقول: يارب إنه من أمتى، فيقال: إنك لا تدرى ما أحدثوا بعدك**»[1].

ورواه مسلم، ولفظه: «**هو نهر وعدنيه ربى عليه خير كثير، هو حوض ترد عليه أمتى يوم القيامة**» والباقى مثله.

ومعنى ذلك، أنه يشخب فيه ميزابان من ذلك الكوثر إلى الحوض، والحوض فى العرصات قبل الصراط، لأنه يختلج عنه، ويمنع منه أقوام قد ارتدوا على أعقابهم، ومثل هؤلاء لا يجاوزون الصراط.

وروى البخارى ومسلم عن جندب بن عبد الله البجلى ﷺ، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**أنا فرطكم على الحوض**»[2].

والفرط: الذى يسبق إلى الماء.

وروى البخارى عن سهل بن سعد الأنصارى ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنى فرطكم على الحوض، من مر على شرب، ومن شرب لم**

---

(١) رواه مسلم [٤٠٠]، وأبو داود [٤٧٤٧]، والنسائى (٢ / ١٠٣)، وفى «الكبرى» [٩٧٧]، وأحمد (٣ / ١٠٢).

(٢) رواه البخارى [٦٥٨٩]، ومسلم [٢٢٨٩]، وأحمد (٤ / ٣١٣)، والحميدى [٧٧٩]، وابن أبى شيبة (١١ / ٤٤٠)، وابن حبان [إحسان - ٦٤٤٥]، والطبرانى [١٦٨٨]، واللالكائى فى «السنة» [٢١٠٥].

يظمأ أبداً، ليردن على أقوام أعرفهم، ويعرفونى، ثم يحال بينى وبينهم» قال أبو حازم: فسمعنى النعمان بن أبى عياش وأنا أحدثهم هذا، فقال: هكذا سمعت من سهل؟ فقلت: نعم. فقال: أشهد على أبى سعيد الخدرى، لسمعته وهو يزيد فيها: فأقول: «**إنهم من أمتى**» فقال: إنك لا تدرى ما أحدثوا بعدك. فقال: «**سحقا سحقاً لمن غير بعدى**» (١). سحقاً: أى بعداً.

والذى يتلخص من الأحاديث الواردة فى صفة الحوض: أنه حوض عظيم ومورد كريم، يمد من شراب الجنة من نهر الكوثر، الذى هو أشد بياضاً من اللبن، وأبرد من الثلج، وأحلى من العسل، وأطيب ريحا من المسك، و هو فى غاية الاتساع عرضه وطوله سواء كل زاوية من زواياه مسيرة شهر. وفى بعض الأحاديث: أنه كلما شرب منه وهو فى زيادة واتساع، وأنه ينبت فى حال من المسك والرضراض من اللؤلؤ وقضبان الذهب، ويثمر ألوان الجواهر، فسبحان الخالق الذى لا يعجزه شىء.

وقد ورد فى أحاديث: «أن لكل نبى حوضاً، وأن حوض نبينا ﷺ أعظمها وأجلها وأكثرها وارداً (٢) جعلنا الله منهم بفضله وكرمه».

---

(١) رواه البخارى [٦٥٨٣، ٦٥٨٤]، ومسلم [٢٢٩٠، ٢٢٩١]، وأحمد (٥/٣٣٣).

(٢) **صحيح**.رواه الترمذى [٢٤٤٣]، وابن أبى عاصم فى «السنة» [٧٣٤]، والطبرانى فى «الكبير» [٦٨٨١]، وفى «مسند الشاميين» [٢٦٤٧]، من طريق محمد بن بكار بن بلال، عن سعيد بن بشير، عن قتادة، عن الحسن، عن سمرة رضي الله عنه مرفوعاً بلفظ: «**إن لكل نبى حوضا، وإنهم يتباهون أيهم أكثر واردة، وإنى أرجو أن أكون أكثر واردة**».وإسناده ضعيف، فيه سعيد بن بشير، وهو ضعيف كما فى «التقريب»، والحسن البصرى ثقة يرسل ويدلس لا سيما عن سمرة، وقد عنعنه. قال الترمذى: =

قال العلامة أبو عبد الله القرطبى - رحمه الله - فى « التذكرة » : « واختلف فى الميزان والحوض : أيهما يكون قبل الآخر؟ فقيل : الميزان قبل، وقيل : الحوض » . قال أبو الحسن القابسى : « والصحيح أن الحوض قبل » . قال القرطبى : « والمعنى يقتضيه، فإن الناس يخرجون عطاشاً من قبورهم، كما تقدم فيقدم قبل الميزان والصراط » . قال أبو حامد الغزالى رحمه الله فى كتاب « كشف علم الآخرة » : « حكى بعض السلف من أهل التصنيف، أن الحوض يورد بعد الصراط . وهو غلط من قائله » . قال القرطبى : هو كما قال، ثم قال القرطبى : ولا يخطر ببالك أنه فى

= حديث غريب .

ورواه ابن أبى الدنيا فى« كتاب الأهوال » وساق إسناده ابن كثير فى « النهاية » (١ / ٤١٢) قال : حدثنا خالد بن خداش ثنا حزم بن أبى حزم قال : سمعت الحسن - فذكره بنحوه مرسلاً . وهو مرسل صحيح كما قال الحافظ فى « الفتح » (١١ / ٤٧٦) .

ورواه الطبرانى فى « الكبير » [٧٠٥٣]، من طريق محمد بن إبراهيم بن خبيب، عن جعفر بن سعد بن سمرة عن خبيب بن سليمان بن سمرة، عن أبيه، عن سمرة ﷺ بنحوه . وإسناده ضعيف فيه جعفر بن سعد وهو ليس بالقوى، وخبيب بن سليمان مجهول كما فى « التقريب » .

ويشهد له ما رواه أبو نعيم فى « أخبار إصبهان » (١ / ١١٠) من طريق زائدة بن أبى زائدة، عن عطية العوفى، عن أبى سعيد الخدرى ﷺ مرفوعاً بلفظ : « **إن لى حوضا طوله ما بين الكعبة إلى بيت المقدس ، أشد بياضا من اللبن ، آنيته عدد النجوم ، وكل نبى يدعو أمته ، ولكل نبى حوض** » - الحديث . وفيه عطية العوفى، وهو صدوق يخطئ كثيراً، ويدلس كما فى « التقريب » .

وله شاهد آخر رواه ابن مردويه (تفسير ابن كثير - ٢ / ١٢٦)، وابن أبى الدنيا فى كتاب « الأهوال » (النهاية لابن كثير - ١ / ٤١١)، من طريق عباس بن محمد، عن حسين بن محمد، عن محصن بن عقبة اليمانى، عن الزبير بن شبيب، عن عثمان بن حاضر، عن ابن عباس ﷺ وفيه : « **إن أولياء الله ليردون حياض الأنبياء** » - الحديث، قال ابن كثير فى « النهاية » : هذا حديث غريب من هذا الوجه . اهـ.

والحديث صحيح بمجموع طرقه وشواهده، وقال ابن كثير فى « النهاية » (١ / ٤١٢) : وقد أفتى شيخنا المزىّ بصحته من هذه الطرق . اهـ.

هذه الأرض، بل فى الأرض المبدلة، أرض بيضاء كالفضة، لم يسفك فيها دم، ولم يظلم على ظهرها أحد قط تظهر لنزول الجبار جل جلاله لفصل القضاء». انتهى.

فقاتل الله المنكرين لوجود الحوض، وأخلق بهم أن يحال بينهم وبين وروده يوم العطش الأكبر.

قوله: «**والشفاعة التى ادخرها لهم حق كما روى فى الأخبار**».

ش: الشفاعة أنواع: منها ما هو متفق عليه بين الأمة، ومنها ما خالف فيه المعتزلة ونحوهم من أهل البدع.

النوع الأول: الشفاعة الأولى وهى العظمى، الخاصة بنبينا ﷺ من بين سائر إخوانه من الأنبياء والمرسلين، صلوات الله عليهم أجمعين.

فى «الصحيحين» وغيرهما عن جماعة من الصحابة، رضى الله عنهم أجمعين، أحاديث الشفاعة.

منها: عن أبى هريرة ﷺ، قال: «**أتى رسول الله ﷺ بلحم، فدفع إليه منها الذراع، وكانت تعجبه، فنهس منها نهسة، ثم قال: أنا سيد الناس يوم القيامة، وهل تدرون مم ذلك؟ يجمع الله الأولين والآخرين فى صعيد واحد يسمعهم الداعى وينفذهم البصر وتدنو الشمس فيبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يطيقون ولا يحتملون فيقول بعض الناس لبعض: ألا ترون ما أنتم فيه؟ ألا ترون إلى ما قد بلغكم؟ ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم؟ فيقول بعض الناس لبعض: أبوكم آدم، فيأتون آدم، فيقولون: يا آدم، أنت أبو البشر خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه وأمر الملائكة فسجدوا لك فاشفع لنا إلى ربك، ألا**

ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا: فيقول آدم: إن ربى قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنه نهانى عن الشجرة فعصيته، نفسى نفسى، نفسى اذهبوا إلى غيرى، اذهبوا إلى نوح، فيأتون نوحاً، فيقولون: يا نوح، أنت أول الرسل إلى أهل الأرض، وسَّماك الله عبدا شكورا فاشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول نوح: إن ربى قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله، وإنه كانت لى دعوة دعوت بها على قومى، نفسى نفسى، نفسى، اذهبوا إلى غيرى، اذهبوا إلى إبراهيم، فيأتون إبراهيم، فيقولون: يا إبراهيم، أنت نبى الله وخليله من أهل الأرض، ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول: إن ربى قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وذكر كذباته، نفسى نفسى، نفسى اذهبوا إلى غيرى، اذهبوا إلى موسى، فيأتون موسى: فيقولون: يا موسى، أنت رسول الله، اصطفاك الله برسالاته وبتكليمه على الناس، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول لهم موسى: إن ربى قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنى قتلت نفساً لم أومر بقتلها، نفسى نفسى، نفسى، اذهبوا إلى غيرى، اذهبوا إلى عيسى، فيأتون عيسى فيقولون: يا عيسى أنت رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، قال: هكذا هو، وكلمت الناس فى المهد، فاشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا: فيقول لهم عيسى: إن ربى غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، ولم يذكر له ذنباً، اذهبوا إلى غيرى، اذهبوا إلى محمد ﷺ، فيأتونى، فيقولون: يا محمد أنت رسول الله وخاتم الأنبياء، غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فاشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا: فأقوم،

فآتى تحت العرش، فأقع ساجدا لربى عز وجل، ثم يفتح الله على ويلهمنى من محامده وحسن الثناء عليه ما لم يفتحه على أحد قبلى، فيقال: يا محمد ارفع رأسك، سل تعط، اشفع تشفع، فأقول: يا رب أمتى أمتى، يا رب أمتى أمتى، يا رب أمتى أمتى فيقال: أدخل من أمتك من لا حساب عليه من الباب الأيمن من أبواب الجنة، وهم شركاء الناس فيما سواه من الأبواب، ثم قال: والذى نفسى بيده، لما بين مصراعين من مصاريع الجنة كما بين مكة وهجر أو كما بين مكة وبصرى» [1] أخرجاه فى «الصحيحين» بمعناه، واللفظ للإمام أحمد.

والعجب كل العجب، من إيراد الأئمة لهذا الحديث من أكثر طرقه، لا يذكرون أمر الشفاعة الأولى، فى أن يأتى الرب سبحانه وتعالى لفصل القضاء، كما ورد هذا فى حديث الصور، فإنه المقصود فى هذا المقام، ومقتضى سياق أول الحديث، فإن الناس إنما يستشفعون إلى آدم فمن بعده من الأنبياء فى أن يفصل بين الناس، ويستريحوا من مقامهم، كما دلت عليه سياقاته من سائر طرقه، فإذا وصلوا إلى المحز إنما يذكرون الشفاعة فى عصاة الأمة وإخراجهم من النار.

وكأن مقصود السلف - فى الاقتصار على هذا المقدار من الحديث هو الرد على الخوارج ومن تابعهم من المعتزلة، الذين أنكروا خروج أحد من النار بعد دخولها، فيذكرون هذا القدر من الحديث الذى فيه النص الصريح فى الرد عليهم فيما ذهبوا إليه من البدعة المخالفة للأحاديث.

---

(١) سبق تخريجه (١/ ٧٩).

وقد جاء التصريح بذلك فى حديث الصور، ولولا خوف الإطالة لسقته بطوله، لكن من مضمونه: «أنهم يأتون آدم ثم نوحاً، ثم إبراهيم، ثم موسى، ثم عيسى، ثم يأتون رسول الله محمداً ﷺ، فيذهب فيسجد تحت العرش فى مكان يقال له: الفحص، فيقول الله: ما شأنك؟ وهو أعلم، قال رسول الله ﷺ: فأقول: يا رب، وعدتنى الشفاعة، فشفعنى فى خلقك، فاقض بينهم، فيقول سبحانه وتعالى: شفعتك، أنا آتيكم فأقضى بينكم، قال: فأرجع فأقف مع الناس، ثم ذكر انشقاق السماوات، وتنزل الملائكة فى الغمام، ثم يجئ الرب سبحانه وتعالى لفصل القضاء والكروبيون والملائكة المقربون يسبحون بأنواع التسبيح قال: فيضع الله كرسيه حيث شاء من أرضه، ثم يقول: إنى أنصت لكم منذ خلقتكم إلى يومكم هذا أسمع أقوالكم، وأرى أعمالكم، فأنصتوا إلى، فإنما هى أعمالكم وصحفكم تقرأ عليكم، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه، إلى أن قال: فإذا أفضى أهل الجنة إلى الجنة قالوا: من يشفع لنا إلى ربنا فندخل الجنة؟ فيقولون: من أحق بذلك من أبيكم إنه خلقه الله بيده ونفخ فيه من روحه وكلمه قبلاً، فيأتون آدم، فيطلبون ذلك إليه. وذكر نوحاً، ثم إبراهيم، ثم موسى، ثم عيسى، ثم محمداً ﷺ».

إلى أن قال: قال رسول الله ﷺ: «فآتى الجنة، فآخذ بحلقة الباب، ثم أستفتح، فيفتح لى، فأُحىَّ ويرحب بى، فإذا دخلت الجنة فنظرت إلى ربى عز وجل خررت له ساجداً، فيأذن لى من حمده وتمجيده بشئ ما أذن به لأحد من خلقه، ثم يقول الله لى: ارفع يا محمد، واشفع تشفع، وسل تعطه فإذا رفعت رأسى، قال الله ـ وهو أعلم ـ: ما شأنك؟ فأقول: يارب، وعدتنى الشفاعة، فشفعنى فى أهل الجنة يدخلون الجنة، فيقول الله عز وجل: قد شفعتك وأذنت

لهم فى دخول الجنة» [1] - الحديث. رواه الأئمة: ابن جرير فى تفسيره، والطبرانى، وأبو يعلى الموصلى، والبيهقى وغيرهم.

النوع الثانى والثالث من الشفاعة: شفاعته ﷺ فى أقوام قد تساوت حسناتهم وسيئاتهم، فيشفع فيهم ليدخلوا الجنة، وفى أقوام آخرين قد أمر بهم إلى النار، أن لا يدخلوها.

النوع الرابع: شفاعته ﷺ فى رفع درجات من يدخل الجنة فيها فوق ما كان يقتضيه ثواب أعمالهم، وقد وافقت المعتزلة على هذه الشفاعة خاصة، وخالفوا فيما عداها من المقامات، مع تواتر الأحاديث فيها.

النوع الخامس: الشفاعة فى أقوام أن يدخلوا الجنة بغير حساب، ويحسن أن يستشهد لهذا النوع بحديث عكاشة بن محصن رضي الله عنه، حين دعا له رسول الله ﷺ أن يجعله من السبعين ألفا الذين يدخلون الجنة بغير حساب، والحديث مخرج فى الصحيحين [2].

---

(١) **ضعيف**. رواه ابن جرير فى «التفسير» (٢ / ٣٣٠)، واللالكائى فى «السنة» [٣٦٥]، والطبرانى فى «المطولات» [٣٦]، والبيهقى فى «البعث» [٦٠٩]، من طريق إسماعيل ابن رافع، عن محمد يزيد بن أبى زياد عن محمد بن كعب القرظى، عن أبى هريرة رضي الله عنه به.

وإسناده ضعيف، فيه إسماعيل بن رافع، وهو ضعيف الحفظ كما فى «التقريب»، وهو مع ضعفه قد اضطرب فى إسناده كما قال الحافظ فى «الفتح» (١١ / ٣٦٨).
والحديث ضعفه البيهقى، وعبد الحق الأشبيلى، ووافقهما الحافظ فى «الفتح».

(٢) رواه البخارى [٦٥٤١]، ومسلم [٢٢٠]، والترمذى [٢٤٤٦]، وأحمد (١ / ٢٧١)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما بلفظ: «**عرضت علىّ الأمم**» - وفيه: فقام عكاشة بن محصن رضي الله عنه فقال: ادع الله أن يجعلنى منهم، قال: «**اللهم اجعله منهم**».
ورواه البخارى [٥٨١١]، ومسلم [٢١٦]، وأحمد (٢ / ٤٠٠)، من حديث أبى هريرة رضي الله عنه بلفظ: «**يدخل الجنة من أمتى زمرة هى سبعون ألفا**» - الحديث.

النوع السادس: الشفاعة فى تخفيف العذاب عمن يستحقه كشفاعته فى عمه أبى طالب أن يخفف عنه عذابه [1].

ثم قال القرطبى فى «التذكرة» بعد ذكر هذا النوع: «فإن قيل: فقد قال الله تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨]. قيل له: لا تنفعه فى الخروج من النار، كما تنفع عصاة الموحدين، الذين يخرجون منها ويدخلون الجنة.

النوع السابع: شفاعته أن يؤذن لجميع المؤمنين فى دخول الجنة، كما تقدم. وفى «صحيح مسلم» عن أنس رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «**أنا أول شفيع فى الجنة**» [2].

النوع الثامن: شفاعته فى أهل الكبائر من أمته، ممن دخل النار، فيخرجون منها، وقد تواترت بهذا النوع الأحاديث، وقد خفى علم ذلك على الخوارج والمعتزلة، فخالفوا فى ذلك، جهلاً منهم بصحة الأحاديث، وعناداً ممن علم ذلك واستمر على بدعته.

= ورواه مسلم [٢١٨]، وأحمد (٤/٤٤١)، من حديث عمران رضي الله عنه بلفظ: «**يدخل الجنة من أمتى سبعون ألفاً بغير حساب**» ـ الحديث.

(١) رواه البخارى [٣٨٨٣]، ومسلم [٢٠٩]، وأحمد (١/٢٠٦)، والحميدى [٤٦٠]، من حديث العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه قال: يا رسول الله هل نفعت أبا طلب بشئ، فإنه كان يحوطك ويغضب لك؟ قال: «**نعم، هو فى ضحضاح من نار، ولولا أنا لكان فى الدرك الأسفل**»

ورواه البخارى [٣٨٨٥]، ومسلم [٢١٠]، وأحمد (٣/٨)، من حديث أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه بلفظ: «**لعله تنفعه شفاعتى فيجعل فى ضحضاح من نار**» ـ الحديث.

(٢) رواه مسلم [١٩٦]، وأحمد (١/١٤٠)، والدارمى [٥٢]، وأبو عوانة (١/١٠٩ - ١١٠)، وابن خزيمة فى «التوحيد» [٣٦٠]، وابن منده فى «الإيمان» [٨٨٦]، وابن أبى عاصم فى «السنة» [٧٩٦].

وهذه الشفاعة تشاركه فيها الملائكة والنبيون والمؤمنون أيضاً.

وهذه الشفاعة تتكرر منه ﷺ أربع مرات.

ومن أحاديث هذا النوع حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**شفاعتى لأهل الكبائر من أمتى**» [(١)] رواه الإمام أحمد رحمه الله.

وروى البخارى رحمه الله فى كتاب «التوحيد»: حدثنا سليمان ابن حرب، حدثنا حماد بن زيد، حدثنا معبد بن هلال العنزى، قال: اجتمعنا، ناس من أهل البصرة، فذهبنا إلى أنس بن مالك، وذهبنا معنا بثابت البنانى، يسأله لنا عن حديث الشفاعة، فإذا هو فى قصره، فوافقناه يصلى الضحى، فاستأذنا، فأذن لنا وهو قاعد على فراشه، فقلنا لثابت: لا تسأله عن شئ أول من حديث الشفاعة، فقال: يا أبا حمزة، هؤلاء إخوانك من أهل البصرة، جاؤوك يسألونك عن حديث الشفاعة فقال: حدثنا محمد ﷺ قال: «**إذا كان يوم القيامة، ماج الناس بعضهم فى بعض، فيأتون آدم، فيقولون: اشفع لنا إلى ربك، فيقول: لست لها**

---

(١) **صحيح**. رواه أبو داود [٤٧٣٩]، وأحمد (٣ / ٢١٣)، وابن خزيمة فى «التوحيد» [٣٩٣]، والحاكم (١ / ٦٩)، والبيهقى (١٠ / ١٩٠)، من طريق بسطام بن حريث، عن أشعث الحمدانى، عن أنس رضي الله عنه به.
وإسناده صحيح، رجاله ثقات. ورواه الترمذى [٢٤٣٥]، وابن حبان [٦٤٦٨]، والحاكم (١ / ٦٩)، والبيهقى (٨ / ١٧)، من طريق عبد الرزاق، عن معمر، عن ثابت، عن أنس رضي الله عنه به.
وإسناده صحيح على شرط الشيخين. قال الترمذى: هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه. اهـ. وصححه الحاكم على شرط الشيخين، ووافقه الذهبى، وصححه البيهقى، وابن كثير فى «التفسير» (١ / ٤٨٨).
وفى الباب من حديث جابر، وابن عباس، وابن عمر، وكعب بن عجرة، وحذيفة رضي الله عنهم.

ولكن عليكم بإبراهيم ، فإنه خليل الرحمن ، فيأتون إبراهيم ، فيقول : لست لها ، ولكن عليكم بموسى ، فإنه كليم الله ، فيأتون موسى ، فيقول : لست لها ، ولكن عليكم بعيسى ، فإنه روح الله وكلمته ، فيأتون عيسى ، فيقول : لست لها ، ولكن عليكم بمحمد ﷺ ، فيأتونى ، فأقول : أنا لها ، فأستأذن على ربى فيؤذن لى ، ويلهمنى محامد أحمده بها ، لا تحضرنى الآن ، فأحمده بتلك المحامد ، وأخر له ساجداً ، فيقال : يا محمد ، ارفع رأسك ، وقل يسمع لك ، واشفع تشفع ، وسل تعط ، فأقول : يا رب أمتى أمتى ، فيقال : انطلق فأخرج منها من كان فى قلبه مثقال شعيرة من إيمان ، فأنطلق فأفعل ، ثم أعود فأحمده بتلك المحامد ، ثم أخر له ساجداً ، فيقال : يا محمد ، ارفع رأسك ، وقل يسمع لك ، واشفع تشفع ، وسل تعط ، فأقول : يا رب أمتى أمتى ، فيقال : انطلق فأخرج منها من كان فى قلبه مثقال ذرة أو خردلة من إيمان ، فأنطلق فأفعل ، ثم أعود فأحمده بتلك المحامد ، ثم أخر له ساجداً ، فيقال : يا محمد ، ارفع رأسك ، وقل يسمع لك ، وسل تعط ، واشفع تشفع ، فأقول : يا رب ، أمتى أمتى ، فيقول : انطلق فأخرج من كان فى قلبه أدنى أدنى أدنى مثقال حبة من خردل من إيمان ، فأخرجه من النار ، فأنطلق فأفعل» . قال : فلما خرجنا من عند أنس، قلت لو مررنا بالحسن، وهو متوار فى منزل أبى خليفة وهو جميع، فحدثناه بما حدثنا به أنس بن مالك، فأتيناه، فسلمنا عليه، فأذن لنا، فقلنا له : يا أبا سعيد، جئناك من عند أخيك، أنس بن مالك، فلم نر مثل ما حدثنا فى الشفاعة، فقال : هيه؟ فحدثناه بالحديث، فأتينا إلى هذا الموضع، فقال : هيه؟ فقلنا لم يزد لنا على هذا، فقال : لقد حدثنى وهو جميع، منذ عشرين سنة، فما أدرى، أنسى أم كره أن تتكلوا؟ فقلنا : يا أبا سعيد، فحدثنا، فضحك وقال : خلق الإنسان عجولاً، ما ذكرته إلا وأنا أريد

أن أحدثكم حديثي كما حدثكم به، قال: «**ثم أعود الرابعة، فأحمده بتلك المحامد، ثم أخر له ساجداً، فيقال: يا محمد، ارفع رأسك، وقل يسمع، وسل تعطه، واشفع تشفع، فأقول: يا رب: أئذن لي فيمن قال: لا إله إلا الله، فيقول: وعزتي وجلالي، وكبريائي وعظمتي، لأخرجن منها من قال: لا إله إلا الله**»[1]. و هكذا رواه مسلم.

وروى الحافظ أبو يعلى عن عثمان رضي الله عنه: قال: قال رسول الله ﷺ: «**يشفع يوم القيامة ثلاثة: الأنبياء، ثم العلماء، ثم الشهداء**»[2].

وفي «الصحيح» من حديث أبي سعيد رضي الله عنه مرفوعاً، قال: «**فيقول الله تعالى: شفعت الملائكة، وشفع النبيون وشفع المؤمنون ولم يبق إلا أرحم الراحمين، فيقبض قبضة من النار، فيخرج منها قوماً لم يعملوا خيراً قط**»[3]، الحديث.

ثم إن الناس في الشفاعة على ثلاثة أقوال:

فالمشركون والنصارى والمبتدعون من الغلاة في المشايخ وغيرهم: يجعلون شفاعة من يعظمونه عند الله كالشفاعة المعروفة في الدنيا.

---

(١) رواه البخاري [٧٥١٠]، ومسلم [١٩٣]، والنسائي في «الكبرى» [١١١٣١]، وأبو عوانة (١/١٨٣)، وابن منده في «الإيمان» [٨٧٣].

(٢) **ضعيف**. رواه ابن ماجه [٤٣١٣]، والعقيلي في «الضعفاء» (٣/٣٦٧)، وابن عدي في «الكامل» (٥/١٩٠١)، والبزار [البحر الزخار - ٣٧٢]، والخطيب في «تاريخ بغداد» (١١/١٧٧)، من طريق عنبسة بن عبد الرحمن، عن علاق بن أبي مسلم عن أبان بن عثمان، عن عثمان رضي الله عنه به.
وإسناده ضعيف، فيه عنبسة بن عبد الرحمن وهو متروك، وعلاق بن أبي مسلم مجهول كما في «التقريب»، والحديث ضعفه ابن عدي، والعقيلي، والعراقي في «تخريج الإحياء» (الإتحاف - ١/١٢٠)، والبوصيري في «الزوائد» [١٥٤٣].

(٣) سبق تخريجه (١/١٧٥).

والمعتزلة والخوارج أنكروا شفاعة نبينا ﷺ وغيره فى أهل الكبائر.

وأما أهل السنة والجماعة فيقرون بشفاعة نبينا ﷺ فى أهل الكبائر، وشفاعة غيره لكن لا يشفع أحد حتى يأذن الله له ويحد له حدا، كما فى الحديث الصحيح، حديث الشفاعة: «**إنهم يأتون آدم، ثم نوحاً، ثم إبراهيم، ثم موسى، ثم عيسى، فيقول لهم عيسى** عليه السلام: **اذهبوا إلى محمد، فإنه عبد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فيأتونى، فأذهب، فإذا رأيت ربى خررت له ساجداً، فأحمد ربى بمحامد يفتحها على، لا أحسنها الآن، فيقول: أى محمد، ارفع رأسك، وقل يسمع، واشفع تشفع، فأقول: ربى: أمتى، فيحد لى حدا، فأدخلهم الجنة، ثم أنطلق فأسجد، فيحد لى حدا**»[1] ذكر هذا ثلاث مرات.

وأما الاستشفاع بالنبى ﷺ وغيره فى الدنيا إلى الله تعالى فى الدعاء، ففيه تفصيل: فإن الداعى تارة يقول: بحق نبيك؛ أو بحق فلان، يقسم على الله بأحد من مخلوقاته، فهذا محذور من وجهين:

أحدهما: أنه أقسم بغير الله.

والثانى: اعتقاده أن لأحد على الله حقاً. ولا يجوز الحلف بغير الله، وليس لأحد على الله حق إلا ما أحقه على نفسه، كقوله تعالى: ﴿**وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ [الروم: ٤٧]. وكذلك ما ثبت فى «الصحيحين» من قوله ﷺ لمعاذ رضي الله عنه، وهو رديفه: «**يا معاذ، أتدرى ما حق الله على عباده؟**» قال قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «**حقه عليهم أن**

---

(١) سبق تخريجه (١/ ٧٩).

يعبدوه ولا يشركوا به شيئا، أتدرى ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك؟» قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «**حقهم عليه أن لا يعذبهم**»[1]. فهذا حق وجب بكلماته التامة ووعده الصادق، لا أن العبد نفسه يستحق على الله شيئاً كما يكون للمخلوق على المخلوق، فإن الله هو المنعم على العباد بكل خير، وحقهم الواجب بوعده هو أن لا يعذبهم، وترك تعذيبهم معنى لا يصلح أن يقسم به، ولا أن يسأل بسببه ويتوسل به، لأن السبب هو ما نصبه الله سبباً. وكذلك الحديث الذى فى «المسند» من حديث أبى سعيد رضي الله عنه عن النبى ﷺ، فى قول الماشى إلى الصلاة: «**أسألك بحق ممشاى هذا، وبحق السائلين عليك**»[2] فهذا حق السائلين، وهو أوجبه على نفسه، فهو الذى أحق للسائلين أن يجيبهم، وللعابدين أن يثيبهم، ولقد أحسن القائل:

ما للعباد عليه حق واجب ... كلا ولا سعى لديه ضائع

إن عذبوا فبعدله، أو نعموا ... فبفضله وهو الكريم الواسع

فإن قيل: فأى فرق بين قول الداعى: «بحق السائلين عليك» وبين قوله: «بحق نبيك» أو نحو ذلك؟ فالجواب: أن معنى قوله: «بحق السائلين عليك» أنك وعدت السائلين بالإجابة، وأنا من جملة

---

(١) رواه البخارى [٢٨٥٦]، ومسلم [٣٠]، والترمذى [٢٦٤٣]، والنسائى فى «الكبرى» [٥٨٧٧]، وأحمد (٥/٢٢٨، ٢٣٠).

(٢) **ضعيف**. رواه ابن ماجه [٧٧٨]، وأحمد (٣/٢١)، وابن الجعد [٢١١٨]، والطبرانى فى «الدعاء [٤٢١]، من طريق فضيل بن مرزوق، عن عطية العوفى، عن أبى سعيد رضي الله عنه به.

قال البوصيرى فى «الزوائد» [٢٩٣]: هذا إسناد مسلسل بالضعفاء. اهـ. وضعفه النووى فى «الأذكار» (ص: ٢٥)، وابن تيمية فى «مجموع الفتاوى» (١/٢٨٨).

السائلين، فأجب دعائي، بخلاف قوله: بحق فلان، فإن فلاناً وإن كان له حق على الله بوعده الصادق، فلا مناسبة بين ذلك وبين إجابة دعاء هذا السائل، فكأنه يقول: لكون فلان من عبادك الصالحين أجب دعائي! وأي مناسبة في هذا وأي ملازمة؟ وإنما هذا من الاعتداء في الدعاء، وقد قال تعالى: ﴿**ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ**﴾ [الأعراف: ٥٥]. وهذا ونحوه من الأدعية المبتدعة، ولم ينقل عن النبي ﷺ، ولا عن الصحابة، ولا عن التابعين، ولا عن أحد من الأئمة رضي الله عنهم، إنما يوجد مثل هذا في الحروز والهياكل التي يكتبها الجهال والطرقية.

والدعاء من أفضل العبادات، والعبادات مبناها على السنة والاتباع، لا على الهوى والابتداع.

وإن كان مراده الإقسام على الله بحق فلان، فذلك محذور أيضاً؛ لأن الإقسام بالمخلوق على المخلوق لا يجوز، فكيف على الخالق؟! وقد قال ﷺ: «**من حلف بغير الله فقد أشرك**» [(١)]؛ ولهذا قال أبو حنيفة وصاحباه رضي الله عنهم: يكره أن يقول الداعي: أسألك بحق فلان، أو بحق أنبيائك ورسلك، وبحق البيت الحرام، والمشعر الحرام، ونحو ذلك. حتى كره أبو حنيفة ومحمد رضي الله عنهما أن يقول الرجل: اللهم إني أسألك بمعقد العز من

---

(١) **صحيح**. رواه أبو داود [٣٢٥١]، والترمذي [١٥٣٥]، وأحمد (٢/١٢٥)، وابن حبان [٤٣٥٨]، والحاكم (١/١٨)، والبيهقي (١٠/٢٩)، من طريق الحسن بن عبيد الله، عن سعد بن عبيدة، عن ابن عمر رضي الله عنهما به.
وإسناده صحيح، رجاله ثقات على شرط مسلم، والحديث حسنه الترمذي، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي.

عرشك، ولم يكرهه أبو يوسف - رحمه الله - لما بلغه الأثر فيه [1].

وتارة يقول: بجاه فلان عندك، أو يقول: نتوسل إليك بأنبيائك ورسلك وأوليائك، ومراده أن فلاناً عندك ذو وجاهة وشرف ومنزلة فأجب دعاءنا، وهذا أيضاً محذور، فإنه لو كان هذا هو التوسل الذى كان الصحابة يفعلونه فى حياة النبى ﷺ لفعلوه بعد موته، وإنما كانوا يتوسلون فى حياته بدعائه، يطلبون منه أن يدعو لهم، وهم يؤمنون على دعائه، كما فى الاستسقاء وغيره. فلما مات ﷺ قال عمر رضي الله عنه لما خرجوا يستسقون: «اللهم إنا كنا إذا أجدبنا نتوسل اليك بنبينا فتسقينا، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا» [2]. معناه بدعائه هو ربه وشفاعته وسؤاله، ليس المراد أنا نقسم عليك به أو نسألك بجاهه عندك، إذ لو كان ذلك مراداً لكان جاه النبى ﷺ أعظم وأعظم من جاه العباس.

وتارة يقول: باتباعى لرسولك ومحبتى له وإيمانى به وسائر أنبيائك ورسلك وتصديقى لهم، ونحو ذلك. فهذا من أحسن ما يكون فى الدعاء والتوسل والاستشفاع.

فلفظ التوسل بالشخص والتوجه به فيه إجمال، غلط بسببه من لم

---

(١) **موضوع**. رواه ابن الجوزى فى «الموضوعات» (٢ / ١٤٢)، من طريق عمرٍ بن هارون البلخى، عن ابن جريج، عن داود بن أبى عاصم، عن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً به.
وعمر بن هارون، كذبه ابن معين كما فى «تهذيب الكمال» (٢١ / ٥٢٧)، وقال الذهبى فى «الكاشف» (٢ / ٣٢٢): واهٍ اتهمه بعضهم. وقال ابن الجوزى: هذا حديث موضوع بلا شك. اهـ.

(٢) رواه البخارى [١٠١٠، ٣٧١٠]، وابن خزيمة [١٤٢١]، وابن حبان [إحسان - ٢٨٦١]، والطبرانى فى «الكبير» [٨٤]، وفى «الدعاء» [٩٦٥]، من حديث أنس رضي الله عنه.

يفهم معناه: فإن أريد به التسبب به لكونه داعياً وشافعاً، وهذا فى حياته يكون، أو لكون الداعى محباً له، مطيعا لأمره، مقتديا به، وذلك أهل للمحبة والطاعة والاقتداء، فيكون التوسل إما بدعاء الوسيلة وشفاعته، وإما بمحبة السائل واتباعه، ويراد به الإقسام به والتوسل بذاته، فهذا الثانى هو الذى كرهوه ونهوا عنه.

وكذلك السؤال بالشيء، قد يراد به التسبب به، لكونه سبباً فى حصول المطلوب، وقد يراد به الإقسام به.

ومن الأول: حديث الثلاثة الذين أووا إلى الغار، وهو حديث مشهور فى «الصحيحين» وغيرهما، فإن الصخرة انطبقت عليهم، فتوسلوا إلى الله بذكر أعمالهم الصالحة الخالصة، وكل واحد منهم يقول: فإن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فأفرج عنا ما نحن فيه، فانفرجت الصخرة فخرجوا يمشون [1].

فهؤلاء دعوا الله بصالح الأعمال؛ لأن الأعمال الصالحة هى أعظم ما يتوسل به العبد إلى الله، ويتوجه به إليه، ويسأله به، لأنه وعد أن يستجيب للذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله.

فالحاصل أن الشفاعة عند الله ليست كالشفاعة عند البشر، فإن الشفيع عند البشر كما أنه شافع للطالب شفعه فى الطلب، بمعنى أنه صار به شفعاً فيه بعد أن كان وتراً، فهو أيضاً قد شفع المشفوع إليه فبشفاعته صار فاعلا للمطلوب، فقد شفع الطالب والمطلوب منه والله

---

(1) رواه البخارى [٢٢١٥، ٢٢٧٢]، ومسلم [٢٧٤٣]، وأحمد (٢/ ١١٦)، وابن حبان [إحسان - ٨٩٧]، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما. بلفظ: «**خرج ثلاثة نفر يمشون فأصابهم المطر فدخلوا فى غار فى جبل**» - الحديث.

تعالى وتر لا يشفعه أحد، فلا يشفع عنده أحد إلا بإذنه، فالأمر كله إليه، فلا شريك له بوجه. فسيد الشفعاء يوم القيامة إذا سجد وحمد الله تعالى فقال له الله: «**ارفع رأسك، وقل يسمع، وسل تعط، واشفع تشفع**»، فيحد له حدا فيدخلهم الجنة، فالأمر كله لله. كما قال تعالى: ﴿**قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ**﴾ [آل عمران: ١٥٤]. وقال تعالى: ﴿**لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ**﴾ [آل عمران: ١٢٨]. وقال تعالى: ﴿**أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ**﴾ [الأعراف: ٥٤].

فإذا كان لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه لمن يشاء ولكن يكرم الشفيع بقبول شفاعته، كما قال ﷺ: «**اشفعوا تؤجروا، ويقضي الله على لسان نبيه ما يشاء**»(١).

وفي «الصحيح»: أن النبي ﷺ قال: «**يا بني عبد مناف، لا أملك لكم من الله شيئاً، يا صفية عمة رسول الله لا أملك لك من الله شيئاً، يا عباس عم رسول الله، لا أملك لك من الله شيئاً**»(٢).

وفي «الصحيح» أيضاً عن النبي ﷺ: «**لا ألفين أحدكم يأتي يوم القيامة على رقبته بعير له رغاء، أو شاة لها يعار، أو رقاع تخفق، فيقول: أغثني أغثني، فأقول: قد أبلغتك، لا أملك لك من الله شيئا**»(٣).

---

(١) رواه البخاري [١٤٣٢]، ومسلم [٢٦٢٧]، وأبو داود [٥١٣١]، والترمذي [٢٦٧٢]، والنسائي (٥/٥٨)، وأحمد (٤/٤٠٠، ٤٠٩)، والحميدي [٧٧١]، من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاري [٢٧٥٣]، ومسلم [٢٠٤]، والترمذي [٣١٨٥]، والنسائي (٦/٢٠٧)، وأحمد (٢/٣٣٣، ٣٥٠)، وابن حبان [إحسان - ٦٤٦]، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. وفي الباب من حديث عائشة، وقبيصة، وزهير رضي الله عنهم.

(٣) رواه البخاري [٣٠٧٣]، ومسلم [١٨٣١]، وأحمد (٢/٤٢٦)، وابن أبي شيبة (١٢/٤٩٢)، وابن حبان [إحسان - ٤٨٤٨]، والبيهقي (٩/١٠١)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه

فإذا كان سيد الخلق وأفضل الشفعاء يقول لأخص الناس به: «**لا أملك لكم من الله من شيء**» فما الظن بغيره؟! وإذا دعاه الداعي، وشفع عنده الشفيع، فسمع الدعاء، وقبل الشفاعة، لم يكن هذا هو المؤثر فيه كما يؤثر المخلوق فى المخلوق، فإنه سبحانه وتعالى هو الذى جعل هذا يدعو ويشفع، وهو الخالق لأفعال العباد، فهو الذى وفق العبد للتوبة ثم قبلها، وهو الذى وفقه للعمل ثم أثابه، وهو الذى وفقه للدعاء ثم أجابه،. وهذا مستقيم على أصول أهل السنة المؤمنين بالقدر، وأن الله خالق كل شيء.

قوله: «**والميثاق الذى أخذه الله تعالى من آدم وذريته حق**».

ش: قال تعالى: ﴿**وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ**﴾ [الأعراف: ١٧٢]. أخبر سبحانه أنه استخرج ذرية بنى آدم من أصلابهم شاهدين على أنفسهم أن الله ربهم ومليكهم وأنه لا إله إلا هو. وقد وردت أحاديث فى أخذ الذرية من صلب آدم عليه السلام وتمييزهم إلى أصحاب اليمين وإلى أصحاب الشمال، وفى بعضها الإشهاد عليهم بأن الله ربهم:

فمنها: ما رواه الإمام أحمد عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبى ﷺ، قال: «**إن الله أخذ الميثاق من ظهر آدم عليه السلام بنعمان يعنى عرفة، فأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها، فنثرها بين يديه، ثم كلمهم قبلاً، قال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا﴾** إلى قوله: ﴿**الْمُبْطِلُونَ**﴾ [الأعراف: ١٧٢-١٧٣]»[1].

---

(١) **صحيح**. رواه النسائى فى «الكبرى» [١١١٩١]، وأحمد (١/ ٢٧٢)، والحاكم =

ورواه النسائى أيضاً، وابن جرير، وابن أبى حاتم، والحاكم فى «المستدرك»، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

وروى الإمام أحمد أيضاً عن عمر بن الخطاب ﷺ: أنه سئل عن هذه الآية، فقال: سمعت رسول الله ﷺ سئل عنها، فقال: «**إن الله خلق آدم ﷺ، ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذرية، قال: خلقت هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون. ثم مسح ظهره، فاستخرج منه ذرية قال: خلقت هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون فقال رجل: يا رسول الله، ففيم العمل؟ قال رسول الله ﷺ: إن الله عز وجل إذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة، حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة، فيدخل به الجنة، وإذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار، حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيدخل به النار**»[1] رواه أبو داود، والترمذى، والنسائى، وابن أبى حاتم

= (٢/ ٥٤٤)، والبيهقى فى «الأسماء والصفات» (ص: ٣٢٦)، من طريق حسين بن محمد، عن جرير بن حازم، عن كلثوم بن جبر عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس ﷺ مرفوعاً به.

وإسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الشيخين غير كلثوم بن جبر فإنه صدوق يخطئ وروى له مسلم كما فى «التقريب»، وقال الحاكم: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبى.

ورواه الحاكم (١/ ٢٧)، والبيهقى فى «الأسماء والصفات» (ص: ٣٢٦)، من طريق وهب بن جرير بن حازم، عن أبيه، عن كلثوم بن جبر به. وصحح الحاكم إسناده ووافقه الذهبى.

(١) **صحيح**. رواه مالك فى «الموطأ» (ص: ٥٦٠)، ومن طريقه أبو داود [٤٧٠٣]، والترمذى [٣٠٧٥]، والنسائى فى «الكبرى» [١١١٩٠]، وأحمد (١/ ٤٤)، وابن حبان [٦١٦٦]، والحاكم (١/ ٢٧)، (٢/ ٣٢٤، ٥٤٤)، عن زيد بن أبى أنيسة، عن عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب، عن مسلم بن يسار الجهنى، عن عمر ابن الخطاب ﷺ به.

ورجاله كلهم ثقات. قال الترمذى: هذا حديث حسن، ومسلم بن يسار لم يسمع من عمر. اهـ. ومسلم بن يسار وثقه ابن حبان، والعجلى، وقال فى «التقريب»: =

وابن جرير، وابن حبان » فى « صحيحه ».

وروى الترمذى عن أبى هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: **« لما خلق الله آدم مسح على ظهره، فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها من ذريته إلى يوم القيامة، وجعل بين عينى كل إنسان منهم وبيصاً من نور، ثم عرضهم على آدم، فقال: أى رب، من هؤلاء؟ قال: هؤلاء ذريتك، فرأى رجلا منهم، فأعجبه وبيص ما بين عينيه، فقال: أى رب، من هذا؟ قال: هذا رجل من آخر الأمم من ذريتك يقال له: داود، قال: رب كم عمره؟ قال: ستون سنة، قال: أى رب زده من عمرى أربعين سنة، فلما انقضى عمر آدم، جاء ملك الموت، قال: أولم يبق من عمرى أربعون سنة؟ قال: أو لم تعطها ابنك داود؟ قال: فجحد. فجحدت ذريته، ونسى آدم، فنسيت ذريته، وخطئ آدم، فخطئت ذريته »** [1].

ثم قال الترمذى: هذا حديث حسن صحيح. ورواه الحاكم وقال:

= مقبول. اهـ. وروايته عن عمر رضي الله عنه مرسلة كما فى « المراسيل » (ص: ٢١٠)، والحديث صححه الحاكم فى المواضع الثلاثة. ووصله أبو داود [٤٧٠٤]، من طريق عمر بن جعثم القرشى، وابن أبى عاصم فى « السنة » [٢٠١]، من طريق يزيد بن سنان كلاهما، عن زيد بن أبى أنيسة، عن عبد الحميد بن عبد الرحمن، عن مسلم بن يسار، عن نعيم بن ربيعة قال: كنت عند عمر بن الخطاب رضي الله عنه به.

قال الدارقطنى فى « العلل » (٢/ ٢٢٢): وحديث يزيد بن سنان متصل وهو أولى بالصواب. اهـ.

(١) **صحيح**. رواه الترمذى [٣٠٧٦]، وابن سعد فى « الطبقات » (١/ ١٣)، والحاكم (٢/ ٣٢٥)، وابن منده فى « الرد على الجهمية » [٢٣]، من طرق عن أبى نعيم الفضل بن دكين، عن هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم، عن أبى صالح، عن أبى هريرة رضي الله عنه بنحوه.

وإسناده صحيح رجاله ثقات، رجال الشيخين، غير هشام بن سعد، فإنه صدوق له أوهام روى له مسلم، وروي له البخارى فى المتابعات.

قال الترمذى: هذا حديث حسن صحيح. وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبى، وصححه ابن منده.

صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه .

وروى الإمام أحمد أيضاً عن أنس بن مالك ﷺ، عن النبى ﷺ قال : «**يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة : أرأيت لو كان لك ما على الأرض من شيء ، أكنت مفتدياً به ؟ قال : فيقول : نعم ، قال : فيقول : قد أردت منك أهون من ذلك ، قد أخذت عليك فى ظهر آدم أن لا تشرك بى شيئاً فأبيت إلا أن تشرك بى شيئاً**» [1] وأخرجاه فى « الصحيحين » أيضاً .

وفى ذلك أحاديث أخرى أيضا كلها دالة على أن الله استخرج ذرية آدم من صلبه، وميز بين أهل النار وأهل الجنة .

ومن هنا قال من قال : إن الأرواح مخلوقة قبل الأجساد وهذه الآثار لا تدل على سبق الأرواح الأجساد سبقاً مستقراً ثابتا، وغايتها أن تدل على أن بارئها وفاطرها سبحانه صور النسمة وقدر خلقها وأجلها وعملها، واستخرج تلك الصور من مادتها، ثم أعادها إليها، وقدر خروج كل فرد من أفرادها فى وقته المقدر له، ولايدل على أنها خلقت خلقاً مستقراً واستمرت موجودة ناطقة كلها فى موضع واحد ثم يرسل منها إلى الأبدان جملة بعد جملة، كما قال ابن حزم . فهذا لا تدل الآثار عليه . نعم الرب سبحانه يخلق منها جملة بعد جملة، على الوجه الذى سبق به التقدير أولاً، فيجئ الخلق الخارجى مطابقاً للتقدير السابق، كشأنه سبحانه فى جميع مخلوقاته، فإنه قدر لها أقداراً وآجالاً، وصفات وهيآت، ثم أبرزها إلى الوجود مطابقة لذلك التقدير

---

(١) رواه البخارى [٣٣٣٤]، ومسلم [٢٨٠٥]، وأحمد (٣/١٢٧، ١٢٩)، وابن أبى عاصم فى « السنة » [٩٩] .

السابق.

فالآثار المروية فى ذلك إنما تدل على القدر السابق، وبعضها يدل على أنه سبحانه استخرج أمثالهم وصورهم وميز أهل السعادة من أهل الشقاوة.

وأما الإشهاد عليهم هناك، فإنما هو فى حديثين موقوفين على ابن عباس وابن عمرو ﷺ. ومن ثم قال قائلون من السلف والخلف: إن المراد بهذا الإشهاد إنما هو فطرهم على التوحيد، كما تقدم فى حديث أبى هريرة ﷺ. ومعنى قوله: ﴿شَهِدْنَا﴾: أى قالوا: بلى شهدنا أنك ربنا. وهذا قول ابن عباس وأبى بن كعب. وقال ابن عباس أيضاً: أشهد بعضهم على بعض. وقيل: ﴿شَهِدْنَا﴾ من قول الملائكة، والوقف على قوله ﴿بَلَىٰ﴾ وهذا قول مجاهد والضحاك، والسدي، وقال السدى أيضاً: هو خبر من الله تعالى عن نفسه وملائكته أنهم شهدوا على إقرار بنى آدم. والأول أظهر، وما عداه احتمال لا دليل عليه، وإنما يشهد ظاهر الآية للأول.

واعلم أن من المفسرين من لم يذكر سوى القول بأن الله استخرج ذرية آدم من ظهره وأشهدهم على أنفسهم ثم أعادهم، كالثعلبى والبغوى وغيرهما، ومنهم من لم يذكره، بل ذكر أنه نصب لهم الأدلة على ربوبيته ووحدانيته وشهدت بها عقولهم وبصائرهم التى ركبها الله فيهم، كالزمخشرى وغيره، ومنهم من ذكر القولين كالواحدى والرازى والقرطبى وغيرهم، لكن نسب الرازى القول الأول إلى أهل السنة، والثانى إلى المعتزلة.

ولاريب أن الآية لا تدل على القول الأول، أعنى أن الأخذ كان من ظهر آدم، وإنما فيها أن الأخذ من ظهور بنى آدم، وإنما ذكر الأخذ من ظهر آدم والإشهاد عليهم هناك فى بعض الأحاديث، وفى بعضها الأخذ والقضاء بأن بعضهم إلى الجنة وبعضهم إلى النار كما فى حديث عمر ﷺ، وفى بعضها الأخذ وإراءة آدم إياهم من غير قضاء ولا إشهاد، كما فى حديث أبى هريرة، والذى فيه الإشهاد على الصفة التى قالها أهل القول الأول موقوف على ابن عباس وابن عمرو، وتكلم فيه أهل الحديث، ولم يخرجه أحد من أهل الصحيح غير الحاكم فى «المستدرك على الصحيحين» والحاكم معروف تساهله رحمه الله.

والذى فيه القضاء بأن بعضهم إلى الجنة، وبعضهم إلى النار دليل على مسألة القدر، وذلك شواهده كثيرة، ولا نزاع فيه بين أهل السنة، وإنما يخالف فيه القدرية المبطلون المبتدعون.

وأما الأول: فالنزاع فيه بين أهل السنة من السلف والخلف، ولولا ما التزمته من الاختصار لبسطت الأحاديث الواردة فى ذلك، وما قيل من الكلام عليها، وما ذكر فيها من المعانى المعقولة ودلالة ألفاظ الآية الكريمة.

قال القرطبى: وهذه الآية مشكلة، وقد تكلم العلماء فى تأويلها، فنذكر ما ذكروه من ذلك، حسب ما وقفنا عليه. فقال قوم: معنى الآية: أن الله أخرج من ظهر بنى آدم بعضهم من بعض، ومعنى: ﴿أَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾. دلهم بخلقه على توحيده؛ لأن كل بالغ يعلم ضرورة أن له رباً، واحداً سبحانه وتعالى ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ أى: قال: فقام ذلك مقام الإشهاد عليهم والإقرار منهم، كما قال تعالى

فى السماوات والأرض: ﴿قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: ١١]، ذهب إلى هذا القفال [١] وأطنب.

وقيل: إنه سبحانه وتعالى أخرج الأرواح قبل خلق الأجساد، وأنه جعل فيها من المعرفة ما علمت به ما خاطبها.

ثم ذكر القرطبى بعد ذلك الأحاديث الواردة فى ذلك، إلى آخر كلامه.

وأقوى ما يشهد لصحة القول الأول: حديث أنس المخرج فى «الصحيحين» الذى فيه: «**قد أردت منك ما هو أهون من ذلك، قد أخذت عليك فى ظهر آدم أن لا تشرك بى شيئاً فأبيت إلا أن تشرك بى**» [٢]. ولكن قد روى من طريق أخرى: «**قد سألتك أقل من ذلك وأيسر فلم تفعل، فيرد إلى النار**»، وليس فيه: فى ظهر آدم، وليس فى الرواية الأولى إخراجهم من ظهر آدم على الصفة التى ذكرها أصحاب القول الأول.

بل القول الأول متضمن لأمرين عجيبين:

أحدهما: كون الناس تكلموا حينئذ وأقروا بالإيمان، وأنه بهذا تقوم الحجة عليهم يوم القيامة.

والثانى: أن الآية دلت على ذلك، والآية لا تدل عليه لوجوه:

---

(١) هو الإمام العلامة، الفقيه الأصولى اللغوى، عالم خراسان، أبو بكر محمد بن علىّ بن إسماعيل الشاشى الشافعي، القفال الكبير، إمام وقته، بما وراء النهر، وصاحب التصانيف، والقفال الشاشىّ يتكرر ذكره فى التفسير والأصول والكلام، أما القفال المروزى (الصغير) فيتكرر فى الفقهيات، كما قال النووى - رحمه الله - توفى سنة (٣٦٥ هـ). (السير - ١٦/ ٢٨٣).

(٢) سبق تخريجه (١/ ٢٤٨).

أحدها: أنه قال: ﴿مِن بَنِي آدَمَ﴾ ولم يقل: من آدم.

الثانى: أنه قال: ﴿مِن ظُهُورِهِم﴾، ولم يقل: من ظهره، وهذا بدل بعض، أو بدل اشتمال، وهو أحسن.

الثالث: أنه قال: ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ ولم يقل: ذريته.

الرابع: أنه قال: ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾، ولابد أن يكون الشاهد ذاكرا لما شهد به، وهو إنما يذكر شهادته بعد خروجه إلى هذه الدار - كما تأتى الإشارة إلى ذلك - لا يذكر شهادة قبله.

الخامس: أنه سبحانه أخبر أن حكمة هذا الإشهاد إقامة للحجة عليهم لئلا يقولوا يوم القيامة: ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾، والحجة إنما قامت عليهم بالرسل والفطرة التى فطروا عليها، كما قال تعالى: ﴿رُسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

السادس: تذكيرهم بذلك، لئلا يقولوا يوم القيامة: ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾، ومعلوم أنهم غافلون عن الإخراج لهم من صلب آدم كلهم، وإشهادهم جميعاً ذلك الوقت، فهذا لا يذكره أحد منهم

السابع: قوله تعالى: ﴿أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنْ بَعْدِهِمْ﴾ [الأعراف: ١٧٣]، فذكر حكمتين فى هذا الأخذ والإشهاد: أن لا يدعوا الغفلة، أو يدعوا التقليد، فالغافل لا شعور له، والمقلد متبع فى تقليده لغيره. ولا تترتب هاتان الحكمتان إلا على ما قامت به الحجة من الرسل والفطرة.

الثامن: قوله: ﴿أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٣]، أى لو

عذبهم بجحودهم وشركهم لقالوا ذلك، وهو سبحانه إنما يهلكهم لمخالفة رسله وتكذيبهم، فلو أهلكهم بتقليد آبائهم فى شركهم من غير إقامة الحجة عليهم بالرسل، لأهلكهم بما فعل المبطلون، أو أهلكهم مع غفلتهم عن معرفة بطلان ما كانوا عليه، وقد أخبر سبحانه أنه لم يكن ليهلك القرى بظلم وأهلها غافلون، وإنما يهلكهم بعد الإعذار والإنذار بإرسال الرسل.

التاسع: أنه سبحانه أشهد كل واحد على نفسه أنه ربه وخالقه، واحتج عليه بهذا الإشهاد فى غير موضع من كتابه، كقوله: ﴿ **وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ** ﴾ [لقمان: ٢٥].

فهذه هى الحجة التى أشهدهم على أنفسهم بمضمونها، وذكرتهم بها رسله، بقولهم: ﴿ **أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ** ﴾ [إبراهيم: ١٠].

العاشر: أنه جعل هذا آية وهى الدلالة الواضحة البينة المستلزمة لمدلولها، بحيث لا يتخلف عنها المدلول، وهذا شأن آيات الرب تعالى، فإنها أدلة معينة على مطلوب معين مستلزمة للعلم بها، فقال تعالى: ﴿ **وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ** ﴾ [الأعراف: ١٧٤]، وإنما ذلك بالفطرة التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله، فما من مولود إلا يولد على الفطرة، لا يولد مولود على غير هذه الفطرة، هذا أمر مفروغ منه، لا يتبدل ولا يتغير. وقد تقدمت الإشارة إلى هذا. والله أعلم.

وقد تفطن لهذا ابن عطية [1] وغيره، ولكن هابوا مخالفة ظاهر

---

(١) هو العلامة شيخ المفسرين، أبو محمد عبد الحق بن الحافظ أبى بكر غالب بن عطية المحاربى الغرناطى. كان إماماً فى الفقه والتفسير والعربية، ذكياً فطناً مدركاً، من أوعية =

تلك الأحاديث التى فيها التصريح بأن الله أخرجهم وأشهدهم على أنفسهم ثم أعادهم، وكذلك حكى القولين الشيخ أبو منصور الماتريدى فى «شرح التأويلات» ورجح القول الثانى، وتكلم عليه ومال إليه.

ولا شك أن الإقرار بالربوبية أمر فطرى، والشرك حادث طارىء، والأبناء تقلدوه عن الآباء، فإذا احتجوا يوم القيامة بأن الآباء أشركوا، ونحن جرينا على عاداتهم، كما يجرى الناس على عادة آبائهم فى المطاعم والملابس والمساكن، يقال لهم: أنتم كنتم معترفين بالصانع، مقرين بأن الله ربكم لا شريك له، وقد شهدتم بذلك على أنفسكم، فإن شهادة المرء على نفسه هى إقراره بالشئ ليس إلا، قال الله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ** ﴾ [النساء: ١٣٥]. وليس المراد أن يقول: أشهد على نفسى بكذا، بل من أقر بشئ، فقد شهد على نفسه به، فلم عدلتم عن هذه المعرفة والإقرار الذى شهدتم به على أنفسكم إلى الشرك؟ بل عدلتم عن المعلوم المتيقن إلى ما لا يعلم له حقيقة، تقليدا لمن لاحجة معه، بخلاف اتباعهم فى العادات الدنيوية، فإن تلك لم يكن عندكم ما يعلم به فسادها، وفيه مصلحة لكم، بخلاف الشرك، فإنه كان عندكم من المعرفة والشهادة على أنفسكم ما يبين فساده وعدولكم فيه عن الصواب. فإن الدين

= العلم. له كتاب «المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز» قال فيه شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - فى «مجموع الفتاوى» (٢ / ١٩٤): هو خير من تفسير الزمخشرى، وأصح نقلاً وبحثاً، وأبعد من البدع، وإن اشتمل على بعضها، بل هو خير منه بكثير، بل لعله أرجح هذه التفاسير. اهـ. ولد سنة (٤٨٠ هـ)، وتوفى سنة (٥٤١ هـ). (السير - ١٩ / ٥٨٧).

الذى يأخذه الصبى عن أبويه هو دين التربية والعادة، وهو لأجل مصلحة الدنيا، فإن الطفل لابد له من كافل، وأحق الناس به أبواه؛ ولهذا جاءت الشريعة بأن الطفل مع أبويه على دينهما فى أحكام الدنيا الظاهرة، وهذا الدين لا يعاقبه الله عليه - على الصحيح - حتى يبلغ ويعقل وتقوم عليه الحجة، وحينئذ فعليه أن يتبع دين العلم والعقل، وهو الذى يعلم بعقله هو أنه دين صحيح.

فإن كان آباؤه مهتدين، كيوسف الصديق مع آبائه، قال: ﴿ **وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ** ﴾ [يوسف: ٣٨].، وقال ليعقوب بنوه: ﴿ **نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ** ﴾ [البقرة: ١٣٣]، وإن كان الآباء مخالفين للرسل، كان عليه أن يتبع الرسل، كما قال تعالى: ﴿ **وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا** ﴾ [العنكبوت: ٨] الآية.

فمن اتبع دين آبائه بغير بصيرة وعلم، بل يعدل عن الحق المعلوم إليه، فهذا اتبع هواه، كما قال تعالى: ﴿ **وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ** ﴾ [البقرة: ١٧٠].

وهذه حال كثير من الناس من الذين ولدوا على الإسلام، يتبع أحدهم أباه فيما كان عليه من اعتقاد ومذهب، وإن كان خطأ ليس هو فيه على بصيرة، بل هو من مسلمة الدار لا مسلمة الاختيار، وهذا إذا قيل له فى قبره: من ربك؟ قال: هاه هاه، لاأدرى، سمعت الناس يقولون شيئا فقلته.

فليتأمل اللبيب هذا المحل، ولينصح نفسه، وليقم لله، ولينظر من أى الفريقين هو؟ والله الموفق، فإن توحيد الربوبية لا يحتاج إلى دليل، فإنه مركوز فى الفطر. وأقرب ما ينظر فيه المرء أمر نفسه لما كان نطفة، وقد خرج من بين الصلب والترائب، والترائب: عظام الصدر، ثم صارت تلك النطفة فى قرار مكين، فى ظلمات ثلاث، وانقطع عنها تدبير الأبوين وسائر الخلائق، ولو كانت موضوعة على لوح أو طبق، واجتمع حكماء العالم على أن يصوروا منها شيئاً لم يقدروا.

ومحال توهم عمل الطبائع فيها؛ لأنها موات عاجزة، ولا توصف بحياة، ولن يتأتى من الموت فعل وتدبير، فإذا تفكر فى ذلك، وانتقال هذه النطفة من حال إلى حال، علم بذلك توحيد الربوبية، فانتقل منه إلى توحيد الألوهية، فإنه إذا علم بالعقل أن له رباً أوجده، كيف يليق به أن يعبد غيره؟ وكلما تفكر وتدبر ازداد يقيناً وتوحيداً، والله الموفق لا رب غيره ولا إله سواه.

قوله: «**وقد علم الله تعالى فيما لم يزل عدد من يدخل الجنة، وعدد من يدخل النار، جملة واحدة، فلا يزاد فى ذلك العدد ولا ينقص منه، وكذلك أفعالهم فيما علم منهم أن يفعلوه**».

ش: قال الله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾ [الأنفال: ٧٥]. ﴿**وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً**﴾ [الأحزاب: ٤٠]. فالله تعالى موصوف بأنه بكل شىء عليم أزلا وأبدا، لم يتقدم علمه بالأشياء جهالة: ﴿**وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا**﴾ [مريم: ٦٤].

وعن على بن أبى طالب رضي الله عنه، قال: «كنا فى جنازة فى بقيع

الغرقد، فأتانا رسول الله ﷺ، فقعد وقعدنا حوله، ومعه مخصرة، فنكس رأسه فجعل ينكت بمخصرته، ثم قال: «**ما من نفس منفوسة إلا وقد كتب الله مكانها من الجنة والنار، وإلا قد كتبت شقية أو سعيدة، قال: فقال رجل: يا رسول الله أفلا نمكث على كتابنا وندع العمل؟ فقال: من كان من أهل السعادة فسيصير إلى عمل أهل السعادة، ومن كان من أهل الشقاوة فسيصير إلى عمل أهل الشقاوة. ثم قال: اعملوا فكل ميسر لما خلق له، أما أهل السعادة فييسرون لعمل أهل السعادة، وأما أهل الشقاوة فييسرون لعمل أهل الشقاوة، ثم قرأ ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾** [الليل: ٥-١٠]»[1] . خرجاه في «الصحيحين».

قوله: «**وكل ميسر لما خلق له، والأعمال بالخواتيم، والسعيد من سعد بقضاء الله والشقي من شقي بقضاء الله**».

ش: تقدم حديث علي رضي الله عنه، وقوله ﷺ وفيه: «**اعملوا فكل ميسر لما خلق له**». وعن زهير، عن أبي الزبير، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: جاء سراقة ابن مالك بن جعشم، فقال: يا رسول الله، بين لنا ديننا كأنا خلقنا الآن، فيم العمل اليوم؟ أفيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير، أم فيما يستقبل؟ قال: «**لا، بل فيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير**»، قال: ففيم العمل؟ قال زهير: ثم تكلم أبو الزبير بشيء لم أفهمه،

---

(١) رواه البخاري [١٣٦٢]، ومسلم [٢٦٤٧]، وأبو داود [٤٦٩٤]، والترمذي [٢١٣٦]، والنسائي في «الكبرى» [١١٦٧٨]، وابن ماجه [٧٨]، وأحمد (١/٨٢، ١٢٩).

فسألت: ما قال؟ فقال: «**اعملوا فكل ميسر**» (١) رواه مسلم.

وعن سهل بن سعد الساعدى رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الرجل ليعمل عمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار، وإن الرجل ليعمل عمل أهل النار فيما يبدو للناس وهو من أهل الجنة**» خرجاه فى «الصحيحين» وزاد البخارى: «**وإنما الأعمال بالخواتيم**» (٢).

وفى «الصحيحين» أيضاً عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه، قال: حدثنا رسول الله ﷺ ـ وهو الصادق المصدوق ـ: «**إن أحدكم يجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يوما، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات: يكتب رزقه وأجله وعمله وشقى أم سعيد، فوالذى لا إله غيره، إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها**» (٣) والأحاديث فى هذا الباب كثيرة، وكذلك الآثار عن السلف.

قال أبو عمر بن عبد البر فى «التمهيد»: قد أكثر الناس من تخريج

---

(١) رواه مسلم [٢٦٤٨]، وأحمد (٣/ ٢٩٢، ٢٩٣)، والطيالسى [١٧٣٧]، وابن حبان [إحسان ـ ٣٣٧]، والطبرانى فى «الكبير» [٦٥٦٢].

(٢) رواه البخارى [٢٨٩٨]، ومسلم [١١٢]، وأحمد (٥/ ٣٣١، ٣٣٥)، وعبد بن حميد [٤٥٧]، وأبو عوانة (١/ ٥٠)، وابن حبان [إحسان ـ ٦١٧٥]، والطبرانى فى «الكبير» [٥٨٠٦، ٥٨٢٥]، وأما لفظ: «**وإنما الأعمال بالخواتيم**» فرواه البخارى [٦٤٩٣، ٦٦٠٧]، والطبرانى [٥٧٨٤، ٥٧٩٨].

(٣) رواه البخارى [٣٢٠٨]، ومسلم [٢٦٤٣]، وأبو داود [٤٧٠٨]، والترمذى [١٢٣٧]، والنسائى فى «الكبرى» [١١٢٤٦]، وابن ماجه [٧٦]، وأحمد (١/ ٣٨٢، ٤٣٠).

الآثار فى هذا الباب، وأكثر المتكلمون من الكلام فيه، وأهل السنة مجتمعون على الإيمان بهذه الآثار واعتقادها وترك المجادلة فيها، وبالله العصمة والتوفيق.

قوله: «**وأصل القدر سر الله تعالى فى خلقه، لم يطلع على ذلك ملك مقرب، ولا نبى مرسل، والتعمق والنظر فى ذلك ذريعة الخذلان، وسلم الحرمان، ودرجة الطغيان فالحذر كل الحذر من ذلك نظراً وفكراً ووسوسة، فإن الله تعالى طوى علم القدر عن أنامه، ونهاهم عن مرامه، كما قال تعالى فى كتابه: ﴿لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾** [الأنبياء: ٢٣]. **فمن سأل: لم فعل؟ فقد رد حكم الكتاب، ومن رد حكم الكتاب كان من الكافرين**».

ش: أصل القدر سر الله فى خلقه، وهو كونه أوجد وأفنى، وأفقر وأغنى، وأمات وأحيا، وأضل وهدى. قال على رضى الله عنه: القدر سر الله فلا تكشفه.

والنزاع بين الناس فى مسألة القدر مشهور، والذى عليه أهل السنة والجماعة: أن كل شىء بقضاء الله وقدره، وأن الله تعالى خالق أفعال العباد، قال تعالى: ﴿**إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ**﴾ [القمر: ٤٩]. وقال تعالى: ﴿**وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً**﴾ [الفرقان: ٢]. وأن الله تعالى يريد الكفر من الكافر ويشاؤه، ولا يرضاه ولا يحبه، فيشاؤه كونا، ولا يرضاه ديناً.

وخالف فى ذلك القدرية والمعتزلة وزعموا: أن الله شاء الإيمان من الكافر ولكن الكافر شاء الكفر، فروا إلى هذا لئلا يقولوا: شاء الكفر

من الكافر وعذبه عليه. ولكن صاروا كالمستجير من الرمضاء بالنار. فإنهم هربوا من شيء فوقعوا فيما هو شر منه؛ فإنه يلزم أن مشيئة الكافر غلبت مشيئة الله تعالى، فإن الله قد شاء الإيمان منه - على قولهم - والكافر شاء الكفر، فوقعت مشيئة الكافر دون مشيئة الله تعالى! وهذا من أقبح الاعتقاد، وهو قول لا دليل عليه، بل هو مخالف للدليل.

روى اللالكائي، من حديث بقية، عن الأوزاعي، حدثنا العلاء بن الحجاج، عن محمد بن عبيد المكي، عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رجلا قدم علينا يكذب بالقدر، فقال: دلوني عليه، وهو يومئذ أعمى، فقالوا له: ما تصنع به؟ فقال: والذي نفسي بيده، لئن استمكنت منه لأعضن أنفه حتى أقطعه، ولئن وقعت رقبته بيدي لأدقنها، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«كأني بنساء بني فهم يطفن بالخزرج، تصطك ألياتهن مشركات، - وهذا أول شرك في الإسلام - والذي نفسي بيده لينتهي بهم سوء رأيهم حتى يخرجوا الله من أن يقدر الخير، كما أخرجوه من أن يقدر الشر»** (١).

قوله: «وهذا أول شرك في الإسلام» إلى آخره، من كلام ابن عباس رضي الله عنهما. وهذا يوافق قوله: «القدر نظام التوحيد، فمن وحد الله وكذب

---

(١) **ضعيف**. رواه أحمد (١ / ٣٣٠)، وابن أبي عاصم في «السنة» [٧٩]، واللالكائي في «السنة» [١١١٦]، وابن بطة في «القدر» [١٦٢٥]، من طريق الأوزاعي، عن العلاء ابن الحجاج، عن محمد بن عبيد، عن ابن عباس رضي الله عنهما به.
وإسناده ضعيف، فيه العلاء بن الحجاج، وهو ضعيف كما في «الميزان» (٣ / ٩٨)، و«تعجيل المنفعة» (ص: ٢١٢)، وفيه أيضاً محمد بن عبيد المكي وهو ضعيف كما في «التقريب».

بالقدر نقض تكذيبه توحيده» [١].

وروى عمر بن الهيثم قال: خرجنا فى سفينة وصحبنا فيها قدرى ومجوسى، فقال القدرى للمجوسى: أسلم، قال المجوسى: حتى يريد الله فقال القدرى: إن الله يريد ولكن الشيطان لا يريد. قال المجوسى: أراد الله وأراد الشيطان، فكان ما أراد الشيطان. هذا شيطان قوى وفى رواية أنه قال: فأنا مع أقواهما.

ووقف أعرابى على حلقة فيها عمرو بن عبيد [٢]، فقال: يا هؤلاء إن ناقتى سرقت فادعوا الله أن يردها على، فقال عمرو بن عبيد: اللهم إنك لم ترد أن تسرق ناقته فسرقت، فارددها عليه، فقال الأعرابى: لا حاجة لى فى دعائك. قال: ولم؟ قال: أخاف كما أراد أن لا تسرق فسرقت ـ أن يريد ردها فلا ترد!!.

---

(١) **ضعيف**. رواه عبد الله بن أحمد فى «السنة» [٩٢٥]، واللالكائى فى «السنة» [١١١٢]، من طريق الثورى، عن عمر بن محمد بن زيد، عن رجل، عن ابن عباس رضي الله عنهما موقوفاً به.
وإسناده ضعيف لجهالة الرجل المبهم ورواه ابن بطة فى «القدر» [١٦١٨]، من طريق عمر بن محمد بن زيد، عن إسماعيل بن رافع شيخ من أهل المدينة، عن ابن عباس رضي الله عنهما به. وإسناده ضعيف منقطع، فيه إسماعيل بن رافع، وهو ضعيف كما فى «التقريب»، ولم يسمع من ابن عباس، وهو من أقران عمر بن محمد، وكانت وفاته فى حدود مائة وعشرين كما فى «تهذيب التهذيب».
ورواه الطبرانى فى «الأوسط» [٣٥٧٣]، من طريق هانئ بن المتوكل عن أبى ربيعة سليمان بن ربيعة، عن أبى حازم، عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعا بنحوه. وإسناده ضعيف، فيه هانئ بن المتوكل، وهو ضعيف كما قال ابن حبان فى «المجروحين» (٣/ ٩٧)، وضعفه الهيثمى فى «المجمع» (٧/ ١٩٧).

(٢) هو الزاهد، العابد، القدرىّ، كبير المعتزلة، أبو عثمان البصرىّ، كانت له جرأة وافتراء، فإنه قال عن ابن عمر، هو حشوى. توفى سنة (١٤٢ هـ)، أو (١٤٣ هـ). «السير ـ شذرات الذهب».

وقال رجل لأبى عصام القسطلانى: أرأيت إن منعنى الهدى وأوردنى الضلال ثم عذبنى، أيكون منصفاً؟ فقال له أبو عصام: إن يكن الهدى شيئا هو له فله أن يعطيه من يشاء ويمنعه من يشاء.

وأما الأدلة من الكتاب والسنة. فقد قال تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣]. وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩]. وقال تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٩]. وقال تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان: ٣٠]. وقال تعالى: ﴿وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ٣٩]. وقال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

ومنشأ الضلال: من التسوية بين: المشيئة والإرادة، وبين: المحبة والرضا فسوى بينهما الجبرية والقدرية، ثم اختلفوا، فقالت الجبرية: الكون كله بقضائه وقدره، فيكون محبوباً مرضياً. وقالت القدرية النفاة: ليست المعاصى محبوبة لله ولا مرضية له، فليست مقدرة ولا مقضية، فهى خارجة عن مشيئته وخلقه.

وقد دل على الفرق بين المشيئة، والمحبة. الكتاب والسنة والفطرة الصحيحة.

أما نصوص المشيئة والإرادة من الكتاب، فقد تقدم ذكر بعضها.

وأما نصوص المحبة والرضا. فقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾

[البقرة: ٢٠٥]. ﴿ **وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ** ﴾ [الزمر: ٧]. وقال تعالى عقيب ما نهى عنه من الشرك والظلم والفواحش والكبر: ﴿ **كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا** ﴾ [الإسراء: ٣٨].

وفي «الصحيح» عن النبي ﷺ: «**إن الله كره لكم ثلاثاً: قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال**» [١].

وفي المسند: «**إن الله يحب أن يؤخذ برخصه، كما يكره أن تؤتى معصيته**» [٢].

وكان من دعائه ﷺ: «**اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك وأعوذ بمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك**» [٣].

فتأمل ذكر استعاذته بصفة الرضى من صفة السخط، وبفعل المعافاة من فعل العقوبة. فالأول: للصفة، والثاني: أثرها المرتب عليها، ثم ربط

---

(١) رواه البخاري [١٤٧٧]، ومسلم [١٧١٥]، وأحمد (٤/٢٤٦، ٢٤٩)، وعبد بن حميد [٣٩١]، والدارمي [٢٧٥٤]، وابن خزيمة [٧٤٢]، والطحاوي في «شرح المشكل» [٣١٩٧]، من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه.

(٢) **صحيح**. رواه أحمد (٢/١٠٨) عن قتيبة، وعلي بن المديني كلاهما عن عبد العزيز ابن محمد، عن عمارة بن غزية عن نافع، عن ابن عمر رضي الله عنهما به.
وإسناده صحيح رجاله رجال مسلم، ورواه أحمد (٢/١٠٨)، وابن حبان [٢٧٤٢]، والبيهقي (٣/١٤٠)، والبزار [كشف الأستار - ٩٨٨]، من طريق عبد العزيز بن محمد، عن عمارة بن غزية، عن حرب بن قيس، عن نافع، عن ابن عمر رضي الله عنهما به.
وحرب بن قيس وثقه ابن حبان، وقال الذهبي في «المهذب» (٣/١١٩): حرب لم يضعف ولا خرج له في الستة. اهـ. قال الهيثمي في «المجمع» (٣/١٦٢)، رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح، ورواه البزار والطبراني في «الأوسط»، وإسناده حسن. اهـ.
وفي الباب من حديث ابن عباس، وابن مسعود، وأنس، وعائشة رضي الله عنهم

(٣) سبق تخريجه (١/٨٢).

ذلك كله بذاته سبحانه، وأن ذلك كله راجع إليه وحده لا إلى غيره، فما أعوذ منه واقع بمشيئتك وإرادتك، وما أعوذ به من رضاك ومعافاتك هو بمشيئتك وإرادتك، إن شئت أن ترضى عن عبدك وتعافيه، وإن شئت أن تغضب عليه وتعاقبه، فإعاذتى مما أكره ومنعه أن يحل بى، هى بمشيئتك أيضاً، فالمحبوب والمكروه كله بقضائك ومشيئتك، فعياذى بك منك، وعياذى بحولك وقوتك ورحمتك مما يكون بحولك وقوتك وعدلك وحكمتك، فلا أستعيذ بغيرك من غيرك ولا أستعيذ بك من شيء صادر عن غير مشيئتك، بل هو منك. فلا يعلم ما فى هذه الكلمات من التوحيد والمعارف والعبودية، إلا الراسخون فى العلم بالله ومعرفته ومعرفة عبوديته.

فإن قيل: كيف يريد الله أمراً ولا يرضاه ولا يحبه؟ وكيف يشاؤه ويكونه؟ وكيف يجمع إرادته له وبغضه وكراهته؟

قيل: هذا السؤال هو الذى افترق الناس لأجله فرقا وتباينت طرقهم وأقوالهم.

فاعلم أن المراد نوعان: مراد لنفسه ومراد لغيره. فالمراد لنفسه، مطلوب محبوب لذاته وما فيه من الخير، فهو مراد إرادة الغايات والمقاصد.

والمراد لغيره، قد لا يكون مقصوداً للمريد، ولا فيه مصلحة له بالنظر إلى ذاته، وإن كان وسيلة إلى مقصوده ومراده، فهو مكروه له من حيث نفسه وذاته، مراد له من حيث إفضائه وإيصاله إلى مراده. فيجتمع فيه الأمران: بغضه وإرادته، ولا يتنافيان، لاختلاف متعلقهما،

وهذا كالدواء الكريه، إذا علم المتناول له أن فيه شفاءه، وقطع العضو المتآكل، إذا علم أن فى قطعة بقاء جسده، وكقطع المسافة الشاقة، إذا علم أنها توصل إلى مراده ومحبوبه. بل العاقل يكتفى فى إيثار هذا المكروه وإرادته بالظن الغالب، وإن خفيت عنه عاقبته، فكيف بمن لا يخفى عليه خافية.

فهو سبحانه يكره الشيء، ولا ينافى ذلك إرادته لأجل غيره، وكونه سبباً إلى أمر هو أحب إليه من فوته.

من ذلك: أنه خلق إبليس، الذى هو مادة لفساد الأديان والأعمال والاعتقادات والإرادات، وهو سبب لشقاوة كثير من العباد وعملهم بما يغضب الرب سبحانه تبارك وتعالى وهو الساعى فى وقوع خلاف ما يحبه الله ويرضاه. ومع هذا فهو وسيلة إلى محاب كثيرة للرب تعالى تَرَتَّبَتْ على خلقه، ووجودها أحب إليه من عدمها.

منها: أنه تظهر للعباد قدرة الرب تعالى على خلق المتضادات المتقابلات، فخلق هذه الذات، التى هى أخبث الذوات وشرها، وهى سبب كل شر فى مقابلة ذات جبريل التى هى من أشرف الذوات وأطهرها وأزكاها، وهى مادة كل خير، فتبارك خالق هذا وهذا، كما ظهرت قدرته فى خلق الليل والنهار، والدواء والداء، والحياة والموت، والحسن والقبيح، والخير والشر وذلك من أدل دليل على كمال قدرته وعزته وملكه وسلطانه، فإنه خلق هذه المتضادات، وقابل بعضها ببعض، وجعلها محال تصرفه وتدبيره، فخلو الوجود عن بعضها بالكلية تعطيل لحكمته وكمال تصرفه وتدبير مملكته.

ومنها: ظهور آثار أسمائه القهرية؛ مثل: القهار، والمنتقم، والعدل، والضار، والشديد العقاب، والسريع الحساب، وذى البطش الشديد، والخافض، والمذل، فإن هذه الأسماء والأفعال كمال لابد من وجود متعلقها، ولو كان الجن والإنس على طبيعة الملائكة لم يظهر أثر هذه الأسماء.

ومنها: ظهور آثار أسمائه المتضمنة لحلمه وعفوه ومغفرته وستره، وتجاوزه عن حقه، وعتقه لمن شاء من عبيده، فلولا خلق ما يكرهه من الأسباب المفضية إلى ظهور آثار هذه الأسماء، لتعطلت هذه الحكم والفوائد. وقد أشار النبى ﷺ إلى هذا بقوله: «**لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون ويستغفرون فيغفر لهم**» (١).

ومنها: ظهور آثار أسماء الحكمة والخبرة، فإنه الحكيم الخبير الذى يضع الأشياء مواضعها، وينزلها منازلها اللائقة بها، فلا يضع الشىء فى غير موضعه، ولا ينزله فى غير منزلته التى يقتضيها كمال علمه وحكمته وخبرته، فهو أعلم حيث يجعل رسالاته، وأعلم بمن يصلح لقبولها، ويشكره على انتهائها إليه، وأعلم بمن لا يصلح لذلك. فلو قدر عدم الأسباب المكروهة، لتعطلت حكم كثيرة، ولفاتت مصالح عديدة، ولو عطلت تلك الأسباب لما فيها من الشر لتعطل الخير الذى هو أعظم من الشر الذى فى تلك الأسباب، وهذا كالشمس والمطر

---

(١) رواه مسلم [٢٧٤٩]، والترمذى [٢٥٢٦]، وأحمد (٢/٣٠٩)، والطيالسى [٢٥٨٣]، وابن حبان [إحسان - ٧٣٨٧]، من حديث أبى هريرة رضي الله عنه.
ورواه مسلم [٢٧٤٨]، والترمذى [٣٥٣٩]، وأحمد (٥/٤١٤)، من حديث أبى أيوب رضي الله عنه.

والرياح التى فيها من المصالح ما هو أضعاف أضعاف ما يحصل بها من الشر.

ومنها: حصول العبودية المتنوعة التى لولا خلق إبليس لما حصلت، فإن عبودية الجهاد من أحب أنواع العبودية إليه سبحانه وتعالى ولو كان الناس كلهم مؤمنين لتعطلت هذه العبودية وتوابعها من الموالاة لله سبحانه وتعالى والمعاداة فيه وعبودية الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وعبودية الصبر ومخالفة الهوى وإيثار محاب الله تعالى، وعبودية التوبة والاستغفار، وعبودية الاستعاذة بالله أن يجيره من عدوه، ويعصمه من كيده وأذاه إلى غير ذلك من الحكم التى تعجز العقول عن إدراكها.

فإن قيل: فهل كان يمكن وجود تلك الحكم بدون هذه الأسباب؟ فهذا سؤال فاسد! وهو فرض وجود الملزوم بدون لازمه، كفرض وجود الابن بدون الأب، والحركة بدون المتحرك، والتوبة بدون التائب.

فإن قيل: فإذا كانت هذه الأسباب مرادة لما تفضى إليه من الحكم، فهل تكون مرضية محبوبة من هذا الوجه، أم هى مسخوطة من جميع الوجوه؟.

قيل: هذا السؤال يرد على وجهين:

أحدهما: من جهة الرب تعالى، وهل يكون محبا لها من جهة إفضائها إلى محبوبه، وإن كان يبغضها لذاتها؟

والثانى: من جهة العبد وهو أنه هل يسوغ له الرضا بها من تلك الجهة أيضاً؟ فهذا سؤال له شأن.

فاعلم أن الشر كله يرجع إلى العدم، أعنى عدم الخير، وأسبابه

المفضية إليه، وهو من هذه الجهة شر، وأما من جهة وجوده المحض، فلا شر فيه. مثاله: أن النفوس الشريرة وجودها خير من حيث هى موجودة، وإنما حصل لها الشر بقطع مادة الخير عنها، فإنها خلقت فى الأصل متحركة، فإن أعينت بالعلم وإلهام الخير تحركت به، وإن تركت تحركت بطبعها إلى خلافه، وحركتها من حيث هى حركة: خير، وإنما تكون شراً بالإضافة لا من حيث هى حركة، والشر كله ظلم وهو وضع الشيء فى غير محله، فلو وضع فى موضعه لم يكن شراً، فعلم أن جهة الشر فيه نسبية إضافية.

ولهذا كانت العقوبات الموضوعة فى محالها خيراً فى نفسها، وإن كانت شراً بالنسبة إلى المحل الذى حلت به، لما أحدثت فيه من الألم الذى كانت الطبيعة قابلة لضده من اللذة مستعدة له، فصار ذلك الألم شراً بالنسبة إليها، وهو خير بالنسبة إلى الفاعل حيث وضعه فى موضعه، فإنه سبحانه لم يخلق شراً محضاً من جميع الوجوه والاعتبارات، فإن حكمته تأبى ذلك، فلا يمكن فى جناب الحق تعالى أن يريد شيئا يكون فساداً من كل وجه، لا مصلحة فى خلقه بوجه ما هذا من أبين المحال، فإنه سبحانه الخير كله بيديه، والشر ليس إليه، بل كل ما إليه فخير، والشر إنما حصل لعدم هذه الإضافة والنسبة إليه، فلو كان إليه لم يكن شراً فتأمله فانقطاع نسبته إليه هو الذى صيره شراً.

فإن قيل: لم تنقطع نسبته إليه خلقا ومشيئة؟

قيل: هو من هذه الجهة ليس بشر، فإن وجوده هو المنسوب إليه، وهو من هذه الجهة ليس بشر، والشر الذى فيه من عدم إمداده بالخير وأسبابه، والعدم ليس بشىء، حتى ينسب إلى من بيده الخير.

فإن أردت مزيد إيضاح لذلك، فاعلم أن أسباب الخير ثلاثة: الإيجاد، والإعداد، والإمداد. فإيجاد هذا خير، وهو إلى الله، وكذلك إعداده وإمداده. فإذا لم يحدث فيه إعداد ولا إمداد حصل فيه الشر بسبب هذا العدم الذى ليس إلى الفاعل، وإنما إليه ضده.

فإن قيل: هلا أمده إذ أوجده؟.

قيل: ما اقتضت الحكمة إيجاده وإمداده، وإنما اقتضت إيجاده وترك إمداده، فإيجاده خير، والشر وقع من عدم إمداده.

فإن قيل: فهلا أمد الموجودات كلها؟.

فهذا سؤال فاسد، يظن مورده أن التسوية بين الموجودات أبلغ فى الحكمة. وهذا عين الجهل. بل الحكمة كل الحكمة فى هذا التفاوت العظيم الذى بين الأشياء، وليس فى خلق كل نوع منها تفاوت، فكل نوع منها ليس فى خلقه تفاوت، والتفاوت إنما وقع لأمور عدمية لم يتعلق بها الخلق، وإلا فليس فى الخلق من تفاوت. فإن اعتاص عليك هذا ولم تفهمه حق الفهم، فراجع قول القائل:

إذا لم تستطع شيئاً فدعه   وجاوزه إلى ما تستطيع

فإن قيل: كيف يرضا لعبده شيئا ولا يعينه عليه؟

قيل: لأن إعانته عليه قد تستلزم فوات محبوب له أعظم من حصول تلك الطاعة التى رضيها له، وقد يكون وقوع تلك الطاعة منه يتضمن مفسدة هى أكره إليه سبحانه من محبته لتلك الطاعة. وقد أشار تعالى إلى ذلك فى قوله: ﴿**وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ**﴾ [التوبة: ٤٦ - ٤٧] الآيتين. فأخبر سبحانه أنه كره

انبعاثهم إلى الغزو مع رسوله، وهو طاعة، فلما كرهه منهم ثبطهم عنه، ثم ذكر سبحانه بعض المفاسد التى كانت تترتب على خروجهم مع رسوله، فقال: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً﴾ [التوبة: ٤٧]، أى: فساداً وشراً، ﴿وَلأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ﴾ [التوبة: ٤٧]، أى: سعوا بينكم بالفساد والشر ﴿يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٧]، أى: قابلون منهم مستجيبون لهم، فيتولد من سعى هؤلاء وقبول هؤلاء من الشر ما هو أعظم من مصلحة خروجهم، فاقتضت الحكمة والرحمة أن أقعدهم عنه.

فاجعل هذا المثال أصلاً، وقس عليه.

وأما الوجه الثانى، وهو الذى من جهة العبد: فهو أيضاً ممكن، بل واقع. فإن العبد يسخط الفسوق والمعاصى ويكرهها، من حيث هى فعل العبد واقعة بكسبه وإرادته واختياره، ويرضى بعلم الله وكتابته ومشيئته وإرادته وأمره الكونى، فيرضى بما من الله، ويسخط ما هو منه. فهذا مسلك طائفة من أهل العرفان، وطائفة أخرى كرهتها مطلقاً، وقولهم يرجع إلى هذا القول لأن إطلاقهم للكراهة لا يريدون به شموله لعلم الرب وكتابته ومشيئته.

وسر المسألة: أن الذى إلى الرب منها غير مكروه، والذى إلى العبد مكروه.

فإن قيل: ليس إلى العبد شىء منها.

قيل: هذا هو الجبر الباطل الذى لا يمكن صاحبه التخلص من هذا المقام الضيق، والقدرى المنكر أقرب إلى التخلص منه من الجبرى. وأهل

السنة، المتوسطون بين القدرية والجبرية أسعد بالتخلص من الفريقين.

فإن قيل: كيف يتأتى الندم والتوبة مع شهود الحكمة فى التقدير، ومع شهود القيومية والمشيئة النافذة؟

قيل: هذا هو الذى أوقع من عميت بصيرته فى شهود الأمر على غير ما هو عليه، فرأى تلك الأعمال طاعات، لموافقته فيها المشيئة والقدر. وقال: إن عصيت أمره فقد أطعت إرادته وفى ذلك قيل:

أصبحت منفعلاً لما يختاره   منى، ففعلى كله طاعات

وهؤلاء أعمى الخلق بصائر وأجهلهم بالله وأحكامه الدينية والكونية، فإن الطاعة هى موافقة الأمر الدينى الشرعى، لا موافقة القدر والمشيئة، ولو كان موافقة القدر طاعة لكان إبليس من أعظم المطيعين له، ولكان قوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وقوم فرعون ـ كلهم مطيعين. وهذا غاية الجهل.

لكن إذا شهد العبد عجز نفسه، ونفوذ الأقدار فيه، وكمال فقره إلى ربه، وعدم استغنائه عن عصمته وحفظه طرفة عين: كان بالله فى هذه الحال لا بنفسه، فوقوع الذنب منه لا يتأتى فى هذه الحال البتة، فإن عليه حصناً حصيناً، فبى يسمع، وبى يبصر، وبى يبطش، وبى يمشى، فلا يتصور منه الذنب فى هذه الحال، فإذا حجب عن هذا المشهد وبقى بنفسه استولى عليه حكم النفس، فهنالك نصبت عليه الشباك والأشراك، وأرسلت عليه الصيادون، فإذا انقشع عنه ضباب ذلك الوجود الطبعى، فهنالك يحضره الندم والتوبة والإنابة، فإنه كان فى المعصية محجوباً بنفسه عن ربه، فلما فارق ذلك الوجود صار فى

وجود آخر، فبقى بربه لا بنفسه.

فإن قيل: إذا كان الكفر بقضاء الله وقدره، ونحن مأمورون أن نرضى بقضاء الله فكيف ننكره ونكرهه؟

فالجواب: أن يقال أولاً: نحن غير مأمورين بالرضى بكل ما يقضيه الله ويقدره، ولم يرد بذلك كتاب ولا سنة، بل من المقضى ما يرضى به، ومنه ما يسخط ويمقت، كما لا يرضى به القاضى لأقضيته سبحانه، بل من القضاء ما يسخط، كما أن من الأعيان المقضية ما يغضب عليه ويمقت ويلعن ويذم.

ويقال ثانيا: هنا أمران: قضاء الله، وهو فعل قائم بذات الله تعالى. ومقضى: وهو المفعول المنفصل عنه. فالقضاء كله خير وعدل وحكمة، فيرضى به كله، والمقضى قسمان: منه ما يرضى به، ومنه مالا يرضى به.

و يقال ثالثاً: القضاء له وجهان: أحدهما: تعلقه بالرب تعالى ونسبته إليه، فمن هذا الوجه يرضى به. والوجه الثانى: تعلقه بالعبد ونسبته إليه، فمن هذا الوجه ينقسم إلى ما يرضى به وإلى ما لا يرضى به. مثال ذلك: قتل النفس، له اعتباران: فمن حيث قدره الله وقضاه وكتبه وشاءه وجعله أجلاً للمقتول ونهاية لعمره نرضى به، ومن حيث صدر من القاتل وباشره وكسبه وأقدم عليه باختياره وعصى الله بفعله نسخطه ولا نرضى به.

قوله: «والتعمق والنظر فى ذلك ذريعة الخذلان». إلى آخره.

التعمق: هو المبالغة فى طلب الشىء، والمعنى: أن المبالغة فى طلب

القدر والغوص فى الكلام فيه ذريعة الخذلان. والذريعة: الوسيلة، والذريعة والدرجة والسلم - متقارب المعنى، وكذلك الخذلان والحرمان والطغيان متقارب المعنى أيضا. لكن الخذلان فى مقابلة النصر، والحرمان فى مقابلة الظفر، والطغيان فى مقابلة الاستقامة.

وقوله: «فالحذر كل الحذر من ذلك نظرا وفكرا ووسوسة».

عن أبى هريرة ﷺ، قال: جاء ناس من أصحاب النبى ﷺ إلى رسول الله ﷺ، فسألوه: إنا نجد فى أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به؟ قال: «**و قد وجدتموه؟**» قالوا: نعم، قال: «**ذاك صريح الإيمان**»[1] رواه مسلم.

الإشارة بقوله: «ذاك صريح الإيمان» إلى تعاظمهم أن يتكلموا به.

ولمسلم أيضاً عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: سئل رسول الله ﷺ عن الوسوسة؟ فقال: «**تلك محض الإيمان**»[2].

وهو بمعنى حديث أبى هريرة، فإن وسوسة النفس أو مدافعة وسواسها بمنزلة المحادثة الكائنة بين اثنين فمدافعة الوسوسة الشيطانية واستعظامها صريح الإيمان ومحض الإيمان.

هذه طريقة الصحابة ﷺ والتابعين لهم بإحسان ثم خلف من بعدهم خلف، سودوا الأوراق بتلك الوساوس، التى هى شكوك وشبه،

---

(١) رواه مسلم [١٣٢]، وأبو داود [٥١١١]، والنسائى فى «الكبرى» [١٠٥٠٠]، وأحمد (٢/٣٩٧، ٤٤١)، والطيالسى [٢٤٠١]، وابن حبان [إحسان - ١٤٨].

(٢) رواه مسلم [١٣٣]، وأبو عوانة (١/٧٩)، والطحاوى فى «شرح المشكل» [١٦٣٧]، وابن حبان [إحسان - ١٤٩]، والطبرانى فى «الكبير» [١٠٠٢٤].

بل وسودوا القلوب، وجادلوا بالباطل؛ ليدحضوا به الحق؛ ولذلك أطنب الشيخ - رحمه الله - في ذم الخوض في الكلام في القدر والفحص عنه.

وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «**إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم**»[1].

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا داود بن أبي هند، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، قال: خرج رسول الله ﷺ ذات يوم والناس يتكلمون في القدر، قال: فكأنما تفقأ في وجهه حب الرمان من الغضب، قال: فقال: «**ما لكم تضربون كتاب الله بعضه ببعض؟ بهذا هلك من كان قبلكم**» قال: فما غبطت نفسي بمجلس فيه رسول الله ﷺ لم أشهده، بما غبطت نفسي بذلك المجلس، أني لم أشهده[2]. ورواه ابن ماجة أيضا.

وقال تعالى: ﴿**فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا**﴾ [التوبة: ٦٩]، الخلاق: النصيب، قال تعالى: ﴿**وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ**﴾ [البقرة: ٢٠٠]، أي: استمتعتم بنصيبكم كما استمتع الذين من قبلكم بنصيبهم وخضتم كالذي خاضوا، أي: كالخوض الذي خاضوه، أو كالفوج أو الصنف أو الجيل الذي خاضوا.

وجمع سبحانه بين الاستمتاع بالخلاق وبين الخوض، لأن فساد

---

(١) سبق تخريجه (١/١٩١).

(٢) إحدى طرق حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده والذي سبق تخريجه (١/١٨٧).

الدين إما فى العمل، وإما فى الاعتقاد، فالأول من جهة الشهوات، والثانى من جهة الشبهات، وروى البخارى عن أبى هريرة ﷺ، أن النبى ﷺ قال: «**لتأخذن أمتى مأخذ القرون قبلها شبراً بشبر، وذراعاً بذراع**»، قالوا: فارس والروم؟ قال: «**فمن الناس إلا أولئك**» [(١)].

وعن عبد الله بن عمرو ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**ليأتين على أمتى ما أتى على بنى إسرائيل حذو النعل بالنعل، حتى إن كان منهم من أتى أمه علانية كان من أمتى من يصنع ذلك، وإن بنى إسرائيل تفرقوا على ثنتين وسبعين ملة وتفترق أمتى على ثلاث وسبعين ملة، كلهم فى النار إلا ملة واحدة**» قالوا: من هى يا رسول الله؟ قال: «**ما أنا عليه وأصحابى**» [(٢)] رواه الترمذى.

---

(١) رواه البخارى [٧٣١٩]، وأحمد (٢/٣٢٥، ٣٦٧)، والآجرى فى «الشريعة» [٢٤]، من حديث أبى هريرة ﷺ مرفوعاً بلفظ: «**لا تقوم الساعة حتى تأخذ أمتى بأخذ القرون قبلها**» ـ الحديث.

وفى الباب من حديث أبى سعيد، وابن عمرو، وأبى واقد، وشداد، وسهل، وغيرهم ﷺ.

(٢) **حسن**. رواه الترمذى [٢٦٤١]، والحاكم (١/١٢٨ ـ ١٢٩)، والآجرى فى «الشريعة» [٢٣، ٢٤]، واللالكائى فى «السنة» [١٤٧]، من طريق عبد الرحمن بن زياد بن أنعم الإفريقى، عن عبد الله بن يزيد، عن عبد الله بن عمرو ﷺ به.

وإسناده ضعيف، فيه عبد الرحمن بن زياد، وهو ضعيف فى حفظه، قال الترمذى (طبعة الهند): هذا حديث حسن غريب مفسر. اهـ. وله شواهد تقويه منها حديث معاوية ﷺ الآتى، ومنها حديث ابن عباس ﷺ مرفوعاً بلفظ: «**لتركبن سنن من كان قبلكم شبراً بشبر، وذراعاً بذراع، وباعاً بباع، حتى لو أن أحدكم دخل جحر ضب دخلتم، وحتى لو أن أحدهم ضاجع أمه بالطريق لفعلتم**» رواه الحاكم (٤/٤٥٥)، وصححه ووافقه الذهبى، ومنها: حديث أنس ﷺ، رواه ابن أبى عاصم فى «السنة» [٦٤]، عن هشام بن عمار، عن الوليد بن مسلم، ثنا الأوزاعى، عن قتادة، عن أنس ﷺ بنحوه. ورجاله ثقات، غير هشام بن عمار فإنه صدوق مقرئ كبر فصار يتلقن روى له البخارى فى المتابعات.

وعن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**تفرقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة أو اثنتين وسبعين فرقة، والنصارى مثل ذلك، وتفترق أمتى على ثلاث وسبعين فرقة**» [1] رواه أبو داود وابن ماجة والترمذى، وقال: حديث حسن صحيح.

وعن معاوية بن أبى سفيان رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن أهل الكتابين افترقوا فى دينهم على ثنتين وسبعين ملة، وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين ملة**» [2]. يعنى الأهواء - «**كلها فى النار إلا واحدة وهى الجماعة**».

وأكبر المسائل التى وقع فيها الخلاف بين الأمة: مسألة القدر، وقد اتسع الكلام فيها غاية الاتساع.

وقوله: «فمن سأل: لم فعل؟ فقد رد حكم الكتاب، ومن رد حكم الكتاب كان من الكافرين».

---

(١) **صحيح**. رواه أبو داود [٤٥٩٦]، والترمذى [٢٦٤٠]، وابن ماجه [٣٩٩١]، وأحمد (٢ / ٣٣٢)، وابن حبان [٦٢٤٧]، والحاكم (١ / ١٢٨)، من طريق محمد بن عمرو بن علقمة، عن أبى سلمة، عن أبى هريرة رضي الله عنه به ورجاله ثقات سوي محمد بن عمرو بن علقمة فإنه صدوق له أوهام روى له البخارى مقروناً بغيره وروى له مسلم فى المتابعات. قال الترمذى: هذا حديث حسن صحيح، وصححه الحاكم على شرط مسلم ووافقه الذهبى، وصححه ابن تيمية فى «مجموع الفتاوى» (٣ / ٣٤٥).
والحديث له شواهد منها حديث معاوية رضي الله عنه الآتى.

(٢) **صحيح**. رواه أبو داود [٤٥٩٧]، وأحمد (٤ / ١٠٢)، والدارمى [٢٥٢١]، وابن أبى عاصم فى «السنة» [٢، ٦٥]، والآجرى فى «الشريعة» [٣١]، والحاكم (١ / ١٢٨)، من طريق أزهر بن عبد الله، عن أبى عامر عبد الله بن لحى، عن معاوية رضي الله عنه به.
ورجاله ثقات، غير أزهر بن عبد الله فإنه صدوق كما فى «التقريب»، ووثقه ابن حبان والعجلى. والحديث صححه الحاكم ووافقه الذهبى، وصححه الشاطبى فى «الاعتصام» (٢ / ١٨٩ - ١٩٠)، وقال العراقى فى «تخريج الإحياء» (الإتحاف - ٩ / ٦٥٨): أسانيده جياد.

اعلم أن مبنى العبودية والإيمان بالله وكتبه ورسله، على التسليم وعدم الأسئلة عن تفاصيل الحكمة فى الأوامر والنواهى والشرائع؛ ولهذا لم يحك الله سبحانه وتعالى عن أمة نبى صدقت بنبيها وآمنت بما جاء به، أنها سألته عن تفاصيل الحكمة فيما أمرها به ونهاها عنه وبلغها عن ربها، ولو فعلت ذلك لما كانت مؤمنة بنبيها، بل انقادت وسلمت وأذعنت، وما عرفت من الحكمة عرفته، وما خفى عنها لم تتوقف فى انقيادها وتسليمها على معرفته، ولا جعلت ذلك من شأنها، وكان رسولها أعظم عندها من أن تسأله عن ذلك، كما فى الإنجيل: «يا بنى إسرائيل لا تقولوا: لم أمر ربنا؟ ولكن قولوا: بم أمر ربنا؟» ولهذا كان سلف هذه الأمة، التى هى أكمل الأمم عقولا ومعارفاً وعلوما لا تسأل نبيها: لم أمر الله بكذا؟ ولم نهى عن كذا؟ ولم قدر كذا؟ ولم فعل كذا؟ لعلمهم أن ذلك مضاد للإيمان والاستسلام، وأن قدم الإسلام لا تثبت إلا على درجة التسليم.

فأول مراتب تعظيم الأمر التصديق به، ثم العزم الجازم على امتثاله، ثم المسارعة إليه والمبادرة به، والحذر عن القواطع والموانع، ثم بذل الجهد والنصح فى الإتيان به على أكمل الوجوه، ثم فعله لكونه مأموراً به، بحيث لا يتوقف الإتيان به على معرفة حكمته فإن ظهرت له فعله وإلا عطله، فإن هذا ينافى الانقياد، ويقدح فى الامتثال.

قال القرطبى ناقلاً عن ابن عبد البر: فمن سأل مستفهماً راغباً فى العلم ونفى الجهل عن نفسه، باحثاً عن معنى يجب الوقوف فى الديانة عليه: فلا بأس به، فشفاَء العى السؤال. ومن سأل متعنتاً غير متفقه ولا متعلم، فهو الذى لا يحل قليل سؤاله ولا كثيره.

قال ابن العربى: الذى ينبغى للعالم أن يشتغل به هو بسط الأدلة، وإيضاح سبل النظر، وتحصيل مقدمات الاجتهاد، وإعداد الآلة المعينة على الاستمداد، قال: فإذا عرضت نازلة، أتيت من بابها، ونشدت من مظانها، والله يفتح وجه الصواب فيها. انتهى.

وقال ﷺ: «**من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه**»[1] رواه الترمذى وغيره.

ولا شك فى تكفير من رد حكم الكتاب، ولكن من تأول حكم الكتاب لشبهة عرضت له، بين له الصواب ليرجع إليه، والله سبحانه وتعالى لا يسأل عما يفعل، لكمال حكمته ورحمته وعدله، لا لمجرد قهره وقدرته، كما يقول جهم وأتباعه. وسيأتى لذلك زيادة بيان عند قول الشيخ: «ولا نكفر أحداً من أهل القبلة بذنب مالم يستحله».

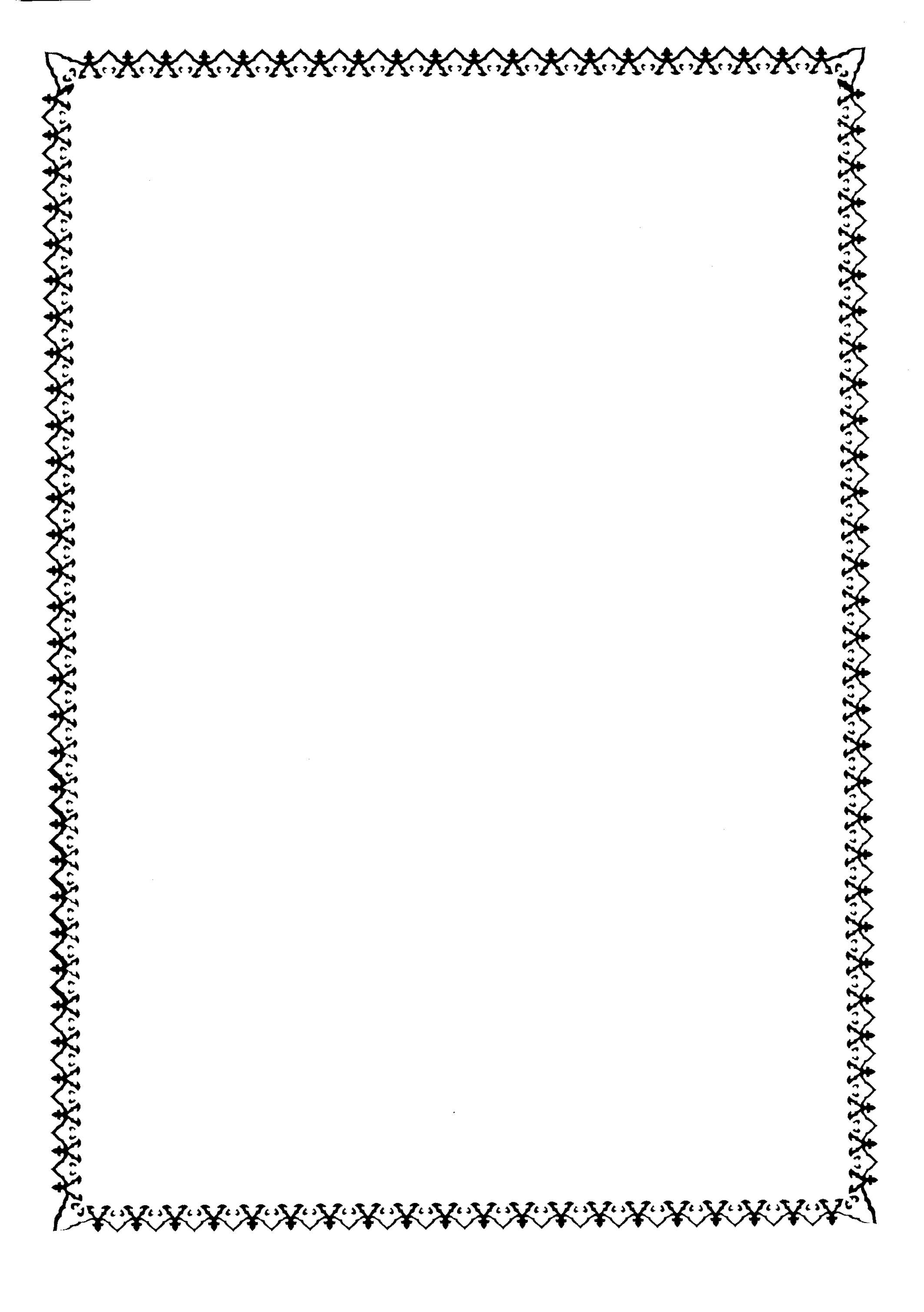
---

(١) **صحيح**. رواه الترمذى [٢٣١٧]، وابن ماجه [٣٩٧٦]، وابن حبان [٢٢٩]، وأبو الشيخ فى «الأمثال» [٥٤]، من طريق الأوزاعى، عن قرة بن عبد الرحمن، عن الزهرى، عن أبى سلمة، عن أبى هريرة رضي الله عنه به.
ورجاله ثقات غير قرة بن عبد الرحمن فإنه صدوق له مناكير، روى له مسلم مقروناً بغيره كما فى «التقريب».
قال الترمذى: هذا حديث غريب. اهـ. ورواه مالك فى «الموطأ» (ص: ٥٦٣)، ومن طريقه الترمذى [٢٣١٨]، والعقيلى فى «الضعفاء» (٢ / ٩)، عن الزهرى، عن على بن الحسين مرسلاً. ووصله أحمد (١ / ٢٠١)، ومن طريقه الطبرانى فى «الكبير» [٢٨٨٦]، عن موسى بن داود عن عبد الله بن عمر العمرى، عن الزهرى، عن على بن الحسين، عن أبيه مرفوعاً به. وإسناده ضعيف فيه عبد الله بن عمر العمرى، وهو ضعيف كما فى «التقريب».
وفى الباب من حديث زيد بن ثابت، وأبى ذر رضي الله عنهما، والحديث حسنه النووى فى «الأذكار» (ص: ٢٨٧)، وصححه ابن عبد البر فى «التمهيد» (٩ / ١٩٨)، والسيوطى فى «الجامع الصغير».

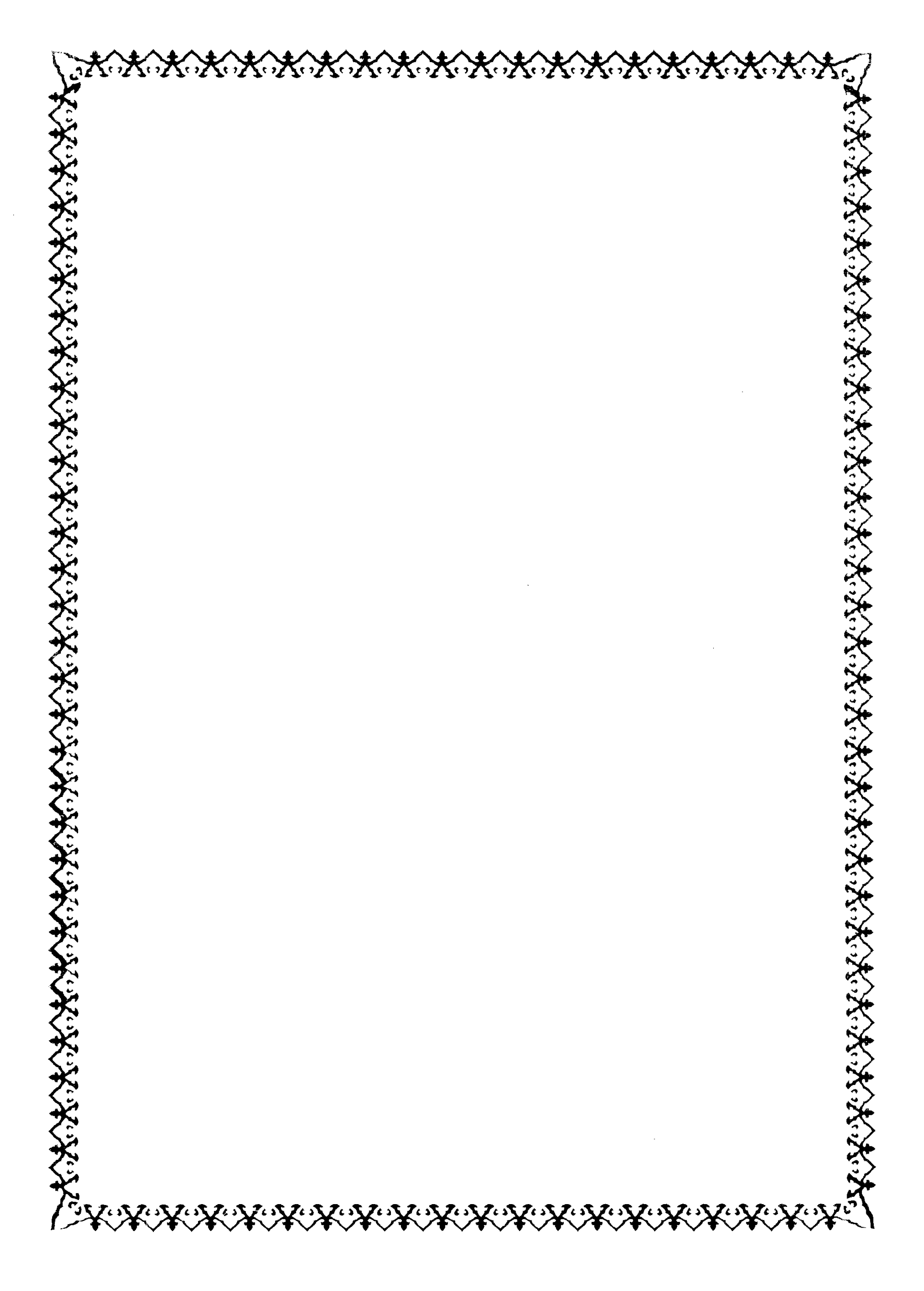
قــوله: «**فهـذا جملة ما يحـتاج إليه من هو منور قلبه من أولياء الله تعـالى، وهى درجـة الراسـخين فى العلم، لأن العلم علمان: علم فى الخلق موجـود، وعلم فى الخلق مفقود، فـإنكار العلم الموجود كفـر، وادعاء العلم المفـقود كفـر، ولا يثبـت الإيمان إلا بقـبول العلم الموجـود وترك طلب العلم المفقود**».

ش: الإشارة بقـوله: فـهـذا. إلى ما تقـدم ذكـره، مما يجب اعتـقـاده والعمـل به، مما جاءت به الشـريعة. وقـوله: وهى درجـة الراسـخين فى العلم. أى: علم ما جاء به الرسول جملة وتفصيلاً، نفياً وإثباتاً. ويعنى بالعلم المفقـود: علم القدر الذى طواه الله عن أنامه، ونهاهـم عن مرامه، ويعنى بالعلم الموجود: علم الشريعة، أصولها وفروعها، فمن أنكر شيئاً مما جاء به الرسول كان من الكافـرين، ومن ادعى علم الغيـب كـان من الكافـرين، قـال تعـالى: ﴿**عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ**﴾ [الجن: ٢٦-٢٧] الآية. وقـال تعـالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ**﴾ [لقمان: ٣٤]. ولا يلزم من خفـاء حكـمة الله تعـالى علينا عدمها، ولا من جهلنا انتفاء حكمته ألا ترى أن خفـاء حكـمة الله تعالى علينا فى خلق الحيات والعقـارب والفأر والحشـرات، التى لا يعلم منهـا إلا المضـرة: لم ينف أن يكـون الله تعـالى خالقـاً لهـا، ولا يلزم أن لا يكـون فيـها حـكـمة خفـيت علينا، لأن عـدم العلم لا يكون علماً بالمعدوم.

انتهي الجزء الأول ويليه إن شاء الله الجزء الثاني



الفهرس



فهرس الموضوعات

